مِهيبُ الرُّكْنِ

obeikan.com

الكتاب : مهيب الركن
المؤلف : محمد ناجي عبد الله
تصميم الغلاف :
تدقيق لغوي : سارة صلاح
رقم الإيداع : 2014/9308
الترقيم الدولي : 978-977-6436-59-6
الطبعة الأولى : 2014

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-02-35860372 011-27772007
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر
obeikan.com

مِهيبُ الرُكْنِ

رواية لـ

محمد ناجي عبد الله

ن للنشر والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

(1)

"تعلن شركة مصر للطيران عن تأجيل رحلتها رقم (528) المتجهة إلى الرياض حتى الساعة الثانية عشرة صباحًا، وذلك نظرًا لسوء الأحوال الجوية"..

هكذا قالتها "فتاة المطار".. كما أسميها. ظننت أن تلك كانت النهاية-أخيرًا-وأن الوقت قد حان للرحيل، مللت الانتظار في هذا المستودع الذي بالكاد يشبه المطار.. أراقب الجالسين من حولي.. أراقب أشكالهم، أحجامهم، تصرفات البعض منهم المثيرة للريبة.. وأحيانا للشفقة، أراقب تلك المرأة تصرخ في أبنائها وتأمرهم بالتأدُّب.. وهذا الشاب الذي يحاول تملُّق الفتاة الجميلة.. أراقب العجوز الجالس وحيدًا ممسكًا بحقيبة أعمال سوداء، يضمها بقوة كأنها مسلسلة بين ذراعيه.. أراقب حامل الحقائب السمج الذي بالكاد حمل حقيبة بوزن بطيخة و يتذمر من البقشيش الزهيد.. أراقب أناسًا انفطرت قلوبهم بكاءً على فراق عائلاتهم وأبنائهم، وآخرين لم يذرف أصغرهم دمعة واحدة.. وهذا الذي ينفث دخان التبغ في وجه طفلته، وتلك المرأة الجالسة منتفخة البطن.. آه،إنها حامل!!.. أرى رجالًا ونساءً تلفحوا بوشاحٍ أبيض بلا خيوط.. لا لا، ليسوا متهمين في قضية آداب،إنهم حُجَّاج.. أفتح علبة المرطبات في يدي وأتناول منها رشفة.. ثم أعاود المراقبة. حاولت قتل الفراغ حتى تعاود ذات الصوت الجميل خطابها: بأن

الرحلة قد استُئنِفَت وأنه على الركاب التوجه إلى الصف بانتظام للولوج إلى الطائرة.. متى سأتوقف عن المراقبة وأبتعد، ولكن لا جدوى، يبدو أني سأنتظر قليلًا.. سأعود مرة أخرى إلى لعبتي المفضلة.. المراقبة. اعتدت أن ألعب تلك اللعبة دومًا، أشغل الراديو الصغير خاصتي، أختار أغنيتي المفضلة ومن ثم أراقب تحركات الناس من حولي.. أحيانًا أسمع موسيقى صاخبة، أرى الناس في حركاتها تصرخ ويركضون كالمجانين.. وأحيانًا أستمع إلى أغاني "أم كلثوم" وأراهم يرقصون ويلعبون.. حركاتهم غريبة وتطابق الموسيقى بصورة عبقرية.. تعتقدون أني مخبول؟؟!.. غريب الأطوار؟؟!.. ههه.. أعلم، لكن اتفقنا أو اختلفنا فدعونا نضع في الحسبان أن تلك اللعبة مسلّية.. ثم ماذا تتوقعون من طفلٍ في الصف الخامس الابتدائي؟؟!!..أها، لم أعرِّفكم بنفسي بعد.. اعذروا لي صغر سني وقلة خبرتي بقواعد الإيتيكيت المملة..«عبد المعطي غازي عبد المعطي».. تذكروا هذا الاسم جيدًا.

لازلت أمارس لعبتي المفضلة، ولازلت أراقب الناس من حولي بمطار القاهرة،إذ لم أرَ مطارات من قبل-و لاأخفيكم سرًّا- كانت تلك المرة الأولى التي أذهب فيها إلى مطار، والحقيقة الحماسة تملأني لركوب واحدة من تلك الطائرات.. لكني لم أفهم، أأنا الوحيد السعيد بهذه الرحلة؟، أنا وإخوتي الصغار:منعم وجازمينا. لا أعرف ماذا كان يدور بذهن أمي حينما اختارت اسماء اخوتي، وبالطبع قبلهما اسمي، أي أب يقبل باسم ابن كهذا؟!!.. الغريب أن أسمي واسم أخي لا غبار عليهما، عبد المعطي نسبة إلى اسم جدي، و"منعم"-و

هـو اسـم أخـي-الـي حـد مـا متناسـق بجانـب اسـمي.. لكـن "جازمينـا"؟؟!!.. علمـت فيمـا بعـد أن أمـي اختـارت الاسـم نسـبة إلى إحـدى نجمـات هوليـوود اللاتـي لا أذكـر تفاصـيل أشـكالهن كثيـرًا، لكـن يقـال إن "جازمينـا" كانـت أجملهـن، وعليـه اختـارت أمـي اسـمها لمولودهـا الثـاني.. وكـأن ذلـك شـكَّل فارقًـا كبيرًا!!!. أبي هـو «غـازي عبـد المعطـي السـيد»، طبيـب أسـنان مـن الطبقـة المتوسـطة.. نعـم نعـم، أعلـم مـا يـدور بأذهـانكم الآن.. "أطبـاء الأسـنان هـم الأسـوأ على الإطـلاق".. أوغـاد يرتـدون الملابـس الباهظـة، بـالغو النظافـة، مغـرورون، أوغـاد(مـرة أخـرى).. لا أدري لِـم يعتقـد الكثيـرون دومًـا عنـدما أفصـح لهـم أن والـدي طبيـب أسـنان أنـي بـالأحرى تربيـت في فـيللا مُطِلَّـة علـى البحـر وأذهـب للتبضـع فـي"المـولات" الفخمـة بسـيارتي"الرولـز" الفارهـة.. على النقـيض، يرهبنـي الـبعض ويمقتنـي الـبعض الآخـر: فطبيـب الأسـنان بالنسـبة لهـم يشـكِّل كابوسًـا أزليًّـا متمـثلًا فيصـدمة منـذ الصـغر حـين يـتم تقييـدك لخلـع ضرسـك أو إدخـال آلات التعـذيب القـذرة لاقـتلاع رأسـك ربمـا.. تبًّـا لأفـلام السـينما التـي وضـعتني أنـا وأبـي في دائـرة الرعـب تلـك. أمـي هـي الأفضـل علـى الإطـلاق، كسـائر الأطفـال، أعتبـر أمـي الأم المثاليـة، طبيبـة عـلاج طبيعـي.. تخرجـت مـن معهـد العـلاج الطبيعـي، لكننـا نعتبرهـا طبيبـة بـلا شـك، في النهايـة هـي أمـي، وعنـدما تقـول أنـا طبيبـة.. إذًا فليـذهب أي رأي آخـر إلـى الجحـيم! .لسـنا مـن "أولاد الـذوات" الـذين يـأكلون الجـوز واللـوز عوضًـا عـن اللـب الأسـمر "السـوبر" مـن محمصـة رخيصـة تتوسـط شـارعًا ضـيقًا بحي الأميريـة.. شـارع التحريـر بالأميريـة، حيـث يقـع قصـر الطبيـب غـازي عبـد

المعطي.. قصرًا لا يتجاوز خمسة وثمانين مترًا، لكن أمي دومًا كانت تسميه "قصر الغازي". الكل يعلم أني ابن طبيب الأسنان الأفضل في شارع التحرير، أبواب السماء تنفتح لي بالخيرات.. يبدوا أن أبي ترك في فم كل فرد من أفراد الأميرية تذكارًا صغيرًا يذكِّره بفضله عليه. لم يكن أبي جشعًا.لم يكن يملك من التركة أو المال ما يؤهله لشراء عيادة خاصة. قبل أن يتعرف إلى أمي لم يكن يملك سوى ما يرتديه-على حد قولها-.لكنها كما وصفته دائمًا-ولا زالت- "محاربًا".كنت أسمع دومًا عن قصة "المعذبون في الأرض"، أولئك الذين يعملون ويعملون ويعملون حتى تنقطع أنفاسهم وترتوي الأرض من عرقهم ثم يموتون غير مخلفين أيإرث ولم يشعروا براحة أبدًا.. أعتقد أن أبي كان ولا يزال من هذا النوع. أمي كسائرصديقاتها، لا تزال تتحدث عن اليوم التي تركت فيه كل من تقدموا لها من "شنبات" وكبار وأعيان "ملقطين" لأجل أبي ("ملقطين" هي قرية أو مركز ريفي صغير وهو مسقط رأس والدتي المصون)، تتحدث دوما عن كم عانت لكي تظل له هو فقط.. تتحدث عن كل هذا فقط بذاكرة حديدية عندما تنشب معركة بينها وبين أبي.. كلما تعالت أصواتهما حول الأمور المادية، يبدأ هو بفقد أعصابه ومن ثم تبدأ الحفلة.. ولا أقول إنه عنيفٌ، لكن شجار الأطباء يختلف عن أي شجار آخر قد تراه في حياتك.. وغالبًا ما ينتهي بهدوء تام ونسيان كل ما حدث، ومن ثم العودة إلى نقطة البداية.

كنتالأول في عـائلتي، وأكبر إخـوتي سـنًّا. والـدي هـو الطبيـب الـذي لـه الفضـل على الشـارع بأكملـه، أحصـل على الحلـوى المجانيـة مـن عـم "جـرجس" الرجـل العجـوز صـاحب البقالـة أسـفل بيتنا؛امتنانًـا منـه على طقـم الأسـنان البلاسـتيكي الـذي أعـاده عشـرين عامًـا مـن العمـر. كنـت أول مـن يحصـل على درَّاجـة في العائلـة، دراجـة زرقـاء بظهـرٍ قطني وجـرس وسـنادات لعـدم الوقـوع.. سـرعان مـا تعلمـت قيادتهـا مـن دونهمـا. كنـت أجـوب الأرض جوبًـا بهـا، أنطلـق لاكتشـاف بقـاعٍ جديـدة، أسـبح فـي ملكـوت اللانهائيـة، أرمـح لسـاعات وسـاعات فيالشـارع.. أشـعر أحيانًـا وكـأني ذهبـت إلى مـدن أخـرى.. لأكتشـف بعـدها أنـي لـم أتجـاوز نهايـة شـارعنا!. كـم تمنيـت أن أقـود "موتوسـيكل"؛فالدراجـة البخاريـة هـي الأفضـل على الإطـلاق.. لا تشـعر بالتعـب بعـد فترة، لا تصـاب بشـد عضـلي، ولسـت مضـطرًا إلى تغيير "الجنزيـر" بمفتـاح 14 كلمـا خـرج عـن مسـاره.. نعـم كنـت أعلـم تلـك المعلومـة جيـدًا، فقـد كانـت لـدي مغـامراتي مـع «سـيد»-صـديق الشـارع-والحفيـد الوحيـد لعـم توفيـق العجلاتـي. سـيد كـان يشـبهني كثيرًا بـالرغم مـن فـروق التربيـة والأصـل والتعليـم.. كلانـا مـدلل، كلانـا لديـه دراجـة فريـدة، كلانـا مسـبِّبٌ للمشـاكل، كلانـا يمتلـك السـلطة في شـارعنا الرائـع.. وكلانـا يحصـل على الحلـوى المجانيـة مـن عـم "جـرجس"، فعـم جـرجس لديـه "دراجـة" بحاجـة إلى التصـليح. سـيد هـو عقليـة لا يسـتهان بإمكاناتهـا، عنـدما أخبرتـه أنـي أتمنى ركـوب إحـدى الـدراجات البخاريـة، ابتسـم لي في خبثٍ وقـال: "طـب واللـي يركبهالـك؟؟!".. ابتسـامته الشـيطانية المغريـة أثـارت فضـولي، اتبعتـه حتى النهايـة.. اشـترى زجاجـة مـاء بلاسـتيكية وشـربناها سـويًّا ثـم قـام

بدهسها بقدمه حتى ساواها بالأرض، أمرني بعدها بإحضار الدراجة من البيت-فقد كنت أحملها صعودًا ونزولًا، من وإلى الشقة في الدور الرابع-،ولم أكن أأمن عليها بربطها بجنزير بباب العمارة كما يفعل باقي الصبية. بعد أن أحضرت الدراجة قام سيد بوضع الزجاجة البلاستيكية بين البدَّال والجنزير، وطلب مِنّي تجربتها.. لم أصدِّق، المحتال سيد، الدراجة الآن صارت تصدر صوتًا مع كل تبديلة من البدال كأنه صوت موتور الدراجة البخارية، وكلما بدَّلت أسرع بقدميَّ، كلما زاد الصوت ارتفاعًا!!.. سألته مندهشًا: "انت اتعلمتها فين ديه ياض؟!".. ردَّ ضاحكا بضحكة تشبه "حيوان العِرسة": "عيب علييك، انت فاكرني عبد المعطي ولا إيييه؟؟!".. تخيلت دومًا لو أن سيد هو أخ لي.. شريك الجريمة الدائم.سيد يتمتع ببنية قوية، نسبة إلى طفل في الثالثة عشر من العمر، ووجه أسمر اللون، قاسي الملامح، ذو رأس طويل نسبيًّا، وشعر مجعد قد تجرح أصابعك إن مررتها عليه.كنت دومًا أنعته مازحا بال"ميكانيكي" فهو في الحقيقة يذكِّرني بهم كثيرًا، بينما كنت أنا على النقيض تمامًا:أبيض الجلد، ممتلئ الجسد-قليلًا-أو بالعامية: "متختخ"، وجهي منتفخ كالبدر، مثقلًا -للأسف- بخدود بيضاء ضاربة فيها الحمرة، وشعر بني، وعينان عسليتان كعينيْ أمي.. كم كنت لأصبح وسيمًا كأحد نجوم السينما لولا حلوى عم جرجس التي أصابتني بالسمنة.. أم أنه عقاب الله لي لأني لا أدفع ثمنها!!. ليست تلك كل الفروق بيني وبين شريكي في المصائب سيد، لازال هناك فرقٌ آخر، فرق تمنيت لو أنه لم يوجد.. فلولاه لكنا كالتوأم الملتصق.. نعم، المدرسة.

Obeikan.com

سيد هو في الأصل من عائلة أزهرية بحتة. التحق والده الحاج عيسى توفيق بمدارس الأزهر منذ أن كُتِبَ له الدخول إلى المدارس رغمًا عنه. كان يهوى حياة الشارع تمامًا كسائر أطفال الأميرية أو -إن صح القول-كسائر أطفال البلد. أصر والده توفيق العجلاتي ألا يسلك ابنه نفس الدرب.. وعليه، كان سيد أول من التحقوا من أقرانه بمدارس الأزهر المجيدة. كم ألحَّت أمي على أبي فكرة إدخالي إلى مدرسة أزهرية. بالطبع كنت مساندًا لها؛ ففي النهاية سأكون برفقة شريك الجريمة. لكن أبي كان معارضًا أشد المعارضة على هذا القرار. دومًا كان منفعلًا هو عندما تحاول والدتي إقحام الموضوع إليه في شتى مجالات الحياة اليومية.. أثناء القيادة، الأكل، التنزه، الذهاب إلى جدتي-والدتها-وقبل النوم بالطبع. وفي الواقع كانت تواجه الإجابات نفسها كل مرة.

- وبعدين بقاااااا.. انتي مابتزهقيش يا حبيبتي؟!
- أنا مش فاهمة انت إيه اعتراضك!
- يا فاطمة.. ياااافطمة، المدارس الأزهري مابقيتشي زي زمان، مش زي ما انتي متخيلة والمصحف!!

أدارت أمي وجهها بعيدًا عن أبي، تتمتم قائلة بصوت منخفض: "الله يرحم.. ما الحاج كان مدارس أزهري!!:

صمت أبي قليلًا.. تغيرت ابتسامته الساخرة إلى شيءٍ آخر.. أنزل يديه وهو محكم قبضته، أمال برأسه قليلًا وهو ناظر إلى أمي وعيناه يملأهما شرٌّ لم أعهده حتى في "مازنجر" الوحش ذو الوجهين

obeikan.com

"أبو الغضب".. رأيت أمي تنكمش وتضاءل حجمها كأنها تعلم بالظبط ما ستؤول إليه الأمور.. لم أرَ أبي يضربها يومًا، كان الأفضل والألطف على الإطلاق.. حتى وقتها لم يفعلها!!!.اكتفى أبي بترتيل "قل أعوذ برب الناس.. ملك الناس.. إله الناس.. من شر الوسواس الخناس.. الذي يوسوس في صدور الناس.. من الجنة والناس"..

- معلشي.. أنا عارف إنك ماتقصديش.. لا حول ولا قوة إلا بالله، حبيبتي المدارس الأزهري دلوقتي بقت أسوأ مدارس، هما نفسهم بقوا يعملوا منها تعليم خاص.

أمي(ردت بهدوء): طيب اقنعني!!

-تخيلي معايا الموقف.. مدارس تقريبًا أرخص مدارس في منشآت التعليم، ولو انت طالب مغترب ليك الحق انك تسكن في مساكن الطلاب بأجر تقريبًا رمزي، أكلك وشربك وجنب مدرستك أو جامعتك ومش مضطر تدفع ثمن مواصلات..

أمي (مقاطعة إياه):

-أيوة ماهو ده اللي أنا بأقوله برضو، بغض النظر عن موضوع المواصلات لأنه مش هايحتاج يقعد في مساكن طلبة، بس أسعارها كويسة، والولد بعد كدة يقدر يدخل الكلية اللي هو عايزها، ما انت عارف ان كلياتهم مجاميعها قليل.

-ماهو عشان مجاميعها قليلة وكل الكلام الحلو ده إذًا أي حد يقدر يدخل، كله بقى، الكويس والوحش، النظيف والجربان،

oboeikan.com

اللي معاه والليمامعهووش، وهاتبقى عاملة زي السجن بالظبط.. وبعدين هانرووح بعيد ليه؟؟ ما عندك أهو الحاج عيسي أبو سيد الليابنك ماشي معاه ليل نهار،إنتي شايفة ان أخلاقه "وااو" يعني؟!مابيبطلشي سب دين وكأن دي صباح الخير.. فييه إيه يا فاطمة؟؟!!

هاا هما الآن يتحدثان عن سيد مبتعدين عن الموضوع الأساسي.. بالله عليكم، حُبًا في الله اتركوا سيد وشأنه!!!

قبل النوم.. كان عليها أن تقحم موضوعًا آخر إلى رأسه:

"ما انت لو كنت سمعت كلامي وقبلت عرض الشغل اللي جالك في السعودية"

لم يكن هذا العرض له فقط.. كان العرض كالتالي:

"مركز طبي بالرياض العاصمة بالمملكة العربية السعودية بحاجة إلى أطباء شبان جدد، بشرين وأسنان وعلاج طبيعي"

"مستشفى الريان التخصصي".. بالذمة ده اسم؟؟!.. لا يكون تبع شركات الريان إياها ويطلع هوباا هو كمان!!!

أمي (في عصبية): يوووووووه يا غازي،إنت مافيش حاجة عاجباك أبدًا؟؟!!!، اتلكك بقى عالاسم، ما انت من ساعة ما اتخطبنا ورتم حياتك بقى بطيء.. كل حاجة بقت بطيئة.. رضيت أعيش معاك في شقة "بسوس" وقلت معلشي كلها فترة وتعدي، ويوم ما اتجرأت وجمدت قلبك ودخلت مشروع المستلزمات الطبية وكانت كل

Obeikan.com

حاجة ماشية تمام، تراجعت في آخر لحظة وسحبت الفلوس وحطيتها في شقة في الأميرية وقولتلي: "إيجار إيجار، أهي أحسن من بسوس برضو وأقرب لمامتك"..

-طب بذمتك مش أقرب؟؟

أمي (مستشيطة غضبًا): اننننت هاتفرسنني؟؟!!!!!.. هو عشان ماما عايشة في السواح يبقى تجيبني الأميرية؟؟!!.. هو أي خرابة قريبة وخلاص؟؟!!

- !!!!!.. اتفضلي كملي (كم أعشق برودة أعصابك يا أبي.. مثلي الأعلى في الجليد)
- حتى الماستر بتاعك ماكملتهوش، ولما قولتليديه الحاجة الوحيدة اللي أنا ضامنها والتعيين وهاحضر على حساب الكلية اطمنت وقولت أهو career كويس.. لكن لحد دلوقتي حاسة ان كل حاجة زي ماهي.

- وأنا فعلًا خلصت دبلومة الجراحة وانتي عارفة إن ماجيستير الcrown بياخد وقت وقرف، يعني حتى احنا لو سافرنا دلوقتي بالدبلومة مش هاقدّم ولا هأخَّر.. اللي زيي يا حبيبتي كتيير.. أكتر من الهم عالقلب.

(عادت مرة أخرى إلى موضوع المدرسة بعد استشعارها اليأس): طيب هانعمل إيه في المدرسة؟!

- هاقدمله بكرة مع طارق ابن عمه.

لم ترد أمي بكلمة واحدة،أطفأت النور وأطفأت وراءه عقلها.

خمس سنوات مضت في المدرسة التجريبية.. لم تتغير الأمور كثيرًا عن نقاش المرة الأولى بين والديَّ. كنت الأول في عائلتي الذي يرتاد مدرسة تجريبية بعد طارق، مدرسة "لغات" كما يسميها أقاربي.في البداية لم أعتد على اليونيفورم وطابور الصباح، لم أتقبَّل يومًا فتيان الكشافة الذين عينتهم المدرسة على رؤوسنا لمراقبتنا في الطابور.. لم أعتد حصص الموسيقى التي كانت تلغى في الغالب ويتم استبدالها بالجلوس صامتين في الفصل.. لم أرغب يومًا بالنزول إلى "حوش المدرسة" الرائع خاصتنا،إذ كانت الأتربة ورائحة الغبار هناك كفيلة بتمزيق أنفي، رائحة الغبار النفاذة التي تذكّرني دائمًا بمشروب "العرق سوس" وعليه كرهت تناوله لأنه يذكرني بالمدرسة. كم تمنيت ككل طفل اللعب والتمتع بالساعة الوحيدة بالمدرسة-الحصة الرياضية-لكننا كنا نمارس رياضة من نوع آخر، كانت شاقة وتنمي لدينا حس التعاون والروح الرياضية.. كنا نجمع القمامة من الملعب الكبير في زمن قياسي، وكان علينا الإسراع إذا أردنا أن نلعب الكرة في آخر خمسة عشر دقيقة.. كانت حصة التربية الرياضية تبدأ بالصافرة الأولى من فم مدرب الألعاب.. يستعد الكل

-أولاد وبنات-حاملين أكياس قمامة سوداء وأعيننا تتلفت يمينًا ويسارًا ناظرين إلى بعضنا البعض مبتسمين.. كأننا في سباقٍ مع الزمن.. ثم تنطلق الصافرة الثانية ليركض الجميع في شتى الاتجاهات لجمع القمامة في مشهد بانورامي عجيب.. الأولاد

والبنــات يتســاقطون متســخين بالرمــل والطــين وأكيــاس القمامــة تمتلئ، في البدايــة كنــا نتكاســل لكي لا نجمــع القمامــة.. حتى تــم تحميســنا ذات يــوم بــأن حصــة الرياضــة ســاعة واحــدة وإذا أردنــا اللعب في آخـر ربـع سـاعة فعلينـا الإسـراع.. هكـذا ظللنـا نعمـل لـثلاث سـنوات كـل يـوم بـدأب وفاعليـة لإنهـاء مهـام "الزبالـة" في حـوش المدرسـة.. الغريـب أنـي تسـاءلت طـوال ثـلاث سـنوات عـن مـن لديـه القـدرة على مـلء ملعـب رياضـة بهـذا الحجـم كـل يـوم بالقمامـة.. مـن أيـن تـأتي تلـك الأوراق والمخلّفـات اللعينـة!!. مـرت سـنوات المدرسـة كالسـجن بالنسـبة لي، لـم تكـن مـدارس اللغـات تلـك كمـا توقعـت.. تمنيـت لـو أني كنـت مـع سـيد،إذ لـم أتخيـل مدرسـته أسـوأ مـن ذلـك. كرهــت أســاتذتي المبجلــين مــن الجنســين، وكانــت مــادة اللغــة الإنجليزيـة هي الأسـوأ على الإطـلاق.. لـم أتقبَّـل يومًـا أسـتاذة تلـك المادة مـيس "عبيـر".. تلـك الـوحش ذو الحـوافر عابسـة الوجـه،لكم تمنيـت لـو أنـي أملـك القـرار لقتلهـا، أمقـت رائحـة الخمـس خمسـات التي كانـت تضـعها، أشـعر بالاشـمئزاز مـن رائحـة بـودرة الوجـه المبـالغ فيهـا التي كانـت تجعـل منهـا مهـرِّج سـيرك، وددت قطـع شـعرها القصـير الـذي يـذكِّرني بسـلك المـواعين الـذي اعتـدت شـراءه مـن عـلَّاف قريـب في شـارعنا، أريـد التقيـؤ حينمـا أسـمع صـوتها.. كانـت ترتـدي تنـورة طويلـة تظهـر أسـفل قـدميها فـوق الكعـب بقليـل.. لـم يكـن يهمني ذلـك، مـا كـان يشـعرني برغبـة جامحـة في قطـع تلـك القـدم هـو شـريان أزرق نــابض بــارز للخــارج يثيــر البشــاعة داخلــي. لــم تكــن تلــك أســوأ علاماتهـا،إذ لـم أنـسَ أبـدًا يـدها التي كانـت تلتـف حـول أذني اليمنى في حركـة غريبـة، تسـتحوذ على أذني بأصـابعها ذات الأظـافر الشـيطانية

ومـن ثـم تقـوم بلـف يـديها كمـا تـدير مفتـاح السـيارة قبـل الانطـلاق بهـا لينـتج عـن ذلـك تـورُّم أذنـي واحمـرار لونهـا وسـخونة تظـل حتـى نهايـة اليـوم.مـا كـان يثير غضـبي هـو حـين عـودتي إلى المنزل لإخبـار والـدي ولا أجـد منـه ردة فعـل.. صـادف أن عـدت إلى البيـت في يـوم مـا، وكانـت تلـك الأفعـى قـد بلغـت مـن أمـري حـد القتـل، أخبرت أمـي بمـا حـدث وبـردة فعـل أبـي سـابقًا.. كـان عليَّإيقـاظ البركـان الكـامن بـداخلها لتتخـذ الـلازم.. فـأذني لـم تعـد تحتمـل أكثر. بعـد أن أخـذ أبـي قسـطًا مـن غضـب أمي وأسـقطت عليـه وابلًا مـن العتـاب، كـان عليـه أن يجـد الفاعـل!! .. بـالطبع أمسـك بـي وأغلـق بـاب الغرفـة.. تـذكرون تلـك النظـرة التـي تحـدثت عنهـا سـابقًا؟؟!!.. كانـت تلـك المـرة الثانيـة التـي أراهـا، ولكـن أيضًـا للمـرة الثانيـة يهـدئ مـن روعـه ويقترب منِّـي بهـدوء في ضـوء غرفـة خافـت والأصـوات بخارجهـا معزولـة وأنـا وهـو فقـط.. اقترب أكثر فـأكثر،همسَ في أذني بهـدوء حتـى لـم أكـد أشـعر بشـيء إلا أنفاسه الساخنة تدغدغ أذني:

-أنـا مـش هـاتكلم كتيـر.. همـا كلمتـين هاقولهملـك وبعـدها انـت صاحب القرار.

-أنا (مترددًا): إتفضل.. !

-أنـا لـو روحـت للمـديرة اشـتكيها عـن المدرسـة دي.. يمكـن ماتعملشـي حاجـة أو حتـى تصـدقنا أنـا وانـت.. لكـن هاقوللـك علـى حاجـة تعملها..

-أنا (بحماسة طفل في الصف الثالث الابتدائي): اييه؟!!!

obeikan.com

-لما تمسكك من ودنك تاني.. .. في أي وقت بقي.. ."عضها من إيديها"

-.. .. !!!!!!!!!!

-زي مابقوللك كدة تمام.. ماتخليش حد يقرصك من ودنك أبدااا، وإوعى تستني لحد ما تيجي البيت وتحكيلي أنا أو ماما.. ما تستناش حد ياخدلك حقك.

-أعضهااا من إيديها يا بابا؟؟!!!

-أيوة يا عطوة.. وهي ليه أصلًا تمد إيديها عليك.. مش هاقولهالك تاني.. لما تقرصك من ودنك تانيإوووعى تسكت.. عضها من إيديها اللي قرصتك.

(بعد أن أضيء وجهي تهللا بتلك الفكرة الرائعة): طيب.. لو.. لو يعني هي اشتكت للمديرة اني عملت كدة.. أعمل ايه؟؟!

قاطعني أبي متلهفًا للإجابة:ساعتها بقي تجيلي وتقولي وأنا أفرجلك عليها المدرسة كلها.. اتفقنا يا عطوة؟

قالها أبي ثم ابتسم بهدوئه المعتاد.. وفي الحقيقة، تلك كانت الخطة الأمثل لرد اعتباري؛فلم أكن لأشفق عليها كثيرًا.جاء اليوم المعهود، جاءت حصة اللغة الإنجليزية التي تدرِّسها كبيرة المردة والجن.. كنت يومها عازمًا على إيقاظ قواها الخفية واستدراجها إلى أقصى درجات الغضب.. وكزت زميلي وصديق المدرسة الوحيد "أحمد محمد كمال" الجالس بجانبي، قلت له بصوت عالٍ:

-بيقولوا ان ميس عبير ماكانتشي جاية النهارده.. وان الواجب هايتلغي.. الحمد لله ربنا رحمنا منها ههههه..

-يااااه.. أخييرااا (بصوت عالٍ أيضًا)

يبدو أني في النهاية حققت مرادي،إذ أخذ الأولاد في الصف يرددون ورائي الأقاويل إلى أن حلت غيمة كثيفة مظلمة أصابت الفصل بالظلام، وصاحبها برق ورعد علمت من خلالهما أن سيدة اللغة الإنجليزية قد أتت.. أخذت تبحث بعينيها عن الوغد الصغير صاحب تلك الأقاويل.. حتى وجدت ضالتها بمساعدة عضو فريق الكشافة الأبله.. قامت بحركتها المعهودة، كانت أظافرها أطول وأكثر حدة هذه المرة.. اشتدت قبضتها لتهرس أذني الصغيرة، أحسست بالسخونة واحمرارها كالعادة وأحسست بمخالبها تغرس فيأذني.. لم أستطع الانتظار أكثر، تذكرت كلام أبي.. حانت اللحظة الحاسمة.. أمسكت بيدها بقوة ومن ثم صرخت: "كفااااية بقاااااااااااااااااااااااااا" وقضمت يدها قضمة كحيوان قارض لم يتركها إلا حينما اختفى صوتها من جراء الصراخ والتلاميذ من حولها منفجرين ضحكًا.. كنت الأول والوحيد الذي أخذ بثأر الجميع.. كنت ملكًا ولم أشعر بالشفقة قَط على العلامة التي تركتها في يدها.. أحسست يومها أني تحررت من خوفي واحتياجي لأبويَّ، وكان عليَّأن أصنع "هالة التنين" خاصتي في تلك المدرسة.. وقد تمَّ.

انقضت سنة أخرى لأنتقل إلى الصف الرابع الابتدائي.. منذ حادثة ال"عض" صرت ذا بصمة في مدرستنا.. الأمور تحسنت كثيرًا مع من حولي؛ فقد أصبحت أشتهر بجرأة لم يعهدها تلميذٌ قبلي..

Obeikan.com

أصبحت أحد أعضاء الكشَّافة المكروهين بعد أن كنت عدوًا لهم، تعرفت إلى أصدقاء كثر وصرت كالعرَّاب بينهم.. بنيت مجتمعي الخاص وامتثلت لنصيحة والدي التي همس بها في أذنيفي جلسة التنويم المغناطيسي التي جرت في الغرفة منذ عام.. صار لي "دِكة" خاصة فيالفصل في الصف الأول كالملوك.. إلى أن حدث شيءٌ غير معهود.. شيء أثار فضولي بحق: «أمجد عبد الغفور».. الاسم الأشهر في الفصل-بل في المدرسة-على الإطلاق.. الطالب المثالي إلى درجة الريبة، خلوق وحسن المظهر، رياضي لامع ومتألق كالعادة في خطابات المدرسة الصباحية، لم تتغير تسريحة شعره منذ أن عرفته في الحضانة.. تعلمون ذاك النوع؛ الفتى أخضر العينين أشقر الشعر أبيض البشرة ورقيق الملامح.. صاحب كاريزما ومستقبل ساطع كالنجم.. أحد أبناء رجل الأعمال المعروف-على حد قول الجميع-«عبد الغفور الرازي».. أردت أحيانًا أن أشكر أبي على تفضيله إدخالي مدرسة لغات علىالمدارس الأزهرية، فقط لأنه أعطاني شرف الوجود في نفس المكان الذي يستوعب كلينا: أنا وأمجد. في أحد تلك الأيام التي لم تجرِ بها أحداثٌ كثيرة لتذُكَر.. دخلت علينا وكيلة الصف واقتربت من مدرسة المادة هامسة في أذنها بخبرٍ ما لتلتفت كلتاهما بأنظارهما إلى أمجد مع ابتسامة هادئة، ومن ثم تنادي المدرسة على أمجد ليأتيإليها، تتحدث إليه بصوت منخفض لم نستطع التقاط معلومات منه، ثم تأمره بالذهاب مع الوكيلة.. بعدها.. لم يأتِ أمجد إلى المدرسة مطلقًا.علمنا فقط بعد مرور عدة أيامأن والده قرَّر الذهاب إلى دولة خليجية والمكوث هناك لفترة من الزمن، لأجلٍ غير مسمى.

obeikan.com

أعادني ذلك إلى موضوع عقد العمل والسفر إلى الخارج.. أمي لم تعد تتحدث الآن عن أي شيء قَط سوى هذا الموضوع. لم يعد أبي بذلك البريق منذ خمسة أعوام؛ عندما اختار العمل الأكاديمي في الجامعة.. باتت ظروفنا المادية المتدهورة العامل المشترك بين سائر مشكلاتنا، لا يزال والدي غير قادرٍ على مصروفات عيادة أسنان خاصة معلِّلًا ذلك بأن لعيادات الأسنان إعدادًا خاصًا وتكلفة غير عادية.. وما زاد من حدة النقاش هو تدخُّل جدتي«حسناء» "والدة أمي" وإلحاحها الدائم على أبي أن يسرع بفتح العيادة قائلة دومًا:

"دكتور السنان مستقبله كله في العيادة.. إتلحلح يا غازي بقى"

وكان عيد ميلاد طارق ابن عمي هو القشة التي قسمت ظهر البعير.لطالما سعدت كثيرًا بأعياد الميلاد، أنتظر تلك المناسبات بين أفراد عائلاتنا بشغفٍ،لكني للمرة الأولى ألاحظ وجهيْ أبي وأمي هكذا.. بدا الأمر وكأنهما يخفيان قلقهما من شيء ما، بابتسامات جافة متصلّبة يلقيانها بوجوه الحاضرين.. قمت بتخمين بعض الأجوبة برأسي كعدم رضا أبي عن ملابس والدتي فاقعة اللون، ربما أيضًا قد يكون بسبب ثقل دم عمي والد طارق والذي اضطر والدي إلى تحمُّل نكاته السيئة فقط؛ احترامًا لابنه، ولكي تمر الليلة بسلام.. ربما كان السبب في تحريض زوجة عمي لأمي على فكرة السفر إلى الخارج مرة أخرى قاذفة إلى رأسها الكثير من التبريرات لتلقنها لأبي فور وصولهما المنزل (مع تأكيدها لها على طرح الموضوع الليلة وفور وصولهما).. قد يكون سبب تجهمهما أيضًا هو شجاري مع «جازمينا» وإسقاط قالب عيد الميلاد غالي الثمن

وإحراجهما أمام الحاضرين، كلها أسباب وجيهة لتبلُّد وجههما.مرت ليلة عيد الميلاد على خير بعد أن عادت جدتي معنا للمبيت والرحيل في اليوم التالي. استيقظت صباحًا على بكاء أخي الصغير وشجار أبي وأمي.. اقتربت أكثر لأسمع صوت أمي تتحدث عن عيد الميلاد بالأمس؛ لم يكن النقاش حول أيِّمن الأسباب التي تكهَّنت بها، لكن كانت حول "هدايا أعياد الميلاد"

-وهانفضل على كدة كتيير يا غازي؟؟ المرة ديه عدت والمرة الجاية؟؟ واللي بعدها؟؟ وكل عيد ميلاد وعيد أضحى وعيد صغير!!!

-يعني ندخل عليهم من غير هدية للواد؟؟!

-حبيبي أنا مابتكلمشي عن كده، بس انت مرتبك كاام وأنا مرتبي كاام عشان كل عيد ميلاد ندخل بهدية ويادوبك مانلحقشي ناخد نَفَسْنا يقوم العيد داخل علينا وعيدية للكل ودوامة جديدة.

-يعني انتي عايزاني أعمل ايه؟؟!!

-انت عارف أنا عايزة إيه.. لو استمرينا بالمنظر ده يبقي ولا هانقدم ولا هانأخر.. حبيبي احنا مابقاش فيه فاايض عندنا للزمن.. صفر.. ولا أي حاجة!!، بقينا عايشين على أمل انه يتبقى أي حاجة لآخر الشهر، وده في حد ذاته معجزة.. ده لولا القرشين اللي ماما بتساعدنا بيهم كان زماننا بنشحت.

أبي (بعد زفرة هم): وأنا مش ساكت يا فاطمة، شغال صبح في الجامعة، وبعد العصر فيعيادة، وبالليل شيفت مستوصف.. أعمل

opelkan.com

إيـه أكتـر مـن كـده؟؟ ده انتي لـو عصـرتيني في معصـرة مـش هـاتلاقي حاجة تاني..

-بس ماما بتقوللي...

-يـاااادي مامـا.. عشـان مامـا نقلنـا سـكن جنبهـا، عشـان مامـا مابقيتشـي عـايش غير عشـان يطلـع عيني، عشـان مامـا بعـدت عـن كل حاجة..

-لـم يكمـل أبـي كلمتـه حتى أحسسـت بجـدتي خلفـي تـدفعني لأتنحى جانبًا وتصرخ قائلة:

-"مالها بقي ماما يا دكتور؟؟!!"

-مالهـاش يـا طـنط.. بـس حضـرتك المفـروض تقفـي جـانبي،إنتي أكتـر واحدة عارفة أنا أد إيه تعبت عشان بنتك.

-مانـا ياااامـا عرضـت عليـك تسـافر، قولتلـك اطلعـوا انـت وفاطمـة قبـل مـا تتربطـوا بعيال،سـنة ولا اتنـين وبعـدها ترجـع تجيبلـك العربيـة والعيـادة وهنـا النـاس كلهـا بتحبـك وهاتعمـل سـمعة مـش هاتعملها ف أي حتة تانية.

-يـا مامـا مـا أنـا بأحـاول أعمـل كـده.. هـو انـا يعني مأتمنـاش أسـتقر وافتح عيادتي واستريح؟

-مـاهو يـا حبيبي لازم في الأول تتعـب وتـتلحلح شـويتين وتيجي علـى نفسك وبعدها تستريح.. لكن انت كدة بتهلك نفسك عالفاضي.

-يعنيانا مش هاخلص بقى من سيرة السفر ديه أنا عارف..

جـدتي(بانفعـال شـديد): أيـوة مـش هـاتخلص.. وكفايـة بقـى لحـد كـده.. شوفلك حل، يا أخي بلاش عشانك.. عشان ولادك!!

(بنبـرة صــوت حــادة وحاســمة): يعنياســافر وافضــل أأجــل ســنة ورا سـنة ورا سـنةوفي الآخـر ابعتلـك مـن هنـاك أقوللـك "ملعـوون أبـو ديـه بلـد" زي مـا عمـل معـاكي جـوزك؟؟!!.. هـو ده اللـي انتي عـايزاه؟؟!! وبعـدها مـش هـاتقوليلي تعـالي انـدفن في بلـدك وانـت يـابني هاتفضـل عايش طول عمرك برة والشغل ده؟؟!

سـاد الصـمت لـدقائق.. حتى أيقظنـا صـوت رصـاص حي قـادم مـن الشـارع.. نظـر الجميـع إلى الشـرفة، صـرخت أمـي في وجهـي أن أذهـب إلى أخـي وأختي، وانطلـق أبـي لينظـر مـن النافـذة مـاذا يجـري.. كـان الصــوت مصـحوبًا بسـباب وشـتائم بـالأب والأم.. سـب لكـل مـن بالمنطقــة بكــل ســكانها وطبقاتهــا.. ســمعت صــوت النســاء تصــرخ وتولـول، أصـوات نيران تنفـث مـن خـراطيم، أسـمع مـن ناحيـة أخـرى زجــاج ســيارات يتكســر.. قبــل أن أرى كــل شــيء، كنــت قــد كونــت صـورة لمـا يحـدث في الشـارع.. كـان "عبـده أكلانـة" هـو البـادئ ومسـبِّب تلـك الأزمـة.. اقتربـت بحـذرٍ مـن النافـذة لأرى منظـرًا مهيبًـا.. أعلـم أن الأميريـة حافلـة بتاريخهـا مـن المعـارك الضـارية،لكن تلـك لـم تكـن كـأي شـيءٍ آخـر أراه في حيـاتي.. لقـد كـان شـارع التحريـر بالأميريـة "شـارعًا مـن الجحـيم" في تلـك اللحظـة.. رأيـت "عبـده أكلانـة" يصـرخ ويسـب الأديـان، لاعنًـا كـل مـن يقـف في طريقـه، يقترب مـن عمارتنـا ولا ينطـق غير كلمـة واحـدة: "هأرازيبييكيـا عـم جـرجس.. وعهـد الله لأطلـع ميتـين أهلـك".صُـدِمت مـن وقـع الكلمـة، ولا أقـول إنهـا المـرة الأولى التي أسـمع فيهـا هـذا اللفـظ القبيح،لكني لـم أتخيـل يومًـا أن عـم جـرجس قـد يكـون علـى علاقــة ولــو غيـر مباشـرة بشـخص كــ"أكلانــة". علامــات

الوجوم باتت أكثر بروزًا على وجهيْ جدتي وأمي.. إخوتي الصغار يصرخون، والمسدس لا يزال يبصق الرصاص من فوهته كعجوز خرف قليل الأسنان يبصق قشر لب أسمر في جميع الاتجاهات لا يميز صندوق القمامة من غيره. حاول الناس منعه من التقدُّم، البعض سأله عن سبب إقحام عم جرجس في تلك المسألة، لكنه لم يرد بالشيء الكثير، فقط السبابواللعن المستمر من فم بالكاد يفقه ما يقول، وشخص بجسدٍ طويلٍ هزيلٍ أقسم أنيأكاد أرى ضلوعه بوضوح، وفك سفلي قاسٍ بارز وأسنان صفراء بخط بني يمر بعرض الأسنان كاملة، حتى إن الوشم على ذراعه لم يكن كما أراه في الأفلام.. كان وشمًا غريبًا كأنه رُسِمَ بقلم حبر فرنسي رخيص. تقدَّم أبي نحو الباب ليلحق بعم جرجس حتى تمسك جدتي بذراعه بقوة ثم أتبعت قائلة:

"بلاش يا غازي.. بلاش يا حبيبي، سيبهم هما يصطفوا مع بعض"

"يا طنط هايموّته.. ده عم جرجس وانتي عارفاه، أكلانة عيِّل وسخ مش هايسلك معاه عم جرجس،إحنا هانحوش بس!"

لم تتركه جدتي مطلقًا، أحكمت قبضتها أكثر قائلة: "يابني ماتضيعشي نفسك.. يا حبيبي عشان ولادك، عشان خاطري خليك هنا وسيبهم يصطفوا هما، هي ديه أول مرة؟؟!"

أمسك أبي بيديها بهدوء ثم قال:ماتخفيش يا ماما.. هاراقب من بعيد.. ماتخفيش.

ابتسم لها فتركته بهدوء وقلبها قد يسمع صداه كل من بالشارع.انطلق أبي مسرعًا يقفز السلالم دفعة واحدة لينقذ مايمكن إنقاذه، يفكر فيما ينبغي أن يفعله فور وصوله للشارع.. يفكر في كل ما يمكن أن يحدث، يفكر في أسرته وكل ما قد يخلفه من مشاكل إن حدث له مكروه.. يتباطأ قليلًا على السلالم حين يتذكر وجه والدة فاطمة، وكيف أنه بالرغم من عدائها الشديد له إلا أنها لاتزال قلقة عليه، ثم ينسى كل ذلك فور تخيُّل عم جرجس الرجل العجوز الأعزل حليق الرأس ممتلئ الجسد يُجَرّ من جلبابه بيد هذا الأكلانة ليزيده هذا تصميمًا وإصرارًا على التقدم. لا أتذكر تفاصيل ما حدث بعد ذلك سوى أن رجالًا كثر من الشارع تقدموا للحؤول بين عم جرجس وأكلانة والمسدس ملقى على الأرض؛ حتى يصفع أكلانة عم جرجس صفعة استفزت والدي الذي أدرك أن أكلانة تمكَّن من الإفلات من قبضةأحدالرجال الممسكين به، والتقط المسدس من الأرض..ما جرى بعدها لم يتعدَ بضع ثوانٍ.. صراخ أمي وجدتي بجانبي ثقب طبلة أذني، أكلانة يوجِّه المسدس بوجه عم جرجس ولا يتمالك نفسه مما يتناوله من مخدرات وكحول، المسدس يتأرجح يمينا ويسارًا والكل يترقب خروج طلقة غادرة والإطاحة بقتيل في أي وقت.. لم يكمل أكلانه سبه ولعنه لعم جرجس بابتسامة باردة توحي بقذارة ذاك الكائن، حتى أسمع صراخ والدي وهو يلتقط حجرًا كبيرًا لبناية جديدة على الطوب الأحمر ويلقي بها بقوة تجاه ذراع أكلانة محاولًا بذلك إصابة ذراعه وإبعاد المسدس.. .لكن.. تأرجح أكلانة ملتفتًا إلى والدي، لتصبح

آخـر نظـرة طُبِعَـت على وجهـه قبـل أن يصـطدم الحجـر الكبير برأسـه مهشمًا إياه.. .

سـقط أكلانـة جثـة هامـدة بـلا مقـدمات.. توقـف الكـل عـن الكـلام والصـراخ لـدقائق.. تسـمر الكـل كمـا كنـت أرى في لعبـة "تماثيـل الاسـكندرية"، حـين كـان الجميـع يصـمت ويـدعي أنـه تمثـال.. لكني لـم أرَ براعـة كهـذه مـن قبـل.. الكـل غير مسـتوعب لمـا حـدث.. لا أحـد على الإطـلاق يكـاد يصـدق أن القاتـل هـو "دكتـور غـازي عبـد المعطـي".. لا أصـدق مـا جـرى ولا أسـتوعب مـا قـد تـؤول إليـه الأمـور، توقـف عقلي عـن الافتراض كمـا أفعـل كالعـادة.. اليـوم هـو اسـتثناء بحـق.. تبلـدت قسـمات وجـه أمـي وتوقـف صـراخ إخـوتي.. أمـا جـدتي فلـم تتحمـل.. سـقطت مغشـيًا عليهـا؛ فقـد كـان يومًـا حـافلًا بالنسـبة لامـرأة عجـوز.. والحـق يقـال فقـد كـان يومًـا أسـود في تـاريخ عائلتنـا وشـارعنا المبجَّـل.أكلانـة لـم يكـن لديـه حسـنة واحـدة لأهـل الحـارة.. لـم يقـدِّم معروفًـا لأصـغر أهلهـا أو أكبرهم، مقطـوع مـن شـجرة -إن صـح القـول- ، ولا يكـن أحـد لـه سـوى الضـغينة والـبغض.ظـل والـدي مرتجـف اليـدين لعشـر دقـائق، صـامتًا شاخصًـا وجهـه للأمـام بنظـرة بـاردة بـرودة ثلاجتنـا التي لـم تعـد تنـتج في الأيـام الأخيرة سـوىثلجٍ أفسـد مـا بهـا مـن محتويـات. الكثير مـن السـيناريوهات بـرأس أبي عمًّـا قـد يمكـن حدوثـه مسـتقبلًا.. التـفَّ النـاس مـن حولـه لتهدئتـه، ولكـن دون جدوى، فوالدي لم يردد سوى كلمتين وظلَّ يكررهما:

"أنا كنت هارميها على إيده..كنت بارميها على إيده!!!"

obeikan.com

حاول عم توفيق العجلاتي تهدئته، ثم أتبع ذلك بكلام من فمه قليل الأسنان كان من شأنه أن يغيِّر مجرى الواقعة بأكملها.

- تكتور غازي.. أتوكتور بُصّلي هنا.. الشرطة جاية كمان نص ساعة بالكتيير أوي.. إحنا عارفينك وعارفين مايّتك.. إنت لولا اللي عملته كنا هانقرا الفاتحة عالراجل الطيب ده (و أشار إلى عم جرجس).

أبي ظل صامتًا غير مستوعب ما حدث حتى الآن، لم يتوقف عم توفيق عن الكلام بعد إذ أمسك بذراعيه بقوة وصرخ في وجهه:

"يا تكتور ركز معايا مش وقته الكلام ده.. إحنا ماشفناش حاجة.. اللي حصل خناقة عادية بين اتنين وعيل سيس ابن حرام مالوش ملة دخل حارتنا وشتم المرا قبل الدكر فيها وقل أدبه، خناقة عادية، هو حظه بقي هباب كام طوبة وقعوا من العمارة اللي بتتبني ديه على راسه.. وكان الله بالسر عليم"

أفاق أبي من غيبوبته بسؤال طرحه على الحاج توفيق:

"أ أ أيوة بسسس.. ديه طوبة واحدة اللي وقعت.. ده كلام مايصدقهوش عيل صغير!!"

لم يكمل الحاج توفيق كلامه حتى أمسك أحد أهل الشارع بطوبتين آخريين وألقى بهما بجانب جثمان أكلانة بقوة وكأن كلتيهما قد سقطتا من أعلى، ثم قال بصوت جهور:

"دلوقتي بقوا تلاتة يا دكتور.. "

لم يتوقع أبي ما آلت إليه الأمور، لم يتوقع وقوف الجميع بجانبه.. هل كان ذلك فقط لما فعله لكل منهم بلا مقابل؟؟ أمأن عبده أكلانة هذا لم يكن أحد يتمنى له سوى الموت؟؟!، أو ربما ما دفعهم للدفاع عنه بجرأة وثقة ورجولة هو اطمئنانهم إلى أن هذا المجرم لا أهل له وليس من المنطقة، فهم على يقين من عدم عودة أحد للسؤال عن شخص مثله.أخذ رجال الحارة أبي إلى شقته محاولين أن يهدئوامن روعه تاركين كل شيء للمباحث لحين وصولهم. فور صعود أبي إلى أعلى، كان عم جرجس يلحق به ليمسك بيديه قائلًا: "أنا لو قضيت باقي عمري خدامك يا دكتور مش هأعرف أشكرك".. نظر إليه والدي قليلًا، ومن ثم رد بهدوء من أهلكته رياح صرصرة:

"ياخي الله يلعن اليوم اللي عرفتك فيه انت وأكلانة و.. "

أمسكت أمي فمه وضمته بشدة محاولة كبت بركان عصبي قد لا يتحمله جسده، ثم أومأت لعم جرجس بتركه الآن، وعيناها تطرحان الكثير والكثير من الأسى. شارفت الشرطة على الوصول، وكذلك سيارات الإسعاف.. إذ لايزال أكلانة يتحرك ولم يفارق الحياة بعد بحالة يرثى لها.. نظر الواقفون إلى بعضهم يتساءلون عما قد تؤول إليه الأمور، لا أحد يستطيع أو حتى يريد ذِكر شيء مما حدث.. ولعم فتحي العجلاتي الكلمة الأولى والأخيرة؛فهذا الرجل هو الأقدم في المنطقة بأكملها، وله الفضل على الكثيرين، وعندما يقول عراب المنطقة كلمته فعلى الجميع الامتثال لأمره. عندما وصلت سيارات الإسعاف والشرطة بدأت الحفلة، أخذ الضابط في

طرح الأسئلة وتوجيه الاتهامات العشوائية لتفقُّد بعض الإجابات العامة لبناء خيط واتباعه في تلك القضية.. وكما اعتاد من الناس في الأحياء الشعبية؛لم يحصل على أجوبة مقنعه أو حتى أجوبة تدين أحدًا، ومن ناحية أخرى تفقَّد المسعفون حال الجريح ليقرر الطبيب احتماليه ارتجاج في المخ نتيجة لصدمة قوية على الرأس أدت إلى دخول أكلانة في غيبوبة.لم يصدق الضابط تلك السيناريوهات الرخيصة عن سقوط الحجارة من المبنى الجديد أو أن أحد عُمَّال البناء قام بذلك سهوًا بالرغم من الصدفة البحتة لموقع الجريمة.. في النهاية، تلك السيناريوهات لا تحدث إلا في الأفلام السينيمائية الرخيصة التي لا يجد كاتبها نهاية مقنعة؛ لها فيقرر وضع نهاية كتلك.لم يقتنع الضابط بذلك موجِّهًا سؤالًا للجميع:

-يعني كلكوا بتعرقوا شهامة ومرجلة دلوقتي، مافيش دكر عايز يتكلم ويفهّمني بالراحة كدة إيه اللي حصل..

باغته عم توفيق بهدوء: يا باشا انت قديم وعارفنا واحد واحد.. خد جولتك وتعاشب شاي انت والرجالة.

-عم توفيق.. انت أبويا وأبونا كلنا.. لو فيه حاجة فطمني.. عشان ماتزعلشي مني.. وفي الآخر انت عارف، هي في بيتها يعني..

عم توفيق (ساخرًا بابتسامة يرتفع فيها جانب واحد من فمه):عايزني أقوللك إيه آبااشة؟؟.. واحد زي مانت شايف بالمنظر ده، عربجي وابن (كلمة سيئة تنعت السيدة الوالدة).. دخل علينا

وشتم كبيرنا وصغيرنا، ماسك مسدس ساقية الله أعلم سارقه من أنهي داهية، رصاص المسدس تقدر معاليك تعاينه في كل حيطان عماراتنا وعاتلاقي منه في دكان عم جرجس.. مش بس كده، فتح علينا أنبوبة جاز وكان هايولّع في التخين فينا.. ده غير سعادتك المسدس اللي معاه ماعلهوش بصمات حد غيره..

-عم توفييق!!..

عم توفيق (بلهجة جدية):يا باشا مانا بأريحك وأقوللك الحقيقة من الأول وانت مش راضي تصدق.. قولتلك ماحدش رفع عليه سلاح وانت هاتقوللي أنا ليا بالأدلة والبراهين.. فأنا برده بأريحك تاني وأقوللك شوف بصماته!!!

-مممممم

عم توفيق استطرد قائلًا: وبعدين يا باشا هو انا اللي هاقوللك عن أكلانة؟؟!.. ده انت سِيد من يقوللنا، ده له محاضر وقضايا عندكوا-لامؤاخذة يعني-أكتر من شعر سدر أمين الشرطة اللي واقف جنبك ده.. وعمومًا إذا ماكنشي "قضاء وقدر ربنا" ده عاجب سعادتكومش مصدق حوار الطوب اللي وقع على دماغه، دوَّر براحتك، بس دوَّر الأول على مين له مصلحة يقتل واحد زي ده.. وصدقني هاتتعب، لأن الليستة مالهاش آخر..

-.. طيب يا عم توفيق.. طيب..

Obeikan.com

انصرف الضابط يجر أذيال الخيبة وراءه، كما لو أن كان ينقصه قضايا عالقة أخرى.. !

مضى شهر على تلك الحادثة واليوم الأسود الذي غيَّر حياتي وحياة أفراد عائلتي الصغيرة-عدا إخوتي الصغار-اللذين تمنيت لو كنت بعمرهما لكي لا أفهم شيئًا أو أحس بشيء.قُيِّدَت القضية ضد مجهول كما قالت أمي، أو لا أدري كيف أسمِّي ذلك؛ فأنا لم أكن ملمًّا بكل التفاصيل.. أنا مجرد صبي صغير في الصف الرابع لا أدري إن كنت سأتحمَّل أكثر أم لا.. أكلانة لا يزال بالمشفى في حالة يُرثَى لها، أفاق من غيبوبته كالميت الحي بلا عنوان.. أبي لم يعد كالسابق أبدًا؛ لم يعد باردًا كما عهدته.لكن إن صحَّ التعبير فقد صار "متبلّدًا" كالميت، لا يلقي بالًا لما يفعل أو ما سيفعل، ظلَّ بلا عمل طوال الشهر.. تحاول أمي إثارة غضبه على سبيل المزاح، تتمنى لو أنها تستطيع استفزازه كالسابق فيرد عليها بطريقته الساخرة لعله يعود كما كان.. لكن بلا جدوى.جدتي لم تتحمَّل منذ الحادثة، بعد أن أفاقت من غيبوبة دامت ثلاثة أسابيع، لم تكن قادرة على تحريك قدميها أو النطق.. تقول أمي إنها أصيبت بشيء يدعى "زلطة".. أاااه، "جلطة".. نعم، شيء كما لو أن "زلطة" صغيرة أدت إلى انسدادٍ في الدم، ما أراه كل يوم أنها لازالت راكدة على سرير والدتي بجانب الشرفة البحري.. قال الطبيب أنه يجدر بها البقاء بجانب الهواء.. المحظوظة.. كم أحقد عليها كثيرًا، وأنا غرفتي بالكاد أتحرك فيها، حارة تشبه محرقة الهولوكوست التي ندرسها في مادة التاريخ!!

قاربت على إنهاء عامي الدراسي الرابع بالمدرسة، كل شيء تغيَّر ولم يعد كالسابق.. كم تمنيت لو أني أظل في مثل هذا العمر ماتبقى لي من أبدٍ أعيشه، كنت أتمنى أن أنضج سريعًا لأرى العالم ولكن.. ليس بعد الآن، لا أريد أن أكبر وأصير رجلًا لأتخرَّج من كلية طب الأسنان كوالدي وأصبح مصدر فخر للعائلة ومن ثم يصبح شغلي الشاغل أن أتزوج ثم أنجب، ثم أبحث عن شقة أخرى لأن شقة بسوس لا تليق بزوجتي وأصير مرغمًا على الدخول إلى سباقٍ كريه لا أعرف نهاية له، ثم أنتقل إلى الأميرية لأصبح أقرب إلى والدة زوجتي، وأتورط في شِبه قضية قتل، وأعيش مذمومًا بفعلٍ لم أكن حتى أقصده، ومن ثم "أسقط من على السرير متعرِّقًا لأجد نفسي أحلم بتلك الذكريات التي حدثت منذ شهر".راودتني الكوابيس عن منظر الحادثة منذ ذهاب الشرطة، أتخيل كما في الأفلام: أن أكلانة هذا قد يصلب طوله مرة أخرى ويعاود للانتقام من أبي أو إيذاء شخص في عائلته، فكما أسمع دومًا عن هذا النوع من الناس، أنه لم يعد لديه شيء يخسره.. أحسست بأني أنا المطارد، وأنا من سيتم إلحاق الأذى به وليس والدي.كل يوم يمر أستيقظ للذهاب إلى المدرسة فزعًا من نومي على حُلمٍ بكل ما جرى منذ شهر.. إلى أن جاء اليوم الذي كنت جالسًا فيه في إحدى حصص اللغة الإنجليزية، هائمًا كغير عادتي،ميس عبير تتحدث إلينا في الصف ولا ألقي لها بالًا، لم تعد تشكِّل تحدّيًا لي كالسابق حتى رأيت مشهدًا أقسم أني رأيته من قبل.. المشهد كان يعرض عليَّ كمسرحية رأيتها وحفظتها عن ظهر قلب.. دخلت الوكيلة إلى الصف وألقت التحية علينا.. اقتربت من ميس عبير، ثم أمالت بجسدها ورأسها لتقترب

من أذن ميس عبير اليسرى.. همست في أذنها بكلمات "كالعادة" لم نستطع سماع معظمها.. لكن مهلًا.. إنهما تنظران لي أنا.. أومأت ميس عبير برأسها إيجابًا إلى وكيلة المدرسة، ومن ثم قامت من مقامها واتجهت إليّمباشرة وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة صفراء لتنافقني بها الاحترام، اقتربت منّي وبهدوء غير معهود، طلبت مني الذهاب مع الوكيلة!!.. لم أفهم بعد ما السبب، لكنها لم تترك لي مجالًا للفهم إذ أمسكت بيدي الصغيرة وأخذتني إلى الوكيلة لأرى ابتسامة أخرى منها وتودعني.. !

سرت مجاورًا للوكيلة وأنا أفكر فيما حدث من قبل مع "أمجد"، أسأل نفسي السؤال ذاته عما إذا كنت حقًّا سألقى مصير أمجد،لكن كيف وأنا لست بابن رجل الأعمال الشهير؟؟. وصلنا إلى غرفة الوكيلة لأجد أبي ينتظرني هناك مبتسمًا هادئًا يلتقطني بحنان ويقبِّل رأسي،ومن ثم يشكر الوكيلة وننصرف. سألته ما الأمر؟ وما أتى به إلى هنا اليوم،وما سِرّ اصطحابي من المدرسة باكرًا.. لم يعطني جوابًا مرضيًا، فقط سألني عمَّا إذا كنت لا أزال راغبًا في الذهاب إلى كنتاكي للحصول على وجبة الأطفال واللعبة بداخلها التي كنت سأموت وأحصل عليها.. وبالطبع وافقت من دون تردد. وصلنا إلى المطعم والحماس يملأني للحصول على لعبتي المفضلة.. إنه ليوم تاريخي أن أحصل على لعبة "ستار وور" الآلي الذييتحول إلى مركبة فضائية،لكني لم أفهم بعد لِم كل هذا.. ولا أقول إن والدي بخيل أو جاف الطباع، لكن إصراره على اصطحابي اليوم تحديدًا من المدرسة لأجل الحصول على وجبة

Obeikan.com

أطفـــال بلعبـــة مجانيـــة، حقًّـــا يثيـــر الريبـــة.بعـــد أن أنهيـــت وجبتـــي واحتضـنـت لعبتي بـين يـدي جيـدًا حتى لا تطير مني أو أكـون في حُـلمٍ مـــا، ذهبنـــا لتنـــاول المثلجـــات مـــن محـــل حلويـــات صـــغير بجانـــب محمصـة قهـوة تركي قريبـة مـن المدرسـة.. لطالما أثـارت رائحـة القهـوة المطحونـــة فـــي المحمصـــة هنـــاك شـــعيرات أنفـــي ومســـتقبلات لســـاني لتـذوُّقها.. وقفنـا بـين المحلـين والـدي ينتظـر دفـع ثمـن "الآيسـكريم" وأنـا أنتظـره متلـذذًا برائحـة القهـوة مـن حولنـا مـن المحـل الآخـر. تناولـت "آيسـكريم" الشـيكولاتة خاصـتي، وتعجَّبـت مـن عـدم إحضـار والديواحـدة لـه.. بـدا مسـتاءً مـن شـيء.. نظـر إليَّـثم قـال: "يـلا نـروَّح بقـي يـا عطـوة"!!.وصـلت الحي لأجـد حركـة غير مألوفـة، النـاس مـن حولنـا كالمياه الراكـدة، الأجـواء بـاردة كمـا لـو كـان فـيلم أبـيض وأزرق!! إذ أحسســت بشــيء غريــب، شــيء متعلــق بــي.. اقتربنــا مــن العمــارة خاصـــتنا لأجـــد العديـــد مـــن الكراســـي الخشـــب مرصوصـــة بالأســـفل حـول بـاب العمـارة، جـالس عليهـا تقريبًـا كـل مـن نعـرفهم مـن الشـارع.. رأيـت أناسًـا قيـل لي بـأنهم أقـارب لنـا "مـن بعيـد" لـم أكـن لأسـمع عـنهم قَــط، ولــم أكــن لأتخيــل أشــكالهم لــولا أنــي حظيــت بشــرف رؤيــتهم اليـوم.. صـعدت السـلالم إلى أعلى لأقابـل بعـد كـل سـلمتين شخصًـا أو اثنـين ينظـرون إليَّبابتسـامة تشـبه تلـك علـى وجـه مـيس عبيـر ووكيلــة المدرســة.. دخلــت منزلنــا وكــأني أرى منــزلًا غيــر الــذي كنــت أسكن فيـه؛ مـن فوضـى عارمـة وعبـاءات سـوداء أكـاد أقسـم أنـي أشـم رائحـة قماشـها وأميـزه جيـدًا.. رائحـة المـوت.بـدأت أطـرح الأسـئلة في رأســي عمــن يمكــن أن يكــون المتــوفي. لا أزال أتجــول فــي الشــقة وأتعـرف عليهـا مـن جديـد وسـط نسـاء أصـاب صـوت صـراخهن جلـد

جسدي بالقشعريرة، هذه تعدد وهذه تصرخ وتبكي وهذه تقول "اتخطفتي ياختي.. اتخطفتي وسيبتيناااا"!!!.. وأكواب القهوة الزجاجية ملقاه في كل مكان .. اللعنة.. عمن تتحدثن يا عابسات الوجه وكريهات الرائحة؟؟! ، ثم جاءني هذا الإحساس بمعدتي، تعرفون.. كما لو كنت تتمنى أن تخمينك للأمر خاطئًا.. سألت الحاضرين بهدوء: "هي ماما فين؟!!".. نظرن إليَّبحزن ثم نظرن إلى بعضهن حتى سمعت إحداهن تقول: "يا عيني عليك يابني.. ده لسا صغير"!!.. ما هذا الهراء.. أين والدتي؟؟!!.. ركضت مسرعًا إلى غرفتها وأتمنى أن أجدها هناك، حاولت فتح الباب وأنا بالكاد أمنع دموعي أن تنهمر، لم يُفتَح.. ركلته بقدمي وقد اغرورقت عيناي بالدموع لأجد أمي جالسة على السرير.. جالسة تبكي كما لم أرَها تبكي من قبل.. تبكيممسكة بيد جدتي النائمة بجانبها مغمضة العينين، ركضت إليها حتى ارتميت في أحضانها وكنت قد ظننت أنها هي من فارقت الحياة.. تبًّا لأبي وجيراني ومدرستي ووكيلة الفصل، تبًّا لكم جميعًا لكم تمنيت في تلك اللحظة أن تذهبوا إلى الجحيم على ما سببتموه لي بأفعالكم الغريبة وإيحاءاتكم الغير مباشرة. ماتت جدتي بعد معاناة مع المرض منذ حادثة أكلانة. أبي الذي لم أرَه قَط يحب جدتي، أجده الآن متأثرًا بفقدانها، وأمي طبعًا "حدِّث ولا حرج".إذ بعد وفاة جدي بعيدًا عنها منذ أن تركها في الصغر للعمل في الخارج، لم يتبقَ لها سوى أم تحنو عليها وتثابر لأجلها.. إخوتي لا يزالون صغارًا على تفهُّم الموت.. لكني في الواقع-ولا أعرف السبب-لم أبكِ للحظة على فراق جدتي!.. قد يكون بسبب أني سعدت كثيرًا عندما علمت أن أمي لا تزال بخير، أو ربما لأني لم

Obeikan.com

أكن مقرَّبًا لجدتي إلى هذا الحد لكي أحزن عليها.. قد أكون أيضًا ذا قلبٍ من حجر وأنا لا أعلم.. أو أني ببساطة.. لا أزال صغيرًا على تفهُّم الموت.

انقضى العام الدراسي الرابع أخيرًا.. لقد كان الأكثر سوادًا علينا. تمنيت لو أن تتوقف اللعنات عن الانصباب علينا. يااا رب.. إذا كان السبب في هذا الهم والغم هو الشجارات التي كانت تنشب بين أبي وأمي؛ فها هما الآن قد توقفا عنها.. إذا كان السبب في تلك الشجارات التي تسبب لنا الهم هو جدتي؛ فها هي قد ذهبتإليك يا رب الآن.. وإذا كان السبب هو سوء أحوالنا المادية؛ ففي الواقع لن نجد أسوأ من تلك الفترة.إنها المرة الأولى التي أقود فيها دراجتي الزرقاء مستعينا"بالسنادات" في شارعنا السيء منذ أن حصلت عليها.. المرة الأولى التي أخشى أن أسقط بحق بدونهما وأصاب بركبتي كباقي الأطفال، ولا أعلم لِمَ دوما نصاب في تلك البقعة من الجسد تحديدًا.. المرة الأولى التي لا أتسابق فيها مع سيد ولا أرغب بوضع الزجاجة البلاستيكية بين البدَّال وجنزير العجل لإصدار صوت الموتوسيكل.. المرة الأولى التي أشعر فيها بأني لم أعد أرغب في قيادة دراجتي للتجول بها في الأميرية.. هذه المرة أردت بحق أن أكسر حدود تلك المنطقة اللعينة التي لم تترك لي من ذكريات سوى خيبة الأمل والألفاظ البذيئة، سوى حادثة كئيبة غيَّرت سلوك أبي فلم يعد الشخص الذي عرفته أبدًا، سوى أمي التي كرهت دومًا القدوم إلى هنا حتى وإن كانت ستسكن بالقرب من والدتها..أتمنى حقًّا أن أغادر هذا المكان وأتنشق هواءً نظيفًا.. حتى رائحة القهوة من محمصة القهوة التركي بجانب محل الحلوى المثلجة.. لم تعد

تثير رغبتي.استيقظت في صباح يوم حار ألهث كجرو عطش باحثًا عن زجاجة مياه بلاستيكية، كانت منذ يومين معبأة بالمياه الغازية، كنت قد وضعتها بالثلاجة المعطلة لعلها تبرد قليلًا.. لم أكمل شربة ماء حتى سمعت والدي يتحدث في الهاتف إلى شخصٍ ما.. شخص يبدو أنه يسدي إليه معروفا؛ فوالدي الذي أعلمه جيدًا لا ينادي أحدًا قَط بلقب ما إلا إذا كان سيحصل على شيء بالمقابل.. كانت الجملة الأكثر استعمالًا هنا هي: "حاضر يا شيخ.. اتفقنا يا شيخ.. اتفقنا.. حاضر.. ماشي.. لا لاا ماتقلقشي، كل حاجة جاهزة.. إيه؟؟.. اه أيوة قدمت طبعًا، أول ما الإجراءات تخلص وأتأكد اني أخدتها هاكلمك.. لا لاا يا شيخ، مدتها سنة.. طيب.. وو.. ووعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، حياك الله".أنهى أبي المكالمة بوضع السماعة ببطءٍ والسكوت قليلًا.. حكَّ رأسه ومسح وجهه بيديه ثم تنَّهد تنهيدة أخبرتني كل شيء تقريبًا.. يبدو أن هناك منعطفًا جديدًا في طيات حياة أسرة غازي عبد المعطي.. صاح أبي مناديًا أمي أن تأتيه مسرعة، فور وصولها نظرَتْإليه وسألَتْه:

-ها..

-(صمت قليلًا ومن ثم أجاب بابتسامة): خلاص يا ستي.. تمت

لم تفرح أمي هكذا منذ وفاة جدتي.. بل منذ ولادتيأنا شخصيًا كما رأيتها فرحة اليوم. ارتمت في أحضان والدي ثم أتبعت قائلة: "إن شاء الله كل شيء هايتصلح".لم يمر يومان إلا وقد وجدت أمي تعدّ حقائب السفر وتتخيل ما ستؤول إليه الأمور هناك.. حيث نحن ذاهبون.. ما هذا؟؟ إلى أين محطتنا التالية يا ترى؟؟! (هكذا سألتها)، أجابتني أمي بأننا سنخرج أخيرًا من تلك الفوَّهة، سنحقق

مــالم ولــن نســتطيع أن نحقــق نصــفه هنــا، ولا أقصــد ب"هنــا" أي الأميريــة، بــل أقصــد "مصــر".. قالــت إن أبــي أخيــرًا وافــق علــى عــرض لعقــد عمــل في إحــدى دول الخلــيج، وعنــدما ســألتها عــن إلــى أيــن ســنذهب أجابــت: "الســعودية".. وكأننــا كنــا ننتظــر حتــى ترحــل جــدتي!!!.غمرتني ســعادة عــامرة فــور ســماعي لكلمــة الســعودية؛فأنا في الحقيقــة مــن عشــاقها،بل في الواقــع كلمــا ســمعت عــن ذهــاب أحــد جيراننــا أو أقاربنــا إلــى هنــاك لكنــت أحســده كثيــرًا.. هــذا الحــب والعشــق لــم يكــن نابعًــا مــن معرفتــي بالســعودية، بــل هــو نــابع مــن جهلــي بهــا؛إذ كــان باعتقــادي أن الســعودية تتمثــل فقــط في "الكعبــة المشــرفة والمدينــة المنــورة" كمــا يطلعنــا التلفــاز ومــن عــادوا منهــا.. كــم تمنيــت العــيش هنــاك فقــط للصــلاة فــي الكعبــة والمســجد النبــوي الشــريف. تخيلــوا فقــط لــو أن حياتــك كلهــا تقضــيها هنــاك، بــلا ذنــوب وبــلا معــاصٍ.. أفضــل حيــاة. الســعودية بالنســبة لــي ليســت إلا هــاتين المــدينتين، لا أعلــم غيرهمــا، ولا أريــد في الواقــع.. ظللــت أتخيــل نفســي أرتــدي زِي الإحــرام وأعتمــر مــرة كــل أســبوع وأصــلي الفــروض هنــاك.. بالتأكيــد حتمًــا ســيكون ســكننا قريبًــا مــن الحــرم. ســأعود للتبــاهي علــى كــل مــن بالشــارع أنــي أرتــوي مــن مــاء زمــزم الطــاهر، وأتحمــم بــه كــل يــوم.. لا بــل كــل ســاعة.. ســأضــع الســواك في فمــي وأعتقــد أنــي لــن أتــذلل لأحــد أصــدقائي مــرة أخــرى لكــي يحضــر لــي واحــدًا عنــدما يــأتي في الإجــازات فبالتأكيــد ســأجده فــي كــل مكــان هنــاك.جــاءت لحظــة الحســم، اللحظــة التــي ســأفارق فيهــا ذكريــاتي الســيئة هنــا، اللحظــة التي ســأتحرر فيهــا مــن لعنــة هــذا المكــان وأكســر حــاجز الشــارع الــذي لــم أتجــاوزه بــدراجتي الزرقــاء.. ســأتجاوزه الآن بالطــائرة.أتــى دكتــور مرتضــى لتوديعنــا الــوداع الأخيــر ليلــة الســفر،اســتقبله والــداي

استقبالًا حافلًا؛ فمن الواضح أنه صاحب الفضل في عقد العمل هذا. لم أكن أشعر بالراحة عندما أسلم على هذا الرجل في البداية، أحس وكأن خبث الدنيا والآخرة قد تجمع فيه كما لو أنك ملأت علبة "كوفرتينا" المعدنية جذابة الشكل بشتى أنواع القاذورات وأغلقتها بإحكام وقدمتها هدية لعروسين ليكتشفا بشاعة ما بداخلها فيما بعد.. لكن الحق يقال.. الرجل قام بخدمتنا في النهاية، ووجب علينا شكره.بعد جلسة العشاء واحتساء الشاي تكلم والدي والدكتور مرتضى في عدة أمور لتأكيد معلومات وجهتنا القادمة، وعن كيف ستتم مقابلتنا هناك.

-مرتضى، أنا مش عارف أقوللك إيه.. إنت أكتر واحد بأثق فيه دونًا عن الكل، وأكتر واحد عارف رأيي في موضوع السفر ده.. بس..

-بس إيه يا غازي؟؟!!.. يا أخي فكّها بقي شوية.. ما انا وريتك الورق وكله سليم والراجل إتصل بيك بنفسه والحجز سليم، بتعقدها ليييه إنت بقى؟

-لا لا أنا بس.. مممم.. إنت بتسمع عن زمايلنا اللي بيروحوا ويرجعوا قفاهم يقمر عيش.. وانا مش حمل خبطة تانية، خبطتين في الراس توجع.

-(بضحكة لم أسترح لها حتى بعد أن قدَّم لنا الخدمة): هههههه ياا راجل ده انت غريب.. خبطتين إيه وبتاع ايه؟؟ انت لسا فاكر حوار الخناقة وأكلانة، ماتنسى بقى يا عم الدكتوور هو كان جرإيه لكل ده؟

- طيب والنيابة والماجيستير؟؟.. مش كنت استنيت شوية لحد ما أكمله.. أهو يمكن برده هايفرق في المرتب.

-ويمكن لأ.. ويمكن ماتلحقشي أصلًا تكمله، ما انت بصراحة يا غازي إخترت قسم سقيل، حد ياخد Crown and Bridge يا راجل؟؟

-فلوسها حلوة ماتنكرشي..

-اااه طبعاااا.. بس ااادي ذقني أهي اللي مابتطلعشي أصلًا لو عرفت تخلصها وتطلع بصحتك.. إحنا هانضحك على بعض يا غازي؟؟!

-ممم.. مانا مش هاغلبك في الكلام، وعمومًا ماعادشي في رجوع خلاص.. بسانت متأكد من إسم المركز ده؟؟!!.. يعني.. أصلي بصراحة أول مرة يعني.. أسمع عنه.

-أولًا هو مش مركز، ديه مستشفى تخصصي.. "مستشفى مهيب الركن التخصصي".. ثانيًا انت يا سيدي مش رايح لوحدك.. انت رايح معاك المدام كطبيبة علاج طبيعي واتنين أطباء بشريين تانيين واتنين صيادلة عشان عندهم نقص في الصيادلة برده.. وبعدين إفرض اني غلطان أو مش متأكد.. ما انت خلاص كدة كدة حجزت ولبست ههههه

أبي (مازحًا): يا أخي أنا حاسس انك هاتوديني ف داهية مش عارف ليه هههه.

أنهى دكتور مرتضى حديثه واستودع أبي وأمي بعد أن لقنهما النصيحة الأخيرة: "غازي.. عشان خاطري، لو عايز تسلك مع الناس

ديه هناك.. لايمها وسايس الأمور.. اتفقنا؟؟.. ساايس الأموور، إنت رايحلك سنتين وراجع.. معلشي إبلعها بمعلقة"

انتهت فترة الوعظ.. توجهت إلى سريري بعد أن طبعت أمي قبلة على جبيني وتركتني لأحلامي.. أصبحنا على بُعد عدة ساعات من السفر.. الحماسة تملأني فلا يمكن أن يغفل لي جفن حتى الصباح.. يااااه، سأشتاق للكثيير هنا، كم هو غريب أمر البشر.. منذ قليل كنت ألعن أيامي وذكرياتي هنا والآن "أتوق إليها" وبدأت أشتاق، سأفتقد كثيرًا الدراجة البخارية المصطنعة التي علمني سيد اختراعها.. سأفتقد التجوال بها أنا وسيد في الشوارع المهترئة في الأميرية.. سأفتقد كثيرًا سيد نفسه، صديق الشارع الوحيد وشريكي في الجريمة.. سأفتقد المدرسة بكل مافيها من متنمرين وأوغاد الكشافة وميس عبير التي لاتزال علامات عضدتي على لحم يدها اليمنى واضحة كقرصة قنديل بحر وضع عليها خل لتهدئتها فتركت أثرًا لا يُمحَى.. سأشتاق لتنظيف ملعب المدرسة المليء إلى آخره بالقمامة، كم عشقت تلك الرياضة وحققت فيها أعلى المراتب والمستويات.. سأشتاق لعم جرجس-سبب مشكلتنا ونكستنا السوداء- وحلواه المجانية التي أصابتني بالسمنة (أعتقد أنها ستكون فترة نقاهة وعلاج منها).. سأشتاق للشهم عم توفيق العجلاتي، ولكني سأتذكره دومًا ماحييت بتذكاره الرائع لي: "مفتاح 14 لتصليح جنزير العجل".. سأشتاق لتناول "آيس كريم" الشيكولاتة الرائع من محل المثلجات القريب من المدرسة، وسأشتاق لاستنشاق الهواء المشبع برائحة القهوة التركي الزكية من حوله.. لا أعرف إن كنت سأشتاق أيضًا إلى إعلانات حلوى "جيرسي" بالجوز الهند وقططهاوانتظار مسلسل عائلة ونيس.. قد

لا أجد أيضًا في السعودية أفلامًا هندية تُعرَض كل يوم سبت في الظهيرة.. سأُلقي بكل هذا خلفي لاختبار حياة جديدة، حياة هانئة في الكعبة (هكذا أسمي السعودية).. بسذاجة طفل في الصف الخامس ظننت أني أهرب من واقعي.. بسذاجة طفل ظننت أني ذاهب إلى الجنة، جنة الفردوس الأعلى.. بسذاجة طفل ظننت أني ذاهب إلى الأرض الطاهرة، حيث الصلاة هناك بـ"ألف ركعة"، يااالها من معيشة طاهرة نقية.. ولكني أيضًا.. بسذاجة طفل لم أتخيل أبدًا.. أن الذنب هناك...بـ"ألف ذنب"!.

Obeikan.com

(2)

"تعلن شركة مصر للطيران عن استئناف رحلتها رقم (528) المتجهة إلى الرياض"..

كانت تلك الكذبة الأولى.. خيبة الأمل الأولى؛ حينما تكتشف أن السعودية ليست "مكة" فقط، وإنما هناك الرياض، جدة، الدمام، الحائل.. وأسماء أخرى أكثر غرابة كـ"خميس مشيط، بيش، الباحة، عبلة، عرعر، سكاكا، جازان ونجران..-هو من أول القصيدة كفر كدة؟!-، هكذا كان إحساسي عندما علمت ان مكة هي فقط جزءٌ صغيرٌ من مساحات شاسعة أخرى. بعد سماع رسالة المطار من السيدة جميلة الصوت تحرك الجميع مبتعدين عن كراسي الاستراحات نحو ميزان الحقائب، والكشف عما بداخلها بالأشعة "إكس".. أو لا أذكر ماذا يطلقون عليها. وقفنا في صف طويل مؤلَّف من تشكيلة جنسيات تختلف اختلاف الشكل واللون والحجم واللهجة، أكُلّ هؤلاء ذاهبون إلى السعودية؟؟.. أهي الملاذ الآمن لكثير منهم؟؟.لم أعد أرغب بعد بممارسة ألاعيب المراقبة،إذ أني قد مللت الانتظار أكثر.لم نكن نحمل الكثير من الحقائب للسفر، كأننا تركنا كل شيء بالخلف للبدء من جديد "على نظافة". مرت حقائب الناس في الصف لترى ما يمكن توقعه كالعادة عبر شاشة الحاسوب الخاص بالأشعة:ففي الحقيقة كنت صغير الحجم قصير القامة بين الواقفين لأرى ما يراه الضابط

obeikan.com

المسؤول على الحاسوب.. لكن مهلًا لحظة!!!.. حقائبنا تمر الآن.. ما هذا؟؟!!.. ياااا الهي!!.. ما رأيته بداخل حقائبنا كان بمثابة "كارثة".. أو ان لم يخني التعبير: "فضيحة" على العلن حتى كاد الضابط يبكي من الضحك وأنا كدت أبكي من الحرج!!.. رأيت سبع حمامات وبطتين ملفوفين جيدًا وكأنهم نائمون على بطونهم وجوانبهم على سرير مريح.. وما هذا أيضًا؟؟!!.. شيء ما لا أستطيع أن أحدد هويته، ولكنه يظهر في الشاشة على هيئة مثلثات طويلة ذهبية اللون!!.. فتح الضابط الحقيبة للتأكد من هذا الشيء ليجده علبة خشبية بها "فسيخ ورنجة طازجة".. تمنيت لو أن الأرض انشقت وابتلعتني قبل أن ألمح الناس من حولي يصنعون منا أضحوكة تهوّن عليهم سفرهم.. تبًّا إلى أين نحن ذاهبون؟؟!!.. إلى الصحراء؟؟!.بعد أن مررنا بتجربة التفتيش السخيفة، كان علينا وزن الحقائب.

انتظرنا في الصف ذاته الطويل، حتى كدت أن أحفظ وجوه الناس من حولي والمتجهين على نفس الطائرة. مرت تلك المرحلة أيضًا بسلام لنتّجه إلى الجوازات، ومن ثم ننهي المطاف أخيرًا بالجلوس منتظرين، بيننا وبين الطائرات حاجز زجاجي أصابني بالدهشة،لم أرَ في حياتي طائرة حقيقية من هذه المسافة،إذ أقرب مسافة رأيت منها طائرة حقيقية كانت تسمح لي فقط بالإشارة إليها بإصبع السبابة والادعاء أني أمسك بها بين إصبعي وهي تطير. كنا نتضور جوعًا بعد كل ذلك، سألت أمي أبي أن يأتي لنا بشيء نأكله ريثما نستقل الطائرة.. ذهب والدي وذهبت معه إلى كافيتيريا بجانب

كراسي الاستراحة ليأتي بنفسه كوبا بلاستيكيًّا معبأ بالشاي ومثله لأمي وحلوىCakes Cupلإخوتي.. لكن لعابي قد سال لشيء آخر، حلوى "كيندر سيربرايز" على شكل البيضة.. أعلم أن بداخل تلك البيضة بيضة بلاستيكية بداخلها لعبة رائعة وأن الشيكولاتة فيها لا تمثِّل سوى قشرة رقيقة حول البيضة البلاستيكية، لكن من يهتم.. لقد أردتها بشدة وظللت أحاول مع والدي، ولكن من دون جدوى، منذ سنتين تقريبًا وأنا أحاول إقناعه بشرائها لي ولو مرة واحدة، والرد دومًا : "يا حبيبي ديه مافيهاش شوكولاطة.. هاجيبلك واحدة فيها شوكولاطة أكتر".. لم أكن أعبأ بالشيكولاتة اللعينة!! كنت أريد اللعبة ولا زلت.. لِم لا يتفهم الأهل ذلك؟؟!.لم ننه طعامنا حتى باغتنا الضابط المسؤول عن نقلنا للطائرة بتوجيه الكلام على الملأ لجميع ركاب تلك الرحلة أن يتوجهوا لاستقلال الحافلات التي ستنقلهم إلى الطائرة.. وعليه، حرك الجالسون مؤخراتهم تاركين كراسي الانتظار المعدنية دافئة لمن سيأتون بعدهم.. أخيرًا هلم بنا إلى الطائرة.لازلت بسذاجة نفس الطفل، أتخيل أن الطيار هو شخص وسيم طويل القامة ناعم الشعر أزرق العينين يمتلك جسدًا رياضيًّا ذا فكٍّ سفلي عريض يشبه فك "سوبر مان"-تعلمون هذا الفك المقسوم نصفين بخندق في الوسط -والذي يذكرِّني في الأغلب بـ....لا عليكم!!! دعونا من ذلك، لكن تلك الصورة في مخيلتي عن رجل الطائرة كانت المقياس الأمثل، وكذلك مضيفات الطيران كما كنت أراهُنعلى شاشة التلفاز فيإعلانات ودعايا السياحة.. كانت تلك الكذبة الثانية!.. إذ فوجئت فور جلوسنا برجلٍ غريب الشكل كبير الرأس أسمر اللون سمعت

صوت احتكاك "كرشه المتدلي" بالأرض لينتج عنه شرارة قد تحرق جميع من بالطائرة لدى مروره بجانبي ليتوقف فور وصوله عندي؛ تاركًا لي مجالًا أكثر لأتفحص وجهه المليء بال "ماسكرا" و"الرووج" الأحمر لون الرمان.. ماذا؟؟!، بالطبع لم يكن الكابتن.. كانت تلك إحدى المضيفات بالطائرة تسألني أن أربط الحزام وتعطيني بعض السكاكر المجانية، لكن لا أعرف لماذا أوحت لي قسمات وجهها أنها تتمنى لو تلقي بالسكاكر في وجهي وتنطلق!!.. أين مضيفات الطيران اللاتي نراهن في التلفاز؟؟؟.. أم أن الأخريات معنيات بالدرجة الأولى فقط من الطائرة!!.. وإذا كان هكذا، إذًا طِبقًا لما رأيته.. في أي درجة نحن من الطائرة؟؟!! في "القبو"؟؟!!.حاولت مقاومة شعوري بالتقيوء كلما ارتجفت الطائرة من مطبات هوائية كما يرتجف طفل صغير عند تذوق قطعة ليمون لأول مرة.. عدت أراقب من حولي من جديد وأحاول التكيف مع أجواء الطائرة، أنظر إلى أبي وأمي جالسين في كرسيين أمامي ومنعم وجازمينا خلفي حتى التفت بجانبي لأجد رجلًا أسود اللون طويل القامة كعود نخل عالٍ ينظر إليَّمرتديًا جلبابًا أبيض فضفاضًا وعلى رأسه عمة بيضاء، لكنها ليست كالتي يرتدونها أهل الصعيد عندنا في مصر.. نظرت إليه وابتسمت فلاحقني بابتسامة كشفت عن أسنان شديدة البياض ب "فلجة" في المنتصف ومن ثم باغتني بسؤال:

"من وين انتا يا زووول؟؟!"

-من مصر..

الرجل السوداني: آآآآآآآي يا زووول.. مصر أم الدنيا.. هلا بيك يابن النيل.

بدت لهجته غريبة بعض الشيء، لكن يبدو أنه سوداني.. لم أفهم ما يرميإليه من "آآآآآي" هذه.. قد تكون حرفًا في لغتهم أو شيئًا من هذا القبيل ربما.. لم يتوقف هذا الزوول السوداني عن الحديث قَط. أصابني الدوار من جراء رتم حديثه البطيء ولم يصبني من الطائرة.. حاولت تنبيهه إلى أني لست مهتمًا بأحاديثه عن السودان وثرواتها الطبيعية وتضاريس جبل علبة والنوبة وأهل النوبة.. أقسمت له أني لا أفهم اللغة السودانية.. جثوت على ركبتيَّ ليتوقف عن شرحه الفرق بين السوداني الشمالي والجنوبي.. لم يكتفِ.. كأني علمت أني سأظل في تلك العقبة مدى حياتي؛ فبالطبع كلما ذهبنا إلى أي مكان أخي وأختي يجلسان بجانب بعضهما وكذلك أبي وأمي، أما أنا.. فلأذهب إلى الجحيم مع رفيق سفر جديد!!.مرت ساعة على انطلاقنا ويبدو أن وقت الغداء قد حان.. أخيرًا سأتذوق طعام الطائرة الذي لطالما حلمت به ليل نهار.. أسمع الأساطير عن هذه الوجبة فوق الرائعة، عن الدجاج المتوسط السخونة وتنساب عليه الصلصة البيضاء يزينها تناقض ألوان غريب مابين البازلاء الخضراء والجزر البرتقالي والبطاطس الصفراء.. أو بالطبع إذا كان اختيارك لوجبة اللحم؛ فأنت حتمًا من أصحاب الذوق الرفيع.. قطعة من اللحم البارد عليها صوص الترتار (ربما لست واثقًا من الاسم لكني أسمعهم دومًا يسمّونه هكذا)متكئة على تلٍّ دائري الشكل منظَّم من الأرز الأبيض، وكأنها

تحفة فنية خُلِقَت فقط من أجلك أنت.. لكن "السوداني" لم يتوقف عن الكلام.. حاولت نكز أبي في كتفه ليلتفت إليَّ ويلاحظ مدى تأففي من هذا الرجل عله يتركني في سلام قبل أن أتفوه بألفاظ بذيئة كالتي تعلمتها في الأميرية وأسبب الجلبة من حولي.. لكنه كان مستمتعًا وأمي بمشاهدة فيلم الكرتون المعروض على شاشات الطائرة!!!.. أبي الذي يرفض مشاهدة الكرتون ها هو الآن يشاهد "وودي بيكر" نقَّار الخشب.. يبدو أن كل شيء بمذاق آخر على الطائرة.أتت المضيفة ذات أحمر الشفاة المثير للاشمئزاز لسؤالنا عن الوجبة المفضَّلة.. لم تكن المضيفة ذاتها التي أمرتني بربط الحزام.. كانت أخرى أقل حجمًا، ولكن بنفس الإكسسوارات، وما أثار دهشتي حقًّا أن اليونيفورم كان يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ ملابس خادمات المنازل.. اللعنة على التلفاز وما ينقله من أكاذيب، لقد دمَّر كل صورة جميلة بداخلي.سألتني المضيفة عمَّا إذا كنت أريد شيئا:

المضيفة(بابتسامة زادت من تجاعيد وجهها): فراخ ولا لحمة؟؟.. ولا سمك؟

كانت الصدمة شديدة عليَّإذ أني فوجئت بوجود طبق ثالث زاد من حيرتي وصعوبة اختياري.. لكم كنت أتمنى لو أحصل على الثلاثة، لكن تلك هي الحياة وعليك دومًا الاختيار(من واقع خبرة طفل في الثالثة عشر من العمر.)

أنا (بتردد): إمممم.. سمك؟؟!!.. لأ لأ لأ لحمة!!!.. مش عارف!!

ابتسمت المضيفة ولم تبدأ بالرد حتى داهمها الرجل السوداني بجانبي: "أنا أجووول لحمة وعصيييير تفاح"

كانت الأحرف جميعها لديه ممدودة وبطيئة الخروج كأن نايًا يعزف حروفًا تصيبك "بالنعاااااااس".. تبًّا!! لقد صرت أتحدث مثله!!.. يالها من عدوى سريعة الانتشار!!.بعد أن لبَّت المضيفة طلبه عادت إليَّ مرة أخرى قائلة: "طيب أقوللك؟؟ .. الفراخ هاتعجبك وخد معاها أورانج جووس".

أنا(بعد اتخاذ قرار صعب): لأ خلاص هاخد لحمة.. وبيبسي.

أتريد أن تطعمني على هواها صاحبة أحمر الشفاه المستفز؟؟!! لن يحدث أبدًا.لم تخيِّب وجبة غداء الطائرة ظني فحسب.. بل تمنيت لو أني أملك القرار لمحاسبة كل من هو مسؤول عن تلك المهزلة المعلَّبة بعلبة بلاستيكية ضئيلة تسمى "وجبة غداء الطائرة".. لا أعتقد أن طبقًا صغيرًا بحجم كفي الصغير من الأرز ونصف حبات الأرز به كادت تكسر أسناني من قسوتها وقطعة لحم رقيقة تشبه شرابي القصير الذي أرتديه، يمكنها أن تشبع رغبتي.. كما أن ثمة شيئًا آخر.. "لاا أحب كعكة الأناناس"!!!.. زمجرت أمام أمي وأبي لأني أكره كعك الأناناس وأردت استبدالها، لكن بلا جدوى.

أبي: ما خلاص بقى يا عطوة، هانغيرهالك ازاي.. انت بتختار الوجبة وزي ما بتيجي.

-طب اشمعنى جازمينا ما هي جالها "كريم كراميل" !!!

Obeikan.com

أمـي: يـا عطووتــة مــاهي اختــارت فــراخ، مــش طــنط قالتلــك خــد فراخ؟؟!

-ماليش دعوة أنا ماكنتش أعرف.. أنا عايز كريم كراميل!!!

لـم تكتـفِ جازمينـا بإشـعال الحرائـق كالعـادة حتى تخـرج لسـانها أمـامي لتثير اسـتفزازي أكثر، فـأتمنى أن أقطـع رقبتهـا..!!.صـرخت أمـي في وجهي بعـد أن لـم يعـد هنـاك فائـدة مـن ال"دلـع".. لـم يكفِني ذلـك لأجــد الرجــل الســوداني بجــانبي ينظــر إليّفاتحًــا فمــه ذا الأســنان ناصـعة البيـاض ويضـحك على مـا يـراه حتى كـدت أن أرى مابـداخل بطنـه مـن خـلال فمـه الكبير الـذي يشـبهأحدالأنفاق.. نظـرت إليـه ثـم نظرت إلى أمي وأبي وصرخت:

-يعني أنـا قاعـد جنـب عمـو ده ومسـتحمل.. الكراسـي ضـيقة كـأني في ميكروبـاص وبـرده قلـت ماشـي.. الأكـل طلـع وحـش وانـا مـابحبش كيكة الأناناس.. بتزعقوا فيااا لييه؟؟!!

أبي: أنـا مـش فـاهم انـت عاملهـا مشـكلة ليـه؟؟ ماتشـيل الأنانـاس مـن الكيكـة وتاكلهـا.. زي مـا بتشـيل الباميـة وتاخـد الصلصـة بتاعتهـا بـس.. إشمعنا مابتتصرفشي المرة ديه؟؟!!

تأففـت مـن الموقـف وعـدت أدراجي.. أنهيـت مـا اسـتطعت إنهـاءه مـن الطعــام تاركـا كعكــة الأنانــاس وشــأنها، لكـني أشــهد أنــي لــم أفــوت الجـائزة الكبري.. "المنـديل المعطـر".. يـاااه، كـم كنـت سـعيدا عنـدما عثـرت عليــه عيـني وســط أكيــاس مــن الهــراء وســلاكة الأســنان الخشــبية التي لـم ولـن أقـوم بتجربتهـا أبـدًا وسـكينة بلاسـتيكية لا

أجـد حتـى سـبـبًا مقنعًـا لوجودهـا.. المنـديل المعطَّـر هـو الهديـة الأسـطورية الحقيقيـة التي حصـلت عليها مـن تلـك الرحلـة، فيمـا عـدا ذلك.. لم أهنأ به حتى باغتني السوداني بسؤال :

"أجـوووول يـا ابـن النيـل.. انـت تعـرف انـوو عنـدنا بالسـودان المـرا اللي تلـبس بنـدالون يجيبوووونهـا ويجلـدووونها جلـد بالجوربـااج.. .آآآآي؟؟!"

نظـرت إليـه في تعجُّـب ودهشـة مـن وقـع السـؤال.. لـم أملـك مـن أمـري شيئًا، مضطر أن أسايره حتى النهاية، فقد علقت وانتهى الأمر..

-"صبببررررررني يااااارب".. .. .. !

Obeikan.com

(3)

هبطنا بالطائرة في مطار الرياض الدولي.. التفتّ بجانبي لأجد الرجل السوداني قد غطَّ في نومٍ عميق؛ فحمدت الله على تلك النعمة.. التفتّ من حولي لأجد حركة غريبة بدأت في الانتشار.. النساء كلهن صرن على هيئة واحدة.. كلهن يرتدين "العباءات السوداء". البعض بنقاب يستر وجوههن والبعض الآخر كل شيء مغطى عدا الوجه واليدين.. التفت إلى أمي ضاحكًا أخبرها عن النسوة المنافقات اللاتي غيَّرن لباسهن فجأة ليتطبعن بطبع البلد، وفور الخروج منها أعتقد أنهن سيخلعنه حتمًا.. لكن لحظة.. أين أمي؟؟!.. أنظر يمينًا ويسارًا لا أجدها!!، "ماما انتي فين؟!"، حتى أجد امرأة ملفَّحة بالسواد تمسك بيدي قائلة: "أيوة يا عطوة ماما هنا"!!!!.. تبًّا لقد تحولت أمي مثلهن!!!.. أمي التي لم ترتدِ حجابًا قَط أراها الآن ك شوالًا أسود.. تخيلت أبي أيضًا بالجلباب الأبيض كما نرى السعوديين في الأفلام، لكن حمدًا لله لم يتحول هو الآخر.ترجَّلنا من الطائرة لأجد أننا بداخل المطار بدون الحاجة إلى ركوب "أوتوبيسات" لنقلنا من وإلى الطائرة.. المطار في قمة النظافة والهدوء، ولا أعلم هل هو هادئ دومًا هكذا أم أن السبب يعود إلى توقيت وصولنا الساعة الثانية صباحًا!!.كانت دهشتي كصبي صغير بنظافة ونظام المكان تفوق الوصف، بل إن والديَّ تسمَّرا لعشر دقائق يتفحصان المكان من حولهما، وإخوتي يركضون ويلعبون كأننا في إحدى الفنادق الفخمة.. أسمع أصوات شلالات

مياه ونافورة كبيرة أمامي مباشرة فور نزولنا من السلم الكهربائي.. أرى من كل جنس ولون ونوع.. عُمَّال النظافة وحاملو الحقائب هنا ليسوا مصريين.. بل "هنودًا" و"بنجلاديشيين". لكنهم ليسوا كما نراهم بالتلفاز.. عندما دققت النظر إلى أحد العمال يحمل الحقائب عن سيدة عجوز تفقَّدت ملامحه جيدًا.. ليس كـ "أميتابتشان" بطلي المفضَّل، ليس طويلًا، مفتول العضلات.. في الواقع كان قصيرًا يقارب طولي تقريبًا، أسود اللون (أسود مائل إلى البرتقالي-إن صح التعبير)!، بكرش صغير ويرتدي لباسًا أخضر مهندمًا كيونيفورم،وعينين صفراوين أحسست أن كلتيهما بارزتان للخارج وخشيت أن تسقطا عن وجهه على الأرض، يتحدث بلهجة سريعة جدًّا أغلب كلماتها: "بابا.. ماما.. سمسم.. صديق(أو القاف تنطق ج، صديج).. إيس كلام (الشين تستبدل ب سين)" وأشياء من هذا القبيل.. في الواقع لم يكن كنجوم هوليوود، بل كان يشبه أحد الذين "يتلقون الضربات والركلات كـ كومبارس".. تعلمون، أولئك الهنود الذين يظهرون بالآلاف لمهاجمة البطل!!

بعد أن أنهينا الجوازات والتقطنا أنفاسنا قليلًا، توجهنا لانتشال حقائبنا من السير الذي بدا وكأنه عرض أزياء للحقائب، أرى حقائب بأشكال وألوان تسرّ الناظرين.. بالطبع لم يكن من الصعب علينا التعرُّف إلى حقائبنا الرائعة.. ثلاث حقائب "كاروهات" أحمر وأزرق تشبه البؤجة أو الشوال حينما تملأ بالملابس يُخيَّل لي وكأن بداخلها "جثثًا" لا ملابس.. الحقائب اللعينة عندما تملأها بالملابس تصبح مستحيلة الحمل كأنك تحاول رفع رجل بدين مغشيًا عليه

ولا تستطيع أن تملكه في حملك له أو تسيطر عليه فيتدلى من خلف ظهرك ومن جانب ذراعيك.. أتذكر اليوم الذي اشترينا فيه تلك الحقائب،إذ سمعت البائع يقول لوالدي: "ديه بقى يافندم شنط (رحلة سعيدة)، ماركة معتبرة، وممكن بقى سعادتك تفتحلها السوستة وتوسّعها أو تلمّها بالسوستة برده وتضيقها".. لو رأيت هذا البائع مرة أخرى حينما أكبر، سـ"أركّب له سوستة" كالتي يتحدث عنها!!

قبل خروجنا من البوابة، استوقفنا أحد رجال الشرطة للتأكُّد من ماهية ما بداخل الحقائب.. كان الجو العام غير مزدحم، بالكاد يقف بجانبنا رجلٌ أجنبي وآخر مصري، وعائلة سورية من أربعة أفراد: أب وأم وابنتان.. ابنتان بارعتا الجمال!!، حسنًا.. أسطورة أخرى تم إثبات مدى صحتها.. السوريات جميلات!.أصرَّ الرجل على تفتيش العائلة السورية حتى خرج والدي عن صمته قائلًا بتهذيب: "يافندم إحنا ماعناش حاجة لا سمح الله غريبة، حضرتك شايف تعبانين من السفر وفيه حد مستنينا بره، واحنا اتأخرنا عليه عشان تأخير الرحلة، ماعدشي فيه غيرنا في المطار". ثم ابتسم أبي وصمت،لكن يبدو أن الضابط لم يعجبه وقع الكلام،نظر إلى أبي نظرة تفقُّد (من فوق لتحت) ومن ثم نظر إلى ربّ الأسرة السوري وأردف قائلًا: "أجوول خللك ياخووي شوي.. بأشوف المصري وبأرجعلك".. ظننت أنه يقصدنا نحن بـ"المصري"، لكن في الواقع كان يتحدث عن الشاب المصري الآخر الواقف بجانبنا.. كان يحمل حقيبة بها معدات إلكترونية، وقطع غيار أجهزة حاسوب رآها

الضابط السعودي، هزيل الجسد طويل القامة، ذو الشارب الأسود الكثيف، وأمره بإعطائه جواز السفر.. كتب فيالجواز أنه "طبَّاخ"، وعندما اطلع على أوراقه وجدها بمهنة "شيف بأحد الفنادق الخمس نجوم". فلم يفهم الضابط لِم كل تلك الأجهزة.. أمره بالذهاب إلى مكتب الاستجواب مع ضابط آخر بدين بطيء الحركة.. لا أعرف لِم لَم أرَ حجمًا وسطيًا للضباط هنا،إما نحيف جدًّا أو بدين.. يالها من مقاييس!

خرجنا من المطار أخيرًا.. شعور غريب..وجودك في مكان خارج نطاق تربَّيت عليه طوال حياتك.. أأنا حقا في بقعة أخرى من العالم؟؟!. فور خروجنا تلفَّت أبي يمينًا ويسارًا كأنه يبحث عن شخص بانتظارنا، شخص كما سمعته يقول لأمي يسمى: "الكفيل".. انتظرنا لساعة ونصف بلا جدوى وسائقو سيارات الأجرة يحاولون جذب الانتباه وعرض إيصالنا.. لكن إلى أين؟؟ فنحن لا نعلم أي شيء عن هذا العالم الجديد.. ثم ما تلك السيارات؟؟.. سيارات غريبة كالتي أراها بأفلام السباقات، ليست كسيارات التاكسي في مصر.. لم أجد سيارة واحدة موديل العام الماضي.. كل السيارات موديل عام 2000 .. بلد "البترول"، حقًّا لديهم كل الحق ليتدللوا.

فجأة وسط صمت واستياء، وحالة من شِبه الملل بين والداي، توقفت سيارة ربع نقل "تويوتا" بـ"كنبة خلفية" أمامنا مباشرة.. ترجَّل منها رجلٌ يرتدي ملابس سعودية، جلباب أبيض يرتدي أسفله سروالًا قطنيًا طويلًا ووشاحًا "كاروهات" على الرأس بألوان أحمر وأسود وأبيض، وشيئًا يشبه الحلقات يرتديه على رأسه

obeikan.com

كقبعـة، ينـادي على أبي بترحـابٍ وصـوت عـالٍ، شـعرت مـن خلالـه كأنه يتشاجر معنا:

"يـا هــلاا يــا هــلااا يــا هــلااا بييكمــدكتور.. مرحبابــااا مرحبابــااا.. بَيَّظظظ الله وجهك، والله الرياظ كلها منورة بيكم عساكم ابخيير"

سـعادة كبيرة غمـرت وجـه أبـي برؤيـة هـذا الرجـل الغريـب، انطلـق لهنئـه ويشـكره على القـدوم لأجلنـا.. مـا تلـك اللهجـة؟؟ إذا كانـت هـذه اللغــة هـي اللغــة السـعودية،إذن يجـب أن أحصــل علـى قـاموس إن أردت العـيش هنـا.. خاصـة وأنـي اكتشـفت مـن كثرة كلامـه أن هنـاك أحــرف تُســتبدَل وأخــرى تُفخَّــم وأخــرى بالكـاد تُنطَـق، وأولهـا أنهـم ينطقون حرف "الضاض" : "ظاء".

انطلقنــا بالسـيارة فـي شــوارع فارغـة عريضـة جـدًّا، واسـعة الأفـق تتـراوح ارتفاعــات العمــائر بهــا مــابين طــابقين لأربعــة طوابـق فقـط وكأنهـا "مكعبـات" كـالتي كنـت ألعـب بهـا في بيتنـا القـديم.. الجـو حـار جـدًّا وكأننــا بـداخل فــرن أحــس بصـهده يصـطدم بـوجهي، ورائحــة الأتربــة فــي الهــواء تثيـر أنفـي، وكأننــا هبطنــا علــى كوكــب غريــب وأجسـادنا بحاجـة إلى التـأقلم على المنـاخ الجديـد. توقفنـا في إحـدى إشـارات المـرور والطريـق خـالٍ تمامًـا أمامنـا، أبـي يضـحك مسـتغربًا مـن الموقـف سـائلًا الرجـل: "انتـا وقفـت ليـه؟؟ دامـافيش غيرنـا في الشـارع يـا عـم؟".. ضـحك الرجـل قـائلًا: "و الله يــا دكتــور، الحــين لــو تــوي تجــدمت خطــوة.. بتلحجنــا ســيارات الشــرطة.. لعــن الله والــدينهم مــا أدري مــن ويــن يوطلعــون بســم الله علــيهم".. يبــدو أن هــذا المســكين لــم يـزر مصـر يومًـا.تجاوزنـا إشـارات مـرور عـدة قبـل أن نصـل إلى وجهتنـا،

والحقيقة مررنا بمستويات عدة من الطبقات الراقية -كما سمعت من حديث والدي مع الرجل-، كشارع "العليا" و"الريان" و"الروضة" ورأيت كمًّا من الفيلات والقصور لم أتوقع أن أراه مطلقًا بحياتي، وظللت أخمِّن طوال الطريق: "أيٌّ من هذه الفيلات الرائعة ستكون مسكننا الجديد؟؟".. حتى صُدِمت للمرة الخامسة لهذا اليوم.وصلنا إلى وجهتنا فور سماع صوت أذان الفجر، ولعلها بشرة خيرة الوصول على الأذان.. لكن الحي لم يكن يشبه الأحياء التي مررنا عليها.. مطلقًا.. كان يبدو وكأنه على "الطوب الأحمر"، المباني كلها هكذا، الشارع من حولنا مليء بالرمال والحصى؛ بحيث يصعب على السيارة "الربع نقل" التحرك فيه!!.. بيدأن الطريق للسيارات بجانب المنزل يبدو غريبًا بعض الشيء، يبدو كالملاهي صعودًا ونزولًا كأنك تتسلق منحدرًا مرتفعًا.. أعتقد أن تلك المنطقة كانت مجموعة من الوديان والتلال بنيت عليها أرصفة ودهنت بالأسفلت بدون تسوية.ترجَّلنا من السيارة وأنزلت حقائبنا ثم أنهى الرجل السعودي مهمته بإعطاء والديمفاتيح الشقة، وأخبره أنها بالدور الثاني، ومن ثم انطلق مسرعًا بعد أن أكَّد على أبي أنه سيأتي باكرًا لاصطحابه وأمي غدًا لمقابلة مدير المستشفى، والاتفاق على كل شيء.

وقفنا للحظات نتأمل المنزل من الخارج،بعد أن أيقظت أمي، منعم وجازمينا، اللذين غطا في نوم عميق بالطريق.. ما هذا المبنى؟؟ مبنى لانزال نرى لون الطوب الأحمر العاري منه من الخارج، ولا يتعدى الثلاث طوابق، كأنه كان فيلا في يوم من الأيام ثم حوَّله صاحبه إلى

عمارة قصيرة. نظرنا إلى بعضنا البعض، ومن ثم صعدنا ثلاث سلّمات عريضات قبل أن نصل إلى الباب الحديدي المزخرف للمبنى.. أمرَنا أبي بالانتظار ريثما يقومبحمل الحقائب للشقة.. حاولت مساعدته لكنه رفض ذلك وأمرني بالوقوف إلى جانب أمي وأخويَّ الصغيرين. انتظرت أبي يحمل الثلاث حقائب "الكاروهات اللون" ويصعد بهم الواحدة تلو الأخرى، وأنا أرسم صورًا لغرف الشقة الجديدة وصالتها والشكل العام لها، مقارنًا بينها وبين شقتنا القديمة التي طالما كنا نسميها "قصر الغازي".. لكن سرعان ما كنت أطرد تلك الأفكار حينما توقظني بشاعة منظر المبنى من الخارج؛إذ أني أعتقد أن من قام ببناء وتصميم المباني بهذا الشارع لم يكن بنَّاءً أو مهندسًا.. تخيلته "عم جرجس" من بناها؛ فهي تشبه في الواقع إلى حدٍّ كبير حلواه الغريبة.. مكعبة الشكل لكن مجعدة وفاقدة للإحساس الفني من الخارج. أنهى أبي حمل الحقائب، ومن ثم طلب منا الصعود أخيرًا.. صعدنا على سلالم عريضة مريحة للغاية والمسافات بين كل سلم منها قصيرة حتى بالنسبة إلى ساقيَّ القصيرتين البدينتين وليست كسلالم عمارة الأميرية التي أقسم أنه بإمكانك ملاحظة آثار حفر تشكَّلت من جراء مرور الأقدام عليها طوال سنوات عدة ولم يفكر أحدٌمن السكان في استبدالها..

وقفنا أمام الباب أخيرًا ليفتح والدي وندخل ومن ثم أجد نفسي أمام بهوٍ واسع فسيح.. دخلت راكضًا إلى الداخل لأصل إلى صالة واسعة أصابتني بالذهول!!.. الشقة كانت واسعة للغاية، تعادل

ثلاثة أضعاف شقتنا بمصر.. تفقدت الغرف لأجدها خمس غرف واسعة بأبواب مفتوحة على بعضها فيمكنك أن تمر بين كل غرفة وأخرى من بابٍ لآخر.. الأثاث في الشقة كان جديدًا، لم يكن حديث الموضة، ولكنه كان مريحًا للغاية، أخذت أقفز أنا وأخواي، نلهو ونلعب فوقه، وأبي وأمي أكملا الجولة في الشقة.. أحسست بأني أود الذهاب إلى الحمَّام، سألت أبي أين الحمام فأجاب: "أنهي واحد فيهم؟؟" ، يا ويلي أيوجد حمامان بهذا المنزل؟؟!!. تفقدت الاثنين لأجد أحدهما كبيرًا ب "بانيو" والآخر صغيرًا.. لكن لا يمنع ذلك من أن كليهما كانا واسعين!. لا أزال مصابًا بالذهول من جراء المفاجأة؛ففي مصر عندما كنا نرى بيتًا من الخارج بهيئة رثة قديمة، كانت تتبادر إلى أذهاننا جملة واحدة: "الجواب بيبان من عنوانه"، لكن لم أتخيل أن هذا المنزل الذي يبدو كالوكر من الخارج قد يحوي جنة من الداخل. بالطبع اخترت غرفتي الخاصة-الأوسع بينهم-وكان لأخي وأختي غرفة تجمع بينهما، وأخرى لوالديَّ، والغرفتان المتبقيتان بالتأكيد سنجد لهما استخدامًا. ما أثار دهشتي حقًا "الموكيت الأخضر" الذي يشبه العشب في ملاعب كرة القدم، يغطي أرضية المنزل بالكامل.. أخذت أتدحرج عليه ذهابًا وإيابًا كأني في إحدى الحدائق. في شقة الأميرية كانت أرض البلاط عارية ولا يكسوها سوى بعض السجاجيد القديمة ذات القابلية العالية لانتشال الغبار.. لكن إن أردتم رأيي.. فتلك مصيبة، إذ أني كنت أدفن التراب أسفل السجاد عندما تأمرني أمي بأعمال التوضيب والكنس.. الآن أين سأدفن ما سأجمع من أتربة؟؟!

بعد إفراغ الحقائب الثلاث مما تحويه من ملابس وأطعمة كالبط والحمام وبضع قوالب من الجبن القريش الذي يعشقه والدي وكأنه أقلع فقط عن السجائر ليدمن الجبن؛ توجهنا إلى أسرتنا لننال قسطًا من الراحة استعدادًا لحياة جديدة.. والجزء الأفضل الآن هو أني أخيرًا "أمتلك جهاز تكييف فاخرًا" في غرفتي.. كم أنا محظوظ.. أطفأت النور واستعددت لتلك اللحظة لإطلاق زر التشغيل والاستمتاع بهواء بارد نقي في هذا الحر الشديد.. لكن في الواقع هناك شيء بسيط"قد" يعكر صفو هذا الجو الملائكي.. إنها موسيقي جهاز التكييف الرائعة التي أبقتني مستيقظًا على أنغامها،إذ يبدو أن نوع الجهاز قديم بعض الشيء، بمجرد أن ضغطت زِر التشغيل حتى سمعت صوتًا يشبه موتور سيارتنا اللادا القديمة في مصر: "عننننن عنن عن عن عنننننننننننننننننن ععععععااااااااااااااااااااااااااااا".. حتىاستقرت على نغمة واحدة "عااااااااااااااااا" وظللت مستلقيًا على ظهري شاخصًا بصري إلى السقف محدقًا إلى المروحة المعلقة أعلاي بلاا حراك!!.

(4)

استيقظت مبللًا غارقًا في عرقي بعد أن اتخذت قرارًا بإغلاق جهاز التكييف ذي الصوت السيء، واكتفيت بالمروحة التي بالكاد قامت بتنفيذ مهامها في هذا الجو الصهيد.. ولا أدري.. ربما لأننا وقت الظهيرة والحر قد بلغ أشده، ولكن الجو كان سيئًا منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها أقدام عائلة دكتور غازي هذا البلد. لم يكن والداي استيقظا من نومهما، لكني لاحظت هدوءًا لم أعتَده بعد من حولي.. الناس لا يتشاجرون كما في الأميرية، لا أسمع ضجيج عربات الفول الخشبية، ولا أثر لأصوات الدجاج والديوك الرومي من حولي.. اعتدت الاستيقاظ على صوت مفك الصواميل الحديدي يضرب بقوة على أنبوبة بوتاجاز صدئة يدعمها صوت يخرج من حنجرة خُلِقَت فقط لأجل إزعاجك.. استجمعت قوتي فاردًا ذراعيَّ لعلي أستفيق قليلًا بعد النوم على سرير فاخر مريح كسريري الجديد؛ فأنا لست معتادًا في الواقع على النوم على الأسِرَّة، بل كان سريري في مصر في حقيقة الأمر "كنبة" قديمة بمرتبة قاسية، أعتقد أنه تم ملؤها بالرمال والحجارة وليس القطن.. عندما سألت أبي في إحدى المرات: "بابا احنا ليه مانجبشي مرتبة سرير عادية بدل البتاع ديه، أنا ظهري وجعني منها!!".. كان الرد: "يا عبيط، انت عارف ان في اليابان الناس بتنام عالأرض عشان الأرض الناشفة ديه بتخلّي ظهرهم أقوى ومفروود أكتر؟!!".. كنت أصدقه، ففي النهاية هو أبي ولا أجد سببًا لديه ليكذب عليَّ..

لكن بعد تجربتي لهذا السرير: "تبًّا لليابان".استيقظ والدايا استعدادًا للتوجه إلى مقر العمل الجديد، بينما ذهبت أستطلع التلفاز لعلي أجد فيلمًا هنديًا لأميتاب.. لكني نسيت أننا لسنا في مصر، حسنًا.. لنرى ماذا لديهم.. فتحت التلفاز لأجد قناة أولى بها إذاعة قرآن كريم بصوت شيخ ما لم أسمع عنه من قبل، لكن صوته رائع.. انتظرت حتى توقف عند نهاية الآية(كما يخبروننا دائمًا ألا نُغيِّر القناة والقرآن يُقرأ) ثم غيرت القناة لأجد قناة أخرى باللغة الإنجليزية وبرنامجًا عن الدعوى الإسلامية باللغة الإنجليزية.. "ماشاء الله"، يبدو أنني وجدت قناتين دينيتين إحداهما بالعربية والأخرى أجنبية، سأتركهما للصباح دومًا.. هممت لتغيير المحطة؛ باحثًا عن باقي القنوات.. لكن مهلًا.. لم أجد سوى تكرارٍ لنفس القناتين السابقتين!!!!اللعنة.. قلبت القنوات سريعًا بالريموت، ولكن بلا جدوى.. تبًّا أليس لديهم سوى هاتين القناتين فقط؟؟!!.جاء المندوب وطرقَ الجرس أخيرًا.. استعد كلٌّ من أبي وأمي للرحيل.. بالطبع لم نسلم من فقرة "الوصايا العشر" المعتادة: "ماتفتحوش الباب لأي حد-ماتحوطووش المفتاح في الباب وتناموا-اقفلوا محبس الغاز-لو حد اتصل بيكم قال لكم أنا صاحب بابا وبابا تعبان في المستشفى وأنا مستنيكوا تحتاإوعوا تنزلوا.. إلخ إلخ إلخ" ومن ثم أكدت أمي على وجود طعام الإفطار في الثلاجة؛ فلا حاجة لنا في النزول وانطلقا إلى العمل.عزمت على الاستحمام لعلّي أزيل رائحة العرق الملتصقة بي منذ حر الأمس.. وقفت في "البانيو" الرائع وفتحت مقبض الصنبور وها أنا أنتظر تدفق المياه الباردة من ثقوب الدش الكبير كهطول الأمطار في فصل

Oberkan.com

صيف حار على نبات صحراوي متعطش للماء حتى قفزت من موضعي فور تحسس جسدي للماء الساخن كالمهل يشوي الوجوه.. كلما ابتعدت يمنة ويسرة أجد الماء الساخن يلاحقني كأن الدوش بعرض سقف الحمام حتى تمكنت أخيرًا من إغلاق الصنبور.. "يمكن فتحت المية السخنة ولا حاجة"-هكذا ظننت-إلىأن تأكدت أن المياه بالفعل ساخنة كالحمم البركانية!!!.. يا ويلي.. حسن، سأكتفي بالوضوء لصلاة الظهر وأنتظر حتى أستفسر من والديَّ عن مشكلة الماء، فلعل دورات المياه هنا متطورة وهناك نظام تبريد خاص.. بالتأكيد هي كذلك فلا يمكن أن يتحمل البشر هنا تلك المياه الحارة. فتحت الصنبور لأغسل أنفي ووجهي ولا أكاد أحتمل سخونة المياه تذيب شعيرات أنفي وتحرُّق وجهي.. يا إلهي، كأني أتوضأ من ماء الجحيم!!. خرجت أبحث عن البلكونة لعلي أبرِّد جسدي قليلًا حتى وإن كان الجو حارًا في الأصل، لكن على الأقل أنظر إلى الشارع من حولي وأتعرَّف على ملامح منطقتي الجديدة. بحثت أنا وأخواي عن بلاكونة في الشقة فلم نجد أي شيء.. لا شيء سوى شبابيك كبيرة مغلقة بإحكام بأسياخ حديد من الخارج، ومن الداخل شبك ألومنتال معدني (كما اعتادت أمي أن تسميه).. كأننا نعيش في سجن.أمرهم عجيب سكان تلك المدينة، يرتدون العباءات السوداء التي تخفي معالمهم، لا بلكونات لديهم ومنازلهم تبدو معزولة بالكامل عن العالم الخارجي.. حتى التلفاز هنا لا يعرض سوى قناتين، وكلتا القناتين للقرآن الكريم.. أعتقد أننا لو كنا في "الجنة" فإننا لن نجد عفة ووقارًاكذلك!. لا شيء ممتع حتى الآن في الشقة الجديدة سوى المساحات الشاسعة

بها. عدت مرة أخرى إلى التلفاز لعلّي أجدهم يعرضون شيئًا ما.. ضغطت على زر التشغيل، ومن ثم تابعت لأجد مسلسلًا كرتونيًّا كان على وشك البدء يدعى "موكا موكا".. الكرتون يتحدث عن ديناصور أخضر صغير تعوله عائلة ما وتنشأ صداقة بينه وبين فتاة من تلك العائلة.. كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها شيئًا آخر بخلاف "توم وجيري" ولم يكن أمامي أفضل منه أنا وأخواي حتى تسمرنا أمامه واكتشفنا أنهم يعرضون حلقات مجمعة يوم السبت، وعليه ظللنا نتابعه ثلاث ساعات قتلًا للوقت حتى أتى أبي وأمي من مقابلة العمل.

مرَّ أسبوع وأنا وأخواي لم نغادر قَط المنزل، بل لم نتخطَّ حتى عتبة الباب.. لا يزال والداي يستيقظان صباحًا في السابعة ويبدآ يومهما إلى العمل، يذهبان معًا ويعودان معًا.. الأمور مستقرة إلى حدٍّ ما، ولكني مللت المكوث في البيت، فتارة أسأل أمي السماح لي بالنزول إلى الشارع فتوبخني معلِّلة ذلك بأننا لازلنا على عِلمٍ قليل بالمكان، وتارة أخرى تخبرني بالطلب من والدي أن أذهب معه إلى السوق للتعرُّف على جغرافيا الحي هنا، وها نحن الآن أول يوم جمعة لنا بالسعودية.بعد معاناة الوضوء بالماء الساخن والاستيقاظ مبكرًا لأداء صلاة الجمعة الأولى لي في الأرض الطاهرة، كانت تلك فرصتي لرؤية الشارع في وضح النهار، ولعلَّ أبي أيضًا بحاجة إلى التبضع قليلًا لشراء حاجيات المنزل، وتلك فرصتي لاقتناص نزهة سريعة عقب الصلاة.

غادرنا المنزل أنا وأبي متوجهين إلى أقرب مسجد -ولا أخفيكم سرًا- كنت أتمنى أن تنقضي دقائق المشي تلك بأقصى سرعة؛ فالشمس حارقة كما لو كنا يوم القيامة وهي فوق رؤوسنا لا يقوى أحد على رفع بصره إلى أعلى ولو بالقليل.. حرٌّ شديد،بل إني لا أخطئإن قلت "صهدًا" يذكِّرني بالصهد الخارج من فرن بوتاجاز قديم كان لدينا عندما كنت أفتحه لأرىإن كانت صينية البطاطس نضجت من الأعلى، كما تطلب مني أمي.. مازاد الطين بلة هو أن الجو بالفعل يشبه جو الصحراء، الأتربة في كل مكان وجفناييحترقان من شدة الحر.. الرمال تعرف طريقها إليَّمابين أصابع قدمي المتعرِّقة من المشي والنعال الجلدي الذي أرتديه فيختلط العرق بالرمل لينتج "طينًا" يضايقني في المشي، كم أكره هذا الإحساس عند ارتداء "الشبشب" لأداء مشوار ما. "بابا الجو حر أوي".. هكذا قلتها ليرد أبي: "خلاص الجامع أهو".. كأني أخبره بذلك ليأخذني إلى الجامع، كنت أقصد أن يعيدني إلى البيت فلا مانع من أن أترك أول صلاة جمعة هنا.. أعتقد أن لدي سببًا وجيهًا!!! ألا توافقوني؟؟!.تغيَّرتْمعتقداتي فور وصولنا إلى المسجد والدخول؛ حيث أني في الواقع لم أرغب قَط في الخروج منه.. المسجد كان فارهًا، واسعًا جدًّا ذا رائحة عطرة للغاية كرائحة المِسك الذي كان الحاج عيسى والد سيد يحضره لنا من العمرة كما اعتاد كل عام.. الأغرب من ذلك هو أن الجامع بالكامل كان يشبه الثلاجة في درجة حرارته، أجهزة التكييف مبعثرة في كل أرجائه كما لو كانت بأسعار حلوى عم جرجس.. تذكرت حينها عندما درسنا في مادة التربية الدينية في الصف الثالث عن قصة أناس دخلوا النار وأُخرِجوا

منها ومن جحيمها وصهدها ثم تم إلقاؤهم في نهرٍ من الجنة باردٍ عذبٍ حتى التأمت جروحهم وبردت أجسادهم وشعروا بالانتعاش والرفاهية.. تعلمون ذاك الشعور.. هو بالمثل ما أحسست به فور دخولي إلى هذا الجامع البارد ذي الرائحة العطرة والسجاد الفخم الذي يجبرك على السجود عليه لفترات قد تدوم لساعات، ليس لأجل الله تعالى، ولكن لتدلل جبهة رأسك بنعومته.ظللت كعادتي أخمِّن وأطرح التساؤولات برأسي الصغير الكروي وعقلي المحدود: "أكيييييد فيه حاجة غلط.. أكيد الإمام بتاع الجامع هيطلع بقى راجل غلس وهايقول خطبة ساعتين"-إذ لدينا في مصر إذا كان الجامع بهذا المستوى، فإن الناس تخشى الصلاة فيه؛ لأن إمامه بالطبع سيترك مجالًا للحديث والفتوى والكلام عن خطبة مطوَّلة قد تصيب ظهرك بالآلام من جلسة القرفصاء لمدة طويلة تستمع فيها إلى "هراء" لا علاقة له بالدين أو إلى خطبة قد لا تؤثِّر بك في المطلق- لكن.. للمرة العاشرة أصاب بالذهول في تلك المدينة من سلوك الشيخ ذي اللحية ذات اللون البني المائل إلى البرتقالي، وبياض جلبابه والتجاعيد المهذبة على وجهه.. كيف أنهى الخطبة كلها فقط في ثلث ساعة، بل إنه اعتذر أمام المصلين على إطالته للخطبة خمس دقائق؛إذ أن من المفترض أن الخطبة ربع ساعة فقط!!.. ما الذي أسمعه؟؟!!.. نحن جالسون في هذا المسجد الراقي النظيف البارد المريح والخطبة ربع ساعة فقط، وعندما زادت خمسًا يعتذر الشيخ؟؟!!.. اعذروني، فأنا لم أعتد هذا السلوك الراقي!.خرجنا من تلك الجنة الباردة أجواؤها لأرتوي من مبرد ماء حديدي فاخر بجانب باب المسجد، المياه طعمها غريب بعض

Obeikan.com

الشـيء، ولكنهـا لا تـزال بـاردة ورائعـة. أخـذت أغسـل وجهـي منهـا وأرتـوي حتى امـتلأت بطني فلـم أقـوَ علـى الحـراك.. جلسـت أسـتريح على عتبـة البـاب حتى ينتهي والـدي مـن الحـديث مع جارنـا الجديـد في السـكن "مشـعل" الـذي صـادف وجـوده في هـذا المسجد تحديـدًا.. هـو رجـل أربعيـني كثيـف اللحيـة، قاسـي الملامـح، ويبـدو بـدوي الأصـل، طويـل القامـة وربمـا يتجـاوز طـول بـاب غرفتي.. وبينمـا كـان الحـديث قائمًـا، لمحـت بجـانبي رجـلًا عجـوزًا رث الثيـاب، ذا لحيـة رماديـة تتخللهـا بضـع شـعيرات سـوداء، يرتـدي ملابـس غريبـة كـالتي رأيـت الهنـود والبنجلاديشـيين في المطـار يرتـدونها: بنطـال قماشـي بني اللـون، وشـيء يشـبه الجلبـاب القصـير أو أطـول مـن القمـيص بشـبرين، وعقـد طويـل بفصـوص بحجـم كـرة بيـنج بـونج برتقـالي اللـون.بـدى لي في البدايـة كسـاحر أو مـا شـابه ذلـك، لكني سـرعان مـا تحققـت مـن وظيفتـه.. إنـه بـائع "السـواك".. نعـم، وجـدت فرشـة مـن القمـاش القاسـي أمامـه بهـا أحجـامٌ وأطـوالٌ مختلفـة مـن المسـواك والنـاس تهافـت عليـه، الـبعض يختـار سـواكًا "حـارًّا" والـبعض يختـاره بـاردًا، تخيلـت دومًـا أن السـواك لاطعـم لـه، ولـم أكـن أعلـم أن هنـاك منـه نوعيـة بطعـم "الشـطة".. لديـه أيضًـا مـا هـو بحجـم إصـبع الإبهـام وأعـواد سـواك أخـرى بحجـم أقـلام الجـاف الفرنسـية البيضـاء، وأحجـام أقـل سُـمكًا. رجـوت أبـي أن يـأتي لي بواحـدٍ، فتلـك المرة الأولى التي سـأحظى فيهـا بسـواك حقيقـي، وكأنـه قطـع اليـوم مـن الشـجرة ولـيس كالـذي يحضـره لنـا عـم عيسـى مـن عمـرة كـل عـام، مغلـف بمادة حافظة في عبوة كما لو كان مستحضر تجميل.

أنهى أبي الحديث مع مشعل جارنا الجديد وهممنا بالانطلاق، لكن مشعل أصرَّ على اصطحابنا في جولة تعريفية للمكان من حولنا.. وددت لو أن أبي يوصلني للمنزل أولًا؛ فالجو حار للغاية - وكنت أرى أن السير في تلك الأجواء يعد انتحارًا، لكني تراجعت عن رأيي في اللحظة الأخيرة؛ فلعلي لن أحظى بفرصة أخرى للخروج. ظللت أراقب الشوارع من حولي.. الناس بالكاد تسير على أقدامها، الكل يقود سيارات فاخرة وأغلبها مرتفعة عن الأرض كأنها دبابات حرب بإطارات مرتفعة تصلح لتسلق الجبال وليس مجرد السير على أرض أسفلتية ناعمة تخلو من النقص أو الحفر، ممهدة ومستوية بشكل لم أرَله مثيلًا في بلدي الأم، حتى إني أقسم لو خلعت ما أرتديه بقدميَّ، وسرت حافيًا لما خدشت قدماي. أجواء الشارع توحي بأننا في مدينة كارتونية، كأننا خرجنا من فيلم رسوم متحركة.. على الرغم من أن الحي يبدو شعبيًا وليس كالأحياء التي رأيتها لدى طريقنا من المطار إلى المنزل، لكني أتعجب من نظافة ونظام كل شيء.. لم نتعدَ عدة أمتار حتى وجدت صندوق قمامة حديديًّا كبيرًا أخضر اللون، لا قمامة ملقاة حوله وإنما فقط بداخله.. تذكرت حينما كنت ألقي القمامة في مصر، كنت أتعجب أن القمامة كانت ملقاة في كل اتجاه فيما عدا "داخل الصندوق".. بل إني لاحظت أيضًا أكياس القمامة المهترئة الملقاه بجانب إحدى الكنائس على مقربة من منزل صديق لي، وصعقت حين كنت أتسكع معه في إحدى الليالى، فوجدته يلقي بقمامة منزلهم على كومة الأكياس بجانب تلك الكنيسة.. عندما نهرته على فعلته صادفنا والده الذي أعطاني درسًا في الأخلاق فباغتّه بسؤال: "بس

يـا عمـو حضـرتك ترضـي ان حـد يرمـي زبالـة قُـدَّام الجـامع؟؟!".. وكـان الـرد مقـززًا للغايـة: "يـا عطـوة الجـامع مكـان مقـدس،إنما دول كفـرة يـابني".. .مـا يثير دهشـتي حقًّـا في الـرد أن هـذا الرجـل كـان يدرسـنا مادة "التربية الدينية" في الصف الثالث الابتدائي!

مررنـا بكافـة أنـواع المحـلات بالمنطقـة.. لـم ألاحـظ وجـود "قهـاوي بلـدي" كمـا اعتـدت أن أراهـا في كـل ركـنٍ في مصـر.. فقـط مطـاعم.. الكثير الكثيير منهـا، مطـاعم لكـل شـيء، كـأن النـاس هنـا لـم يخلقـوا لشـيء قَـط سـوى الأكـل والنـوم في أجهـزة التكييـف الخاصـة بهـم والصلاة في المسـاجد الفـاخرة.. والعجيـب أيضًـا أني لـم أجـد سـعوديًّا واحــدًا يعمــل بــأي محــل أو مطعــم مررنــا بــه.. فقــط مصــريون وســوريون والكثيير الكثير مــن البنجالــة والهنــود، كــأنهم عبيــد أو خدم.. أين يمكن أن يعمل أؤلئك السعوديون؟؟!!

بعـد أن أنهينـا جولتنـا، مررنـا بمحـل لبيـع ال"ميـاه"!!.. لا أعلـم مـا راودنــي مــن شــعور غريــب بأننــا توقفنــا ودخلنــا لابتيــاع حاويــة بلاسـتيكية تـزن 20 ليترًا مـن الميـاه المعدنيـة للشـرب؛ فقـد اعتـدت الشـرب مـن الصـنبور في مصـر، وحتى بعـد مـرور أسـبوع مـن بقائنـا بالريــاض كنــت لا أزال أروي عطشــي مــن ميــاه الصــنبور غريبــة الطعـم.. سـألت والـدي عـن السـبب ليجيـب بهدوئـه المعتـاد: "بعـدين يـا عطـوة مـش دلـوقتي.. وأهـو هـاتجرب الميـة المعدنيـة يـا سـيدي". لـم يمكــث "مشــعل" كثيرًا، تركنــا بعــد أن اطمــأن على معرفــة والــدي بـدهاليز وخبايـا الشـارع جيـدًا، ومـن ثـم انطلـق لإنهـاء شـؤونه.. أمـا نحـن فكنّـا نعـاني بعـض الشـيء لحمـل الأكيـاس وحاويـة الميـاه الثقيلـة

التي اعتلت ظهر والدي حتى كادت أن تقسمه فقط بعد السير لعدة أمتار.. وما زاد من صعوبة الأمر هو انحدار الطريق بالشارع المؤدي إلى المنزل بجانبنا، الطريق كما أخبرتكم، يتخذ منحدرًاغريبًا وكأننا نسكن في إحدى الصحاري، وفي طريق العودة إلى المنزل فنحن نتجه إلى أسفل المنحدر.

--بابا.. هو الشارع ده اسمه ايه؟؟

-إسمه: "المنفوحة"..

-يعنيإيه المنفوحة ديه؟؟.. زي"المنفوخة" كدة؟ ههههه

-أه.. زي المنفوخة كدة يا عطوة!

لم يستجب أبي للمزحة التي ألقيتها محاولًا كسر الجو السيء والحر القاتل لأعتى المخلوقات صبرًا وبأسًا.. في الواقع شعرت وكأنه بالكاد ابتلع المزحة وراء ابتلاع ريقه الذي كاد يجف من حمل حاوية الماء الكبيرة في ناحية وأكياس بلاستيكية معبأة بالمعلبات الثقيلة من ناحية أخرى، وأنا لا أحمل سوى كيس "ليف، وسلكمواعين" أخف من وزن الملابس التي أرتديها.. مسكين أبي!، ألا يكفيه ما يحمله حتى ابتلاه الله بابنٍ لا يحسن إلقاء النكات.لازلت مصممًا على استفزاز والدي بالأسئلة قتلًا للوقت ريثما نصل إلى المنزل.. سألته عمَّا إذا كان بإمكاننا شراء سيارة لعلَّ هذا يوفر علينا الوقت والجهد، لكن الإجابات كلها "حاضر.. إن شاء الله.. ممم.. حاضر.. طيب.. أكيد أه طبعًا.. لأ أه فعلًا احنا لازم نعمل كدة"، كيف "لأ" و"أه" في نفس الوقت؟؟!!.. بدأت أملّ من الحديث إليه حتى وصلنا إلى البيت أخيرًا.فور دخولنا من الجحيم بالخارج ضغط والدي زر

جهاز التكييف بالصالة بينما تعد أمي الإفطار لنا.. لم يختلف الجهاز عن غيره في تلك الشقة، فكلهم يصدرون الأصوات المزعجة، ولكن بتفاوت درجات الإزعاج؛إذ أن أكثرهم ضجرًا وزمجرة هو جهاز غرفتي!تفاجأت كثيرًا حين فتحت جهاز التلفاز لأجدهم يعرضون للمرة الأولى، مسلسلًا على القناة الأولى السعودية.. المسلسل بعنوان "مرايا".. تقول أميإنه مسلسل سوري مشهور لممثل سوري معروف يدعى "ياسر العضمة"، كأنه حلقات مقطوعة.. فكل حلقة تناقش قضية مختلفة.. ذكرتني طريقة عرض المسلسل بالمسلسلات التي كانت تُعرَض في الواحدة بعد منتصف الليل على القناة الثالثة المصرية،مسلسلات كالأفلام، ليست مسلسلًا مطوَّلًا بل كقصة واحدة تنتهي في جلسة واحدة.. لكم أحببت هذا النوع من المسلسلات.مضت ثلاث ساعات حتى أتى موعد الغداء.. كانت المفاجأة أننا لن نتناوله في المنزل اليوم، سمعت أبي يقول لأمي أن الكفيل بالعمل سيصطحبنا إلى الغداء بالخارج للتحدث عن العمل.. ويالسعادة التي غمرتني حينها، أخيرًا سنذهب في جولة للخارج، ولعلنا سنتذوق من طعام السعودية.. أعتقد أن لديهم أكلات شعبية كما لدينا "الكشري والفول والطعمية".

(5)

"على ميييين تلعبها.. على مييين يابن الناس.. عيووني تعذبها.. ولاا ترحم الإحسااس.."

بينما كانت تلك الأغنية السعودية الشهيرة تطرب آذنيْ سائق السيارة الهندي الذي بالكاد يهز رأسه طربًا ب "ادعاء مصطنع" فقط لأجل رب عمله الجالس بجانبه.. كنت أستمتع بالجلوس في سيارة فاخرة لا أعرف إن كان من الصواب تسميتها ب"سيارة" أم هي أشبه بالطائرة الخاصة.. الأرائك بالداخل فخمة للغاية من مادة قماشية كالوبر، أجهزة التبريد رائعة، صوت المسجّل ال"سي دي" يداعب أذني على الرغم من عدم فهمي لكلمات الأغنية الغريبة التي يفترض بأنها لمغنييدعي "راشد الماجد" كما أخبر الرجل والدي.. لكني على كل حالٍ راضٍ عن صوت الموسيقى، كما أن هدوءًا تامًا يخيِّم علينا بداخل تلك المركبة الفضائية من تراز GMC .. سيارة كهذه إذا وُجِدَت في مصر لن تستعمل كسيارة شخصية، بل كميكروباص "القاهرة-المنيا".. أو ربما "القاهرة-شرم الشيخ"!!.حاول أبي الاستطلاع عن ماهية المطعم الذي نتوجه إليه، لكن الرجل أصر بلهجته السعودية البدوية أن المكان سيثير إعجابنا وسينال الطعام رضانا بلا منازع،إذ أن اليوم سنتذوق أكلات شعبية ومشهورة يتناولونها هنا باستمرار.توقفت السيارة الفارهة أمام مبنى قديم للغاية.. أو ربما صُمِّم على طراز قديم

لإحياء ذكرى عاداتهم وتقاليدهم.. المبنى مضاء بأضواء برتقالية كالتي كانت لدينا في غرفة الصالون في مصر، تلك الأضواء التي تعطيك الشعور بأنك في مصر!! تزيد من حرارة الغرفة فتحوِّلها إلى نار مستعرة، وفي الحقيقة لم أستطع تفسير السبب.. هل هو لرداءة نوع اللمبة المستخدمة أم هذا اللون البرتقالي الحار يحدث أثرًا نفسيًّا!!.. لم يشكِّل ذلك فارقًا هنا؛ إذ أن المبنى مليء بأجهزة التكييف المركزية. أعجبني التصميم الصخري من الخارج ونظم التبريد والرفاهية بالداخل.. هؤلاء القوم يناقضون أنفسهم حتى الآن.

دخلنا إلى بهوٍ كبير مقسَّم إلى عدة غرف صغيرة مغلقة، ومن ثم أدخلنا الرجل المشرف على تنظيم المكان إلى إحداها.. من هنا فقط.. كان كل شيء بدائيًّا إلى حدٍّ مقيت.لم نجلس على طاولات كما اعتدنا، بل كان هناك "قاعدة عربي".. شيء يشبه الأرائك والكراسي، ولكن بدون أرجل، ومستوٍ على سطح الأرض. وجدنا صعوبة في الجلوس في البداية؛ لعدم اعتيادنا بعد.. الغرفة لم تكن مضاءة بضوء كهربائي، بل كانت مضاءة بشيء يشبه الأكواب الزجاجية وبداخلها شموع، الكثير منها في أركان الغرفة حتى بالفعل أحسست بحرارة اللهب بداخلها. رائحة الغرفة تذكِّرني برائحة الخراف والماعز.. بالطبع لأننا لا نجلس على سجاد، بل نجلس على جلود ماعز وهي مزينة أيضًا الحوائط الأربعة من حولنا.

لا أعرف لما نحن مضطرون إلى تحمُّل كل ذلك من أجل وجبة عشاء، لكني تحملت فقط حين شممت رائحة اللحم التي أفقدتني

تـوازني، وسـمعت صـوت شـوائها.. تعلمـون هـذا الصـوت المـاكر الـذي يصـدر حـين تتبخـر سـوائل اللحـم الحمـراء عنـدما تلامسـها أسـياخ الحديـد السـاخنة جـدًّا، هـذا المشـهد الـذي لطالمـا ذكَّرني ب "ناديـة الجنـدي" عنـدما كانـت تتلقـى التعـذيب مـن جنـود إسـرائيليين أو لا أدري-فهي دومًـا تتلقـى تعـذيبًا مـن الجميـع- في أفلامهـا التي لا أعلـم كيـف لطفـلٍ صـغير أن يشـاهدها.. لكني أحببـت تلـك الأفـلام التي أفتقـد رؤيتهـا هنـا!جلس الرجـل الـذي اصـطحبنا للعشـاء إلى جانـب والـدي وظـلَّا يتناقشـان في أمـور العمـل بجـوٍ مـن المـرح والطمأنينـة حتى أتى المشـرف على الطعـام يستفسـر عـن طلبنـا.. وقبـل أن يسـأل باغتـه الرجـل بجانـب والـدي بالتحيـة وكأنـه يعرفـه منـذ سـنوات، ثـم طلـب منـه أن يأتينـا بالتشـكيلة المعتـادة.. أومـأ المضـيف إليـه برأسـه أن "فهمت قصدك" ومن ثم انصرف.

--شكلك هاتأكّلنا حاجة غريبة يا أبو سلطان!!

-عيـوني يـا دكتـور.. بأسـويلك تشـكيلة مالهـا حـل.. تـرى أنـتم ظيـوفي اليوم وما أبغيإلا أبيظوجهي.. بيظ الله وجوهكم

-يـا عـم انـت هـاتعملهم عليـا؟؟.. هـو انتـوا عنـدكوا حاجـة تانيـة غير الكبسـة؟؟.. همـا شـوية رز بسـمتي مـن الأصـفر الجامـد ده، تحطلهـم لحمـة تبقـي "كبسـة لحـم"، تحطلهـم دجـاج تبقـى "كبسـة دجـاج".. انت فاكرني من الهند يا أبو سلطان؟؟ هههههه

-يـاخوي والله أنـتم المصـاروة مـا عنـدكم سـالفة.. وش فيـك يـا دكتـور، تراني مـا أكـذب عليـك، يعني بـأجيبكم كـل هـاذي المسـافة

ل وشـــو؟ .. الحـــين مابتاكــل أي شـــي لـــه علاجـــة مـــرة بالكبســـة.. بأتشوف يا دكتور هههههه

لـم أسـتوعب الكثير مـن تلـك المحادثـة سـوى ضحك الاثنـين وأمـي وكلمـات أبي.. تبًّـا، عليَّ أن أتقـن تلـك اللغـة في أقـرب وقـت.بينمـا كـان الحـديث في أوجّـه، سـمعتهم يـذكرون اسـم المركـز الطبي المفترض أن يعمـل بـه أبـواي.. "مركـز مهيـب الـركن التخصصـي".. وهـذه المـرَّة لـم أتردد في سؤال أبي عن معنى هذا الاسم الغريب:

--بابا.. هو يعنيإيه "مهيب الركن"؟

-لما نروح البيت هاقوللك يا عطوة.

-انت كل حاجة تقوللي لما نروح؟؟!

-(بلهجة حازمة) :بعدين يا عطوة مش دلوقتي..

كالعـــادة.. التزمـــت الصـــمت مـــع رفضـــي التـــام لتلـــك الطريقـــة فـــي التهمـيش وكبـت الـرأي، معبِّـرًا عـن ذلـك بـالنظر إلـى أعلـى والصـفير بصـوت عـالٍ، أو أضـع يـدي علـى أذنـي وأظـل أردد بصـوت مسـموع "دااا داااا دااا داااا.. بـلاا بـلا بـلا بـلا".. كلمـات لا معنى لهـا سـوى الاعتراض.. تلـك الطريقـة التي دومًـا وأبـدًا اسـتفزت أمـي وتعرَّضـتُ للصـفع على وجهي أحيانًـا بسـببها.. لكني لا أعـرف سـواها للتعبير.. وبـالطبع لـن أتعـرَّض للصـفع أو الضـرب الآن أمـام الضـيوف،لكني لـم أسلم مـن تلـك النظـرة الثاقبـة مـن أمـي.. النظـرة التي تحمـل المعنى الأكثر وضـوحًا في التـاريخ: "أنـه تنتظـرك ليلـة حالكـة السـواد عنـد عودتنا إلى المنزل"!!!

طال انتظارنا للطعام.. وبدأت معدتي تقرع طبول الانهزام والجوع.. منعم استلقى نائمًا على الأرض بجانب أمي، وجازمينا تتثاءب طلبًا لنومٍ عميق بعد أن تجاوزت الساعة الثامنة ولم تحصل على قيلولتها المعتادة.. أبي أظهر علامات الضجر على وجهه من جراء حديث مندوب العمل الذي بات الاستماع إلى كلماته دربًا من السخف.. ففي الحقيقة لم نأتِ لنسمع أشعارًا وبطولات عنك أيها البدوي ذو اللهجة الغريبة.. لكن مهلًا.. أشم رائحة ما!!!.. بعد طرق باب الغرفة ثلاث طرقات مهذبة فتحنا للطارق لتتابع صواني الطعام الكبيرة الدخول الواحدة تلو الأخرى.. أرى ألوانًا تريح الأعين، ما بين البرتقالي، الأبيض، الأحمر، الأخضر وأشياء تبشر بالخير.. تنبَّه الجميع واستيقظ النائم من نومه، وبدأت الحفلة. هممت باستطلاع الأطباق، ويا حبذا لو نبدأ باللحم.. لحم ال.. "ماذا؟؟؟!!!!!!!!!!!".. صعقت عندما علمت أن الحلة الكبيرة تلك تحتوي على حيوان يدعى "الضب".. لم أسترح إلى الاسم في البداية، لكني قررت أن أنظر بالداخل لأجد شيئًا يشبه الديناصور وله جلد قاسٍ مجعد كالتمساح، وذيل ببنية خاصة كما لو كان ترسًا حديديًّا منفصلًا عن تكوينه الجسدي.. يا ويلي!!!.. أيتوقع منا تناول هذا المخلوق؟؟!!، لم أتمالك نفسي من المفاجأة؛ فصرخت كفتاة صغيرة رأت صرصورًا طائرًا.. حتى إن جازمينا لم تصرخ هكذا من قبل، بل ظلت صامتة!!.. منعم كان صغيرًا بما يكفي ليمد يديه الصغيرتين إلى الحلة الألومنيوم الكبيرة المليئة بقطع حيوانات الضب المقيتة تلك والإمساك بقطعة ثم همَّ بتناولها ببراءة طفل في الرابعة من العمر.. لم يوقفه سوى أمي تضربه على يده وتأمره

بترك قطعة الضب وتصرخ "ولد..!!!! إرمي البتاع ده!!!".. بالطبع لم يفهم، وها هي أمي قد ضغطت على زر سارينة المطافي البشرية وبدأ بالبكـــــــاء الممـــــــــزوج بصـــــــــراخ مـــــــــزعج: "ااااااااااهههههههعععععاااااااااااااعععععععععععععهههههه"

-الله يقرفك يابو سلطان!!.. انت عايز تموتنا؟؟!!
-إييش فييكم دكتور؟؟! هاذي أول مرة بتشوفون "ظَب"
-زَب اييييه بس وخرة اييييه؟؟؟ يا أخي يعني انت أول مرة تعزمنا تأكلنا البتاع ده؟؟!
-والله طعمه يجنن، أجوول لا تظلمنا الله يرحم والدينك يا دكتور.. أنت تَوك ما حاطيته في خشمك.. تري هاذي ظبان بنصطادها "إسبيشيال"، للغالين
-يااا عم زباان اييه بس وبتااع اييه.. .بأقوللك اييه.. على جثتي ما هانحطها في خشمنا ولا بوقنا.. ناقص تحطلها رز بقي وتقوللي : "ديه كبسة زِبَّان؟؟!
-اييه هاذي فعلا اسمها "كبسة ظِبَّان".. وبعدين ويش فيك تجول "زبان"؟؟!، هاد اسمه "ظب".. وجمعها "ظبان".. ليش تنطقون "الظاظ" "زاز" ؟؟!!
-يا عم سلطان هي اسمها "ضاض" أصلًا.. يا رااجل كفاية بقي"بوزتولنا" اللغة بتاعتنا!!
-يا دكتور.. أنتم عندكم تنطقون "الظاااظ" : "ظااظ".. حنا عندنا ننطق "الظااظ": "ظاااظ".. فهمت عليا؟؟؟!

- يخربيــت ســنيينك..!!!.. بأقوللــك ايــه يــابو ســلطان، ماحــدش هايــدووق الــززز.. الظظـظ.. الضــبااان ديــه أبــداااا.. شــوفلك صرفة، يـا إمـا اتفضـل مشـكورًا رجَّعنـا منين مـا أخـدتنا ويـا سـيدي اعتبرها في بيتها ومتشكرين!!

يبـدوا أن لسـان هـذا البـدوي تحـور مـع مـرور الوقـت فلـم تعـد لحـرف "الضـاض" نكهتـه الخاصـة عنـد أؤلئـك القـوم.بعـد مناوشـات دامـت لعشـر دقـائق لمحاولـة إقنـاع أبـويَّ مـن ناحيـة بالبقـاء وتـذوق الأطعمـة الشـعبية، ومحاولـة إقنـاع أبـويَّ للرجـل بتغييـر قائمـة الطعـام أو الرحيـل عـن هـذا المكـان.. اسـتقرا علـى تجنـب تلـك الديناصـورات المطبوخـة والنظـر إلى بـاقي الأطبـاق.كانـت السـمة المشـتركة في الأطبـاق الأخـرى هـي أن الـدقيق يشـكِّل المكـون الأسـاسي لهـا.. دقيـق ممـزوج بالمـاء كمـا فـي "المثريـة"، تلـك الأكلـة المعتمـدة بصـورة كبيـرة علـى الـدقيق والمـاء والسـمن والعسـل أو السـكر.. أو هنـاك دقيـق البـر ممـزوج بـدقيق الشـعير ودقيـق الـذرة وشـيء غريـب ذكـره الرجـل لأبـي يـدعى "مسـواط" وهـو يشـبه العصـا في الشـكل، وتلـك الأكلـة تسـمى "عصـيدة". سـألت أميـإذا كـان هنـاك شـيء بـه دجـاج أو لحـم-فتلـك الأشـياء التـي يتناولهـا البشـر الطبيعيـون-ليسـمعني الرجـل ويبتسـم مجيبًـا: "اااااااه، البـذر الصـغير يبغـي شـي؟؟!، أجـوول لا تخجـل مـن عمـو، وش تبغي؟".. أجابـت أمـي نيابـة عنـي بـأني أريـد شـيئًا بـه دجـاج أو لحـم مـن تلـك الأكـلات الغريبـةليجيب الرجـل أن هنـاك "هريسـة" ويوجـد منهـا دجـاج ولحـم ممـزوجين ببصـل وبهـارات خاصـة، وهنـاك

obeikan.com

"جريش" وهي قطع صدور الدجاج الصغيرة المخلية ممزوجة باللبن والبصل المفروم وتوابل أيضًا.بدت لي هاتان الأكلتان إلى حدٍّ مقبول شهيتين؛ ففي الواقع كانتا بالفعل كما لم أتذوق الدجاج واللحم من قبل، لكن التوابل كانت زائدة فلم أستطع المواصلة.. طلبت من أمي أن تكمل عنِّي، وإذ بي لم أنه كلمتي حتى لمحت طبقًا غريبًا بعيدًا يقطن آخر المائدة،الطبق يحوي أشياءً تشبه المعكرونة على شكل "بيبيون" أو فراشة.. همست في أذن أمي وأنا أشير إلى الطبق بإصبع السبابة وأبي منهمك في الأحاديث مع مندوب العمل.. أحضرت أمي الطبق لنتفقده سويًّا.. حاولنا التعرُّف على ملامحه وتذوقنا بضع قطع من تلك المعكرونة بيبيونية الشكل.. الطعم لا بأس به، وكذلك التوابل واللحم المفروم من حوله.. أثارت الأكلة فضول أمي لتسأل أبو سلطان هذا عنها:

-أبو سلطان هي البتاعة ديه اسمها ايه؟

-إاايي.. هاااذي يا دكتورة اسمها: "مطازيز"..

-!!!!!! اييه؟؟!!

-مطازيز.

رد أبي عليه بثقة عالية ونبرة صوت واضحة:

-مطازييز؟؟؟!.. ولا "مطاظيييظ"؟؟!.. لأ اصحى معاياااا ده احنا نفهمها وهي طايرة.. أنا اتعلمت لغتكم خلاص يابو سلطان هههههه

-لاا يا دكتور.. هاذي المرة "مطازيز".. .بالظااظ.. قصدي بالظظظظ.. ظظ.. ظظززززاازز ظ!!

-!!!!!!!!.. .مافيش فايدة..

بينما كان الجميع منشغلًا،إذ بمنعم يمسك طبقًا من "العصيدة" وينهال عليه حتى اتسخت ثيابه وما حول فمه.. ولم يكد ينهي الطبق حتى أمسك ببطنه وصرخ باكيًا.. انتبه الجميع إليه وبدأت أمي بالبكاء لعل معدته الصغيرة لم تتحمل تلك "العصيدة" اللعينة.. أخذت تخرج الطعام من فمه وهو لا يزال يشعر بمغص شديد..

-أبي: اييه البتاع اللي كلها ديه يابو سلطان؟؟

-هاذي عصيدة يا دكتور.. الكلب الهندي ما سواها عالنار زين، ترى كل مرة ما بتتسوى زين تجيب مغص.. هاد جنس الهنادوة والبنجالة ما يدبرونها..

-بأقوللك إيييه.. .لحد كدة وكفاية.. يلا يا فاطمة يلا يا ولاد.. انت جايبنا تهزأنا يا عم سلطان؟؟ والواد هايموت مننا..

-طيب يا دكتور تبغي الأكل "تيكاواي"؟؟.. بأسويه الحين تيكاواي.

-بلا تيكاواي بلا خوجة دماغ بقي يا أخي.. من فضلك منين ما جبتنا رجعنا تاني ومتشكرين عاليوم الهايل ده!!!

-إايييي.. أجول مشينا مشينا..

ألا طوبى ل "طافحي الفول والطعمية" إذا كانت تلك هي الأكلات الشعبية لهذا البلد الغريب أهلها.. الويل لتلك المطازيز والعصيدة وكبسة حيوانات الضب.. تقيأت أنا ومنعم أكثر من أربع مرات من شباك السيارة الفارهة، تقيأنا أشياءً غريبة لا

Obeikan.com

تمتّ بصِلة لطعام، ولا أعلم إن كان ذلك بسبب معدتنا المصرية الركيكة، أم تلك الأطعمة التي لا يتحملها بشر.. لم ينطق الرجل ببنت شفة بعد ما جرى طوال الطريق حتى وصلنا إلى المنزل آناء الليل وآمالنا المحطمة نحملها على ظهورنا، فمن المفترض أن اليوم "عزومة".. تحولت إلى كارثة وجريمة في حق بطوننا. تنفسنا الصعداء فور إغلاق باب الشقة وانطلاق كلٌّ من أخي وأبي إلى الحمَّام لإفراغ ماتبقى بعد القيء في أمعائهما الغليظة من قاذورات الضب والعصيدة.. تلك إحدى مزايا أن تمتلك حمامين بالمنزل!. همَّت أمي إلى الفراش وجازمينا كانت قد سقطت مغشيًا عليها من النعاس في السيارة، بينما أنا ومنعم وأبي احتسينا ثلاثتنا مشروبًا غازيًا حتى أنهينا زجاجة 3 ليتر بلاستيكية نهمناها نهمًا كالمجانين.. وصار التجشؤ وإخراج الريح من جراء تلك الوجبة الغريبة هو سيد الموقف!أدخلنا أبي إلى السرير للنوم فغطَّ منعم في نوم عميق، بينما لا يزال عقلي منشغلًا بالسؤال عن معنى كلمة "مهيب الركن"

-بابا هو يعنيإيه مهيب الركن؟؟ انت قولتلي لما نروَّح هاقوللك.

-مممم.. مش هاخلص منك يا زنان..

-أيوة مش هاتخلص هههههه

-مهيب الركن ديه يعني.. حاجة زي كداا.. حاجة زي فخيم الطول.. زي عريض المنكبين.. أو، عظيم الكتف.. يعني، الحاجات العريقة ديه.

-!!!!!.. .يعني؟؟؟

-مممممم.. يعني شخصية كدة ليها هيبة وطلة.. تعرف.. فيه أسطورة بتقول إن ده لقب بيلقب بيه الشخص اللي بتتوافر فيه الصفات ديه، زي عندهم هنا "الملك عبد العزيز" الله يرحمه.

-ده كان مهيب الركن؟؟

-ده كان يعتبر مهيب ركن أه.. كريم وجينتل مان، محترم، كان شخصيته قوية جدااا والناس كلها اللي اتعاملت معاه احترمته بلا منازع.. الأسطورة بتقول إن لقب "مهيب الركن" ده هو أعلى صفة ممكن يمدحوا بيها حد هنا.

-أهااا.. يعني مهيب الركن عندهم زي "برنس الليالي" عندنا كدة؟؟ ها؟؟؟

-ههههههههه.. حاجة زي كدة يا عطوة.

انصرف أبي بعد ترك قبلة دافئة على جبيني وتركني في خيالاتي عن تلك الأسطورة التي أبقتني مستيقظًا حتى غرقت سهوا في النوم.. ولازلت أحلم بهذه الصفة والدرجة المرموقة.. ."مهيب الركن".

obeikan.com

(6)

"عععععععععععاااااااااااااااااااااااااااعععععععععااااااااا"......

اعتدت الاستيقاظ على صوت جهاز التبريد المزعج حتى صارت أذناي الصغيرتين تستأنسان وجوده قبل النوم كما يستأنس الناس تغريد العصافير صباحًا.. إذ لم تعد المروحة بالسقف تسعفني في هذا الحر الحارق. خرجت من الغرفة كالعادة أسعى للغطس تحت مياه الدوش الساخنة كالمهل؛ فبعد أن علمت بسبب سخونة المياه هنا وهو أنها تُخزَّن في خزانات معدنية تتخذ حرارتها بحسب الجو المحيط، استسلمت للواقع.. صرت كمحاربي الشاولين الذين عليهم تخطي اختبار "الماء الساخن" للنجاح بجدارة في التخرُّج من المعهد.. هكذا تخيلت نفسي وحاولت إقناع عقلي لكي أتحمل حرارة المياه.خرجت من الحمَّام وتاركًا صهدي وبخاري بالداخل باحثًا عن شيء جديد أحاول فعله في تلك البلدة المريبة.. أبحث عن طعام أكثر إقناعًا أتناوله، لا أجد سوى حبَّات من الخبز الصامولي الذي اعتدت تسميته "فينو" من قبل. فتحت التلفاز لعلي أجد شيئًا مختلفًا غير "موكا موكا" و"عدنان ولينا" فلم أجد سوى إذاعة القرآن الكريم.. الكل نائم وأنا وحدي أجول أرجاء الشقة الشاسعة، لا أعلم ما الفائدة من الاستيقاظ باكرًا بلا هوية أو عمل أو خروج من المنزل. استيقظ والدي متعبًا بعض الشيء، يمشي بساقٍ ويجرّ أخرى حاملًا جسده الممتلئ قليلًا استعدادًا

لطقوس العمل اليومية.. لا بأس، سأدعه في سلام هو وأمي حتى يذهبا. وقفت أنظر من أحد شبابيك المنزل لعلّي ألحظ مشهدًا مثيرًا كما عهدت في مصر.. لم أجد شيئًا.. لا كائن على الإطلاق يتحرك في تلك الصحراء الجرداء في أجوائها التي تشبه مدن الأفلام الكارتونية في تنظيمها ونظافتها الخيالية، لا أزال غير مصدِّق أننا لسنا في مصر، وأننا انتقلنا إلى بقعة جديدة من هذا الكوكب.

-يلا يا فاطمة مش عايزين نتأخر عشان لسا هاعدي على أبو سلطان نجيب التحاليل الأول.

-حاضر.. حاضر.. خمس دقايق أهو.

-انتي بقالك نص ساعة يا حبيبتي.. عايز ألحق الراجل.

-منا قايلالك من نص ساعة حاضر.. هي الدنيا هاتطير يعني؟؟

"بيييييب.. بي بيب ببغغغيييب"

كان هذا "كالاكس" سيارة العمل اليومي التي تصطحبهما، وقد اعتدت سماع تلك النغمة السرية تحديدًا في حالات التأخُّر الشديدة عندما يريد "سينجر" -السائق الهندي برتقالي الشعر-أن يخبر والدي أنه تأخَّر ويجب أن يسرع.

-يا فاطمة يللاااا.. انتي مش سامعة الكالاكس؟؟!

-حاااضر.. حااضر.. أغنيهااا طيب؟؟ حاااضر.. حاااضر.. حااضر!!!

-(والدي متمتمًا): يحضّرلك الخير!!

obeikan.com

تركني كلاهما بعد تلقيني "الوصايا العشر المعتادة" وبعد أن أغلقا الباب من الخارج بالمفتاح وتركاني أنا ومنعم وجازمينا كالسجناء بالداخل في عالم مليء بالملل حتى الموت.مرت أربع ساعات على رحيلهما، ولا شيء يُذكَر يمكن أن أكون فعلته سوى الجلوس في غرفة المعيشة سارحًا في خيالاتي وصوت التلفاز في الغرفة المجاورة عاليًا يؤنسني، أو لربما سمعت إذاعة القرآن الكريم تنتهي وبرنامج "صباح الخير يا مملكة" المشابه لـ"صباح الخير يا مصر" لدينا ينتهي وأجدهم يعرضون فيلمًا هنديًّا بمناسبة السبت. استيقظ أخواي وتناولنا ما وجدناه من طعام ومن ثم انتشر كلٌّ منا يبحث عن شيء يلهيه لكسر هذا الروتين السيء.لا أعلم إن كان ما فعلتُه يعبِّر عن جنون أو جانب شاذ بداخلي أم لا.. لكن كان عليَّ قتل الفراغ وقتها بشيء من الخيال.. خيال طفل صغير جامح. دخلت غرفة أبي وأمي باحثًا عن أي شيء يلهيني.. نظرت إلى التسريحة الكبيرة وإذ بمجموعة فُرَش شعر وأمشاط بسائر الأحجام والأشكال والألوان.. لا أعلم ما كان يدور بذهني في تلك اللحظة، ولكن تخيلوا وجودكم في منزل طويل واسع ولا ألعاب لديكم أو أي من وسائل الترفيه.

أخذت أقلِّب في فرش الشعر والأمشاط وتناولت منها ما أريد وما يناسبني من أحجام وأشكال.. خرجت من الغرفة وجلست على الأرض أتخيل ماذا لو كانت تلك الأدوات هي ألعاب، وفي الحقيقة ف ان خيالي الجامح كطفل أعطاني تخيل أن تلك الفرش والأمشاط كأنها رجال بقدم واحدة.. فجعلت الفرشة الكبير هي

obeikan.com

"الوحش المفترس"، والفرش الصغيرة هي سكان ضعفاء أُحتُلَّت أراضيهم ويعملون بالسخرة.. أما البطل الأسطوري الذي سيخلّصهم من هذا العذاب والاحتلال فهو مشط كانت أمي تعتز به كثيرًا.. مشط بشكل عجيب وبه مرآة في ظهره.. قد لا يعتبر مشطًا، بل فرشة شعر ذات مرآة في الظهر، ويمكنك ثنيها لتصغير حجمها!.. ياا ويلي، تلك بالفعل تشبه الألعاب.. ولكي أُدخِل عامل التشويق- فبالطبع الأبطال الأسطوريين يحتاجون إلى مركبات فضائية- استعنت بأحذية والديالجلدية المدببة من الأمام (وجعلت تلك هي مركبات الأشرار الفضائية)، أما صنادل جازمينا فهي مركبات عصرية لأنها مفتوحة على مصراعيها من الجوانب فتلك للجنود.. أما عامة الشعب (الفرش والأمشاط الصغيرة) فأولئك يركبون "الشباشب". أخذت أسرح بعالمي من الألعاب المصطنعة وأقلد أصوات الوحوش والأبطال في مسلسلات الكرتون التي أعرفها.. رسمت الكثير من السيناريوهات قتلًا للوقت ومحاولًا إيجاد بديل للملل، حتى انضم إليَّأخواي بعد أن فقدا الأمل في إيجاد البديل (فحلقات كرتون موكا موكا قد انتهت، ولم تعرض القناة شيئًا بعدها!).

مرَّ الوقت كالبرق.. عاد أبواي من العمل وقد سمعت صوتهما من الخارج يتناقشان في أمرٍ ما بخصوص تحاليل.اتكأ أبي على الكنبة الكبيرة بغرفة المعيشة ووجهه مظلم بعض الشيء كأنه للتو قد علم بأخبار عكَّرَت صفو يومه. اقتربت أمي منه تناوله كوب ماء بارد وتحاول تهدئته:

-معلشي يا حبيبي.. ماهو كدة كدة كانوا هايعملوا التحاليل.. أديك عرفت بدري أحسن

-أيوة بس.. إزااي؟؟!!.. أنا ماكنتش حاسس بحاجة.. يعني.. فجأة كدةمن غير مقدمات؟؟!

-ما انت عارف ان السكر مرض عصبي يا دكتور.. وانت كفاية اللي جرالك ده يهد جبل يا غازي.

-أنا عارف إن السكر زيه زي الأنفلونزا دلوقتي.. مرض العصر(ضحكة ساخرة).. بس ماكنتش متخيل اني ممكن أجرَّبه في يوم!!

-ماعلشي يا حبيبي.. قدَّر ولطف، والحمد لله ان برده احنا عرفنا بدري.

-500؟؟!.. 500 كتيير أوي يا فاطمة!!.. هو انا كان إيه اللي جرالي عشان كل ده؟؟!

-(بنظرة استنكار من أمي): !!!!!!.. لاا خاالص..!!!

بعد أن هدأ أبي ودخل غرفة النوم ليرتاح قليلًا.. نظرتُ إلى أمي ولا أدري ما إذا كان هذا المرض خطيرًا أم لا.. لكن يبدو من دهشته أن الوضع خطير!!.. أهو كالسرطاان؟؟!.. أهذا يعني أن أبي قد يموت؟؟!.. هكذا سألت أمي لتصرخ في وجهي "فاال الله ولا فالك يا أخي.. انت بتجيب الكلام ده منيين؟؟"

-أنا سمعت كل حاجة.. ومن فضلك ماتعاملينيش على إني صغير.

-هههههههه،ايه اللي انت بتقوله ده ؟ هههههههه..

-أنا سمعت كل حاجة.. هو بابا كويس؟؟

-يا حبيبي دوول شوية تعب بس وخلاص هايروحوا مع الدوا.

-انتي بتضحكي عليا.. أنا سمعت بابا بيقول "ازاااي، لييه كدة"

-طيب بما إنك سمعت كل حاجة.. ماسمعتهوش وهو بيقول: "بقى عامل زي الأنفلونزة؟؟!".. يعني زي شوية برد وهايروحوا لحالهم.

-.. !!!!!

-بأقوللك اييه.. أنا داخلة أنام شوية عشان أقوم أعملوكوا الأكل.. مش انت بتحب السمك؟؟.. النهارده فيه سمك ورز أحمر.

-طيب.. !!

ودعتني أمي بقُبلة على خدي الأيمنلكني لم أقتنع بكلامها.أعلم أنكما تخفيان سرًّا عنِّي، وسأعرفه عمَّا قريب.. فإذا كنت أريد أن أنال لقب "مهيب الركن".. عليَّ أن أكون أكثر حرصا ودقة في اكتساب المعلومات.. لكن حتى أعرف ما الأمر.. عليَّ ألا أزعج أبي بعد اليوم، عليَّ أن أكون خفيف الظل وقليل الطلبات.. عليَّ ألا أغضبه لكيلا أزيد من حالة المرض الخبيث حتى أكتشف الحقيقة.. مسكين أبي، يحاول أن يخفي علينا أنا وأخواي، لكني سأتعامل كأني لا أعرف شيئًا وأتوخي الحذر.

ما هذه الحياة المملة.. أنهي مللًا لأدخل في آخر، ولا شيء جديد هنا. تمر الأيام ولا أستطيع تفريق سوى يوم الجمعة منها.. أصبحت أنتظره بفارغ الصبر فهو ملاذي الوحيد للخروج من هذا السجن الفسيح.انتهت حلقات "موكا موكا" و"عدنان ولينا" و"السنافر".. ولكن هناك شيئًا آخر على وشك أن ينتهي أيضًا.. الإجازة الصيفية.

كيف نسيت أني لا أزال طالبًا، وأنه عليَّ الذهاب إلى المدرسة.. ها قد وجدت المنفس الوحيد لي في تلك البقعة الساخنة من الأرض. بعد أن أنهينا وجبة السمك الفيليه المقلي المفضلة لدي لم أتوقف عن سؤال أبويَّ عن وضعي الدراسي الجديد.. أين سأذهب؟ ومانوع المدرسة؟؟.. أستكون مصرية أم سأدرس في مدرسة سعودية ومدرسون خليجيون ينطقون حرف "الضاد" "ظاظ"؟؟!.. لم أجد سوى إجابة عامة بأنها مدرسة مصرية.. على كل حال، لن يشكِّل ذلك فارقًا ففي النهاية سأخرج أخيرًا.

Obeikan.com

(7)

"إنَّ في خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ واختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأولي الألباب الَّذين يَذْكُرونَ الله قياماً وقعوداً وعلي جُنوبهم ويتفكَّرونَ في خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ربَّنا ما خلَقْت هذا باطلاً سبحانَك فَقِنَا عذابَ النَّار

على إذاعة القرآن الكريم،استيقظت من نومٍ شِبه عميق، الخمول يسري في أنحاء جسدي، رائحة فمي كريهة ولعابي لايزال رطبًا على الوسادة ذات الرسوم الإلكرتونية.. استيقظت بالإكراه استعدادًا لليوم الأول في المدرسة الجديدة. كنت قد بدأت التعود على حياة الإجازة.. لكن لا شيء يظل على حالة وهذا اليوم كان آتيًا لا محالة. دومًا وأبدًا كرهت اليوم الأول في المدرسة.. لكن الآن مستوى كرهي تعدَّى كل الخطوط الحمراء؛ فتلك مدرسة جديدة بتجربة جديدة.. عليَّ أن أعتاد المفاجآت في تلك البلدة. لم أكد أنهي إفطاري حتى سمعت صوت "الميكروباص" يصرخ في عجالة لأخذي إلى مملكتي الجديدة حيث سأضطر إلى خلق هيبة ونفوذ آخرين كما كنت في المدرسة القديمة.

أخذني أبي إلى الخارج ليوصي السائق عليَّ -يلقنه الوصايا العشر المعتادة-والتي لم يسلم منها هو الآخر فيطمئنه "إطمن يا دكتور في عينيا" ثم أغلق الباب وبدأ حفل التعارف.. التعارف على أول ثلاثة طلاب مصريين بالغربة.

-تاخد "شيكليس"؟؟!

-لا أنا لسا فاطر.. !

-يا عم خود بس ده بالنعناع.. حلو.. حلو

المبادرة الأولى كانت من "فرج".. الولد الأسمر من النوبة.. لا أدري لِم أحسست بألفة غريبة فور رؤيتي لابتسامته البيضاء وسط محيط من ظلمة وجهه، قد يكون السبب في أن ملامحه قريبة من ملامح "سيد" بعض الشيء.. أم أن السبب الحقيقي في إسمه الثقيل على مسامعي!.. لا أدري ما بال آبائنا يطلقون علينا أسماءً تلتصق بنا صفاتها حتى نشيب.. فرج وعبد المعطي.. اسمان أكثر قبحًا من بعضهما، ثقيلان للغاية حتى إني لم أتخيل قَط طفلًا باسم فرج!!الوهلة تخيلت من له اسمٌ كـ"فرج" لم يُولَد كطفل، بل كرجل ناضج ثقيل الدم كثيف الحاجبين ضخم الجثة.

كانت المسافة بين المنزل والمدرسة الجديدة كافية لتفحُّص كل شيء، كل شخص، وسماع ثلاثة أشرطة لأغاني مصرية اعتاد السائق على استماعها ومن ثم اختتمها بقرآن كريم بصوت عبد الباسط.. الرجل لديه هاجس غريب، القرآن كان مسجَّلًا على أشرطة الكاسيت.. ففي نهاية كل شريط أغاني يبدأ مقطع من سورة البقرة حتى تنتهي السورة بانتهاء الأشرطة الثلاثة.. أيّ عقل مريض هذا؟؟.. يذكِّرني بمدرس التربية الدينية في مدرستي القديمة.. كل شيء ونقيضه!.قاربنا الوصول إلى المدرسة الجديدة بعد أن زاد عددنا في الميكروباص حتى تجاوز العشرين.. جميعهم مصريون مثلي، جميعهم يتحدثون بصوت عالٍ، ولايهتم أحدٌ بي

سـوى "فـرج" صـديقي الجديـد.اعتـدت خيبـة الأمـل المتكـررة منـذ أن وطـأت قـدماي تلـك الأرض المقدَّسـة، لكنـي لـم أتخيـل أنـي سـأجرِّب هـذا الشـعور مـرة أخـرى اليـوم.. فالمدرسـة التـي تخيلتهـا كمـا كـان في بلـدي الأم لـم أجـدها سـوى "فـيللا" كبيـرة بثلاثـة أدوار وفنـاء لـركن السـيارات دون حـوش مدرسـي أو ملعـب أخضـر!.. فقـط فـيللا عُلِّقَـت عليهـا لافتـة كبيـرة كُتِـبَ عليهـا: "مـدارس الجاليـة المصـرية التابعـة للسفارة".

انطلـق الجميـع مهـرولًا وأنـا أجـر أذيـال الخيبـة خلفـي متباطئًـا في مشـيتي أنظـر حـولي يمنـة ويسـرة لعلّـي أسـتوعب مـا أراه.. يلكزنـي فـرج في كتفي من الخلف حتى أستيقظ من دهشتي بسؤال له:

-هي ديه المدرسة؟؟!

-أه يا عم.. وحشة؟

-لا لاا.. أنا بسسس.. هي ديه مدرسة أصلًا؟!

-إيه يا عطوة انت مش شايف الأساتذة والفصول فوق أهي!!

-أه بس أنا حاسسها بيت.. مش مدرسة.. مافيش..

-مافيش حوش؟؟!.. ههههه، فيه واحد جوة.

انتظـرت بفـارغ الصـبر لعلّـي ظلمـت تلـك البنايـة الشـبيهة بإحـدى التجمعـات السـكنية التـي رأيتهـا في شـوارع تلـك المدينـة.. لكنـي كنـت مُحِقًّـا.. لـم تكـن سـوى بيـتٍ كبيـرٍ.. فـيللا كمـا شـهدتها مـن الخـارج.. فـيللا كبيـرة أو ربمـا اثنتـين متجـاورتين والملعـب الكبيـر الـذي كـان فـرج يقصـده مـاهو إلا المسـاحة المُسـتغَلَّة بالـداخل ومفروشـة بـبلاطٍ

أصفر باهت اللون.. لا طوابير مدرسية صباحية.. لا برامج إذاعية مملة.. لا شيء على الإطلاق، المدارس هنا فقدت احترامها وهيبتها. تعرَّفت إلى أصدقاء كُثر يومها، ولكني كنت أطوق أكثر لرؤية مدرِّسي تلك ال"فيللا".. لمحت أحدهم يحاول ملاطفة "ميس ناديا" مدرِّسة اللغة الإنجليزية الأكثر لطفًا على الإطلاق، وعندما فرت منه بحجة بدأ الحصة، بصق وراءها بغِلٍّ وأخفى تلك الجريمة الهلامية على الأرض بمسحها بحذائه الرياضي العجيب غير المتناسق مع ملابسه الرسمية ثم أكمل المشهد ببحثه عن شيء ما بداخل أنفه مستعينًا بإصبع الخنصر..

-يا أستاذ فاااادي.. ده عبد المعطي.. لسا جديد هنا .

اللعنة يا فرج، لا أريد التعرف عليه.. مدَّ الرجل يديه مرحِّبًا بي بالسلام.. لكني تذكرت أين كانت أصابع تلك اليد فزاد اشمئزازي محتفظًا بيدي في جيب البنطال وركضت إلى الفصل هربًا منه.

-فيه إيه يا عم عطوة؟؟ ده ميستر فادي ده أطيب واحد فيهم.

-يا عم بس معفن أوي، ده كان بينخور في مناخيره.. ييعععع!!!!

-بس بنته حاجة تانية.

-بنته؟!!

فتاة شديدة البياض، شديدة سواد العينين والشعر لم أرَ مثلها من قبل.. وكنت قد ظننت أن تلك البلدة كالسجن لا أمل لي فيها برؤية حورية كتلك.. الفتاة ذات الوجه الأبيض والعينين السوداوين تُذكِّرني دومًا بقطعة جبن وزيتونتين في أوسطها.. لو أني أملك رغيفا خبز ساخنين لألتهمتها!!!.. ها أنا أتحدث عن الطعام من

Obeikan.com

جديد!.انتهى اليوم سريعًا قبل أن يبدأ ولا أزال غير مقتنع بأن ما سأرتادها كل يوم هي مدرسة، بل كانت شبيهة بملاجئ الأيتام، حتى أكّد عليَّ فرج بأنهم هنا لا يطلقون عليها مدرسة.. فقط يصفونها ب "السفارة".. ذهبنا إلى السفارة.. عدنا من السفارة، نمتحن في السفارة.. وهكذا.. وفي الواقع لا يغيِّر ذلك من الأمر شيئًا، فلطالما كانت تلك الفرصة الوحيدة للخروج قليلا من سجن المنزل.. إذن، فلتكن السفارة.

أول يوم في أي شيء هو الأصعب.. لكن يبدو أني فقط من عانيت من تلك المشكلة. لا يبدو أن جازمينا ومنعم لاحظا فرقًا كبيرًا.. فمدارس البنات هنا قد يُخيَّل إليك أنها الأكثر أمانًا لابنتك.. مدارس البنات هنا "غير مختلطة"، فقط الكثير الكثير من الفتيات.. مدرِّسات فقط، مديرة أنثى، وكل القائمين كذلك، ولا يزال منعم صغيرًا، فقط حضانة أطفال بالقرب من المنزل كافية لطفل مثله.. لكن جازمينا استطاعت التأقلم بسرعة شديدة.. لم يمر سوى أسبوعين حتى انهالت علينا مكالمات هاتفية بأصوات إناث يسألن عن جازمينا.. زميلاتها وصديقاتها الجدد صرن جزءًا من واقعنا، وبالطبع "أنا رجل البيت في غياب أبويَّ".. لذا أنا فقط من عليَّ الرد على المهاتفات أولًا.. حتى سمعت إحداهن منذ أن رفعت السماعة تقول: "سلامعليكم..". لم أفهم شيئًا؛ فالكلمتان كانتا بسرعة البرق ملتحمتين، لكن لم تخني أذناي في أن هذا صوت فتاة.. صوت ثقيل بعض الشيء.

-سلامعليكم.. عطنا جازمينا..

-نعم؟؟!!..

-أجوول سلامعليكم عطنا جازمينا..

-أقولها مين؟؟!

-مممم.. أجول عطنا عطنا بس..

-عطنا إيييه حضرتك؟.. انتي ميين؟؟!

-خويتها..

-أيوة خويتها ديه يعني اسمك اييه؟؟

-أجوول عطنا جازمينا .. أنا رفيجتها..

-بعدين بقى.. أيوة رفيقتها إسمها ايه؟؟

-إيش فيييك انت ماتفهم؟؟؟.. عطنا جازمينا، خبرها انه صديجتها ..

-صديجتهاا ابيه ورفيجتهاا اييييييه؟؟!! إنت إسمك اييييه؟؟

استشعرت جازمينا أني لم أفهم بعد رفضهن التام لاطلاع شخص "مذكر" غريب عن أسمائهن.. اختطفت جازمينا سماعة الهاتف من يدي وحاولت أن تشرح لي أن الفتاة لم تكن ولن تعطينياسمها مهما حاولت، وأخبرتني أن اسمها "هنوف" لكي أطمئن..

-هنوووف؟؟!! ههههههههه.. هنووف يا هنووف.. هنووف ال"حلوووف" هههههه

-بس يا حمار هاتسمعك!!!!

-هي اللي اسمها غريب.. هنووف الحلووف هههه!!!

-بس بقااااااا.. والله لما ماما تيجي هاقولها انك بتشتم صاحبتي يا حمار.

لم تمنعني كلماتها المثيرة للتهديد من ترديدي اسم "هنوف الحلوف" كالمتخلف عقليًّا وأنا أركض في أرجاء الشقة وهي تركض ورائي حاملة "الصندل ذا الكعب العالي" الجديد الذي ابتاعته أمي لحضور حفل زفاف إحدى مرضاها غدا.. أهرع من غرفة إلى الأخرى وأحتمي خلف كراسي "الأنتريه" في غرفة الصالون-تلك الغرفة المقدسة-حتى ألقت بالصندل ذي الكعب العالي وتمنيت وقتها لو أن الزمن يعود بي فينغرز كعبه بجمجمتي بدلًا من غصابته لباب النيش الزجاجي بالغرفة وكسره للباب وبضع أكواب "مقدَّسة" لم تُستعمَل منذ فرح جدتي!!!.. اللعنة يا جازمينا أنتِ وتلك الهنووف نذير الشؤم.. جريمتان في يوم واحد، حيازة صندل جديد من علبته وكسرأحدمقتنيات الغرفة المحرمة.. .فليرحمني الرب!!!

(8)

-مش عارف هاعمل إيه يا فاطمة..

-ولا تشغل بالك، سبحان مين جابنا هنا وممكن يرجّعنا في أي وقت.

-بس مش وقته اننا نرجع.. ده أنا ماصدقت بعدنا.

-طب وبعدين يا حبيبي؟؟

-مضطر أوافقه..

-أيوة بس ده كده..

-عندك حل تاني؟!!

-.. ..

كلمات أخرى لم يستطع عقلي الصغير وقتها استيعاب تفاصيلها.. لكني منذ أن وطأت أقدامنا تلك الأرض وأنا أشعر بشيء من الضيق.. شيء ما يطلعني أننا دومًا في خطر.. دومًا معرَّضون لمنحنى قد يغيِّر ما بدأناه.. أعترف بأن تلك البلدة صحراء الجو والطباع والألوان والمشاعر هي أفضل بكثير من بلدتنا القديمة.. لكن شيئًا ما مفقود، ربما آثار إعلانات السياحة لاتزال ملتصقة بذهني، ولكني أيضًا أملك عينين وأذنين ولدي قلب ينبض ويشعر وحتمًا ألاحظ الفرق!.. بالطبع أعاني من الماء الساخن هنا بسبب الخزانات، ولكني على الأقل لم أشهد انقطاعًا للماء ولو مرة.. بالطبع الجو حار وبالكاد يمكن حتى لأعتى الحيوانات الضارية

openeikan.com

العيش بدون أجهزة مبردات وتكييف، لكني لم أعانِانقطاع الكهرباء ولو لمرة واحدة حتى قاربنا إتمام ثمانية أشهر هنا.. بالطبع أفتقد مدرستي القديمة، لكن لا مانع لدي من ارتياد مدرسة لا طابور صباحيًّا بها ولا حصص رياضية أو موسيقية-لم تكن كما كنا نبغاها على أي حال في مصر- ولا ملعب مدرسي مليء بالرمال والقمامة، حتى إذا افترضت أننا سننظفه كما كنا نفعل سابقًا؛ فتنظيف البلاط أهون من تنظيف الرمال وسط القاذورات.. سئمت المقارنة بين هنا وهناك، أريد العيش باستقرار حتى وإن كانت نصف حياة.. سئمت السؤال التقليدي الذي يصيبني بالغثيان من قِبَل أي غريب تعرفنا عليه منذ وصولنا: "هاا قوللي يا عطوة.. هنا أحسن ولا مصررررر؟؟!!" .. وما كان يصيبني بهذا الغثيان هو عدم مقدرتي في الحقيقة على إعطائهم إجابة حقيقية.. دومًا كانت إجاباتي ذات طابع حيادي يثير الشفقة : "و الله الاتنين حلوين.. مصر هي بلدي الأم.. والسعودية حلوة عشان مع بابا وماما".. كنت ولازلت هذا الشخص الذي لا يملك من الجرأة الاعتراف بالحقيقة كاملة منعًا للدخول في نقاشات لا أقوى على إحتواء نتائجها. اعتاد على الحياة هنا ببطء وسارت حالتي المزاجية سيئة.. تطبعت بطبع الصحراء هنا، أجواء جافة متحجرة بالرغم من غرق أهلها بملذات الترف والرفاهية.. الجفاء ليس في التعامل فقط، بل حتى صلة الأرحام قُطِعَت، فمنذ وصولنا هنا لم تحاول أمي ولو بالخطأ رفع سماعة الهاتف والسؤال عن إحدى صديقاتها القدامى، إحدى قريباتها، لا أتذكر حتى أن لدينا هاتفًا بالمنزل.. لم تعد لنا أدنى صلة ببشر قَط ممن عاشرناهم سابقًا.. حتى تقرر أمي

أننا بحاجة للعودة إلى وصل الأرحام التي لطالما قطعانها هي ووالدي بحجة فاتورة الهاتف الدولي المرتفعة.. لكن هيهات.. عندما يقرر "آل غازي" التوصُّل إلى حلول، تبدأ المراحل الإبداعية.

في إحدى ليالي الخميس استدعانا أبي إلى غرفة المعيشة بعد وجبة غداء أضعفت حواسي وأثقلت جفناي وقتلت عصافير بطني وهَمَّ بإطلاعنا على طريقة جديدة تمكننا من التواصل مع أقاربنا بمصر بأقل التكاليف.في البداية لم أفهم ماعلاقة "عمو منصور" ولماذا ذكرَ أبي نزوله إلى مصر بعد قرابة الخمسة أيام، لكن سرعان ما أضيئت شعلة الفهم برأسي حينما لاحظت وجود كاسيت تسجيل وشريط فارغ وميكروفون صغير.. أبي كان يحاول إقناع أمي بأن تلك الطريقة هي الأبسط والأقل سعرًا لإيصال التحيات والقبلات ومشاركة الأهل والأصدقاء ما عشناه وما مررنا به طوال ثمانية أشهر هنا.. وبالطبع تحمست أمي لتلك الفكرة، فما كان يمر يوم علينا إلا وقد اجتمعت العائلة بغرفة المعيشة لتسجيل شريط صوتي بكل أخبارنا وتحياتنا نرسلها لأحبائنا كما لو كنا نتحدث إليهم ونراهم رَأْيَ العين.. نتحدث عن أحوالنا ونسألهم عن أحوالهم، نجاريهم أحيانًا في الحديث ونصطنع الضحك تارة والبكاء والأنين تارة أخرى حتى تصلهم الأشرطة مسجلًا عليها كل شيء بتعابيره ومزاحه وألمه. شككت في سلامة القوى العقلية لأبويَّ فور سماعي لتلك الفكرة، وأحسست أن سخونة الجو هنا قد أثرت على عقليهما.. أي فكرة مجنونة تلك؟؟!.. تسجيل أشرطة كاسيت وإرسالها كخطاب ورقي أو حمام زاجل؟!!.. لم أعهد أبويَّ بخيليْ

الطبع أو المال قط، لكني تفاجأت وظللت أتفاجأ في كل مرة يقومان بتسجيل شريط كهذا.. وكانت أسوأ لحظاتي حينما تسلمني أمي الميكروفون قائلة "سلِّم على طنط مشيرة يا عطوة وقولها إزيك".. فأبتسم كمن تم دفعه إلى أعلى المسرح عنوة لإلقاء نكات ما أو محاولة استرضاء الجمهور كما يحدث بأفلام الكرتون.. أبتسم بسماجة وبصوت طفل مرغم على الحديث أتكلم وأسجل تحياتي:

"إزيك يا طنط عاملة إيه واحشانا جدًّا أخبارك إيه لا والله إيه ده بجد لأ خدي بالك من نفسك ومن العيال هههههه"..

كنت أرمي بالكلام ساخرًا من تلك الطريقة ولا أكمل ضحكتي حتى يقطعها "شبشب الحمام" المطاطي الذي يخص أمي؛ تعاتبني على استهتاري، وأننا هكذا أضعنا شريطاً، أو إذا أردنا المسح فقد يتم مسح كل شيء والعودة إلى البداية.. أعلم أني كنت طفلًا سمجًا، ولكني لست بغبي!سجلنا ما يقرب من عشرة أشرطة، تنوعت موضوعاتها مابين أحوال وصفات البلدة هنا وتحية الأقارب وأسئلة لهم بالمقابل على أمل أن يردنا مايقابلها من إجابات من مصر.. في الواقع، سأنتظر بفارغ الصبر مرور السنة تلو الأخرى وخيبة الأمل على وجوه أبويَّ بأن لا شيء سيعود بالمقابل، إذ كنت على قناعة لا أدري مما أتت أن تلك الطريقة الغريبة لا فائدة منها.

على صوت شيخ جليل يقرأ القرآن بالجامع القريب منا،استيقظت.. ولم ألبث أن أطفأت محرك السيارة الذياعتبرناه جهاز تكييف بغرفتي حتى تلاشى صوته المزعج وسمعت صوت آذان صلاة الجمعة من هذا الشيخ جميل الصوت، لطالما ذكَّرني بصوت

opelkan.com

تلاوة القرآن في برنامج يُعرَض على التلفاز السعودي السيء بعد الصلاة ينقل بثًّا مباشرًا من الكعبة.. الحسنة الوحيدة منذ وصولنا هنا.. فيما عدا ذلك لا شيء كان يناسب الأطفال في مثل سني. لم يكن كأي يوم جمعة سابق؛ فقد اعتدت على تقوس هذا اليوم بدءًا من الاستيقاظ في خمول والنزول رغمًا عني لأداء الصلاة والدعاء أن أقطع المسافة بين البيت والجامع سريعًا خشية أن أذوب في حر جهنم بالخارج بعيدًا عن أجهزة التكييف المركزي، وانتهاءً بالتبضع وشراء الحاجيات وحملها حتى تكاد تكسر ظهرينا أنا وأبي.. اليوم فقط.. استيقظت لأجد والدي مبتسمًا بشوشًا ينظر إليَّ كأنما قد أعدَّ لي مفاجأة من العيار الثقيل.. وأمي بجانبه تربت على كتفه مهنئة إياه على فعلته.

-يلا يا سي عطوة.. من هنا ورايح مافيش أكياس تقيلة ولا هايتقسم ضهرنا يا عم بعد الصلاة.

-.. مش فاهم ☺

في ضحكة متبادلة بين أمي وأبي ومن ثم ترد أمي "بابا جابلك عربية يا سيدي"

لم أصدق ما سمعته.. علت الفرحة عينيَّ وصرت أترنح يمينًا ويسارًا وأقفز كالمجنون.. لدينا سيارة.. لا مشقة بعد اليوم، لا أكياس ثقيلة أو حاوية مياه معدنية سأضطر إلى حملها أنا ووالدي.. الكثير والكثير من النزه والخروج سعيًا وراء أماكن جديدة وكسر حاجز الملل في تلك الشقة.. لكن مهلًا.. .لم أرتح قط لأي شيء هنا، بالطبع هناك أمر مريب في الموضوع، بالطبع سأفاجأ كالعادة.. ولأن حدسي قد تعلم ألا يأمن لأي شيء هنا منذ الكذبة الأولى التي

Obeikan.com

تلقيتها عن السعودية، عدت أدراجى أفكر في جزء من الثانية في كل كلمة قالها والدي "من هنا ورايح مافيش أكياس تقيلة ولا هايتقسم ضهرنا يا عم بعد الصلاة".. لماذا ذكرَ فقط أن تلك هي الفائدة الوحيدة للسيارة؟؟!، لماذا لم يتحدث عن التنزُّه والسفر وقضاء المشاوير، ثم لماذا تطلعني أمي "بابا جابلك عربية؟؟!" .. أهي لي أنا فقط؟؟ .. وقبل أن أكمل تحليلي الغريب أفقت على صوت أبي يسألني "مش عايز تشوفها ولا إيييه؟؟!".. في الأغلب عندما تُسأل سؤالًا كهذا يتبعه خروج من المنزل لتفقد السيارة، لكن أبياصطحبني إلى "المنور" الصغير بالبيت.. نعم، لقد كانت عربة.. عربة بحق، ولكن عربة أطفال رضع وردية اللون محمولة على أربع عجلات ومكابح من الخلف.. عربة يمكنها حمل رضيع أو اثنين بحنكة وذكاء ومهنية سيتم استغلالها كعربة لحمل البضائع كما في المولات الكبيرة، لكن.. تظل عربة أطفال "وردية اللون"!!.. اللعنة، كيف لي أن أتحمّل سماع المزيد من النكات الساخرة تخرج من أفواه الجيران والمصلين بالمسجد فور خروجنا ودخولنا من وإلى المنزلكل جمعة؟!. الجمعة تلو الأخرى تمر ولا تزال تلك العربة كوصمة عار أُلحقت بي.. إن كنت معاقبًا لأني سخرت منكما لأجل تسجيل الأشرطة فأنا آسف.. إن كنت معاقبًا لأنيشقي وأجلب لكما شتى أنواع المشكلات فأنا آسف، لكن إذا أردتم معاقبتي فليس عليكم إحراجي!!.. ذلك كان قاسيًا.. الجمعة تلو الأخرى وأنا أقلق من النزول وكأن تلك العربة كالندبة التصقت بإحدي ركبتى وظلت على شاكلتها.. أخشى أن أتفوه بكلمة أمام أصدقائي بال"سفارة" وإلا سأكون أضحوكتهم-و هذا في الواقع آخر ما كان ينقصني- وحمدت الله أن لا أحد منهم يقطن قريبًا منِّي فيلحظني فيأحدأيام

الجمعة بتلك التهمة.عربة الأطفال اللعينة يمكنك تغيير شكلها وضمها لتصير أصغر حجمًا وعليه يحملها والدي معه أينما ذهب للتبضع نهارًا يوم إجازته.. ولا أدري لِم يصر على اصطحابي معه بالرغم من أنه يمتلك ما يحمل عنه البضائع، أيتعمَّد إحراجي؟؟!!.. أقسم أني ألاحظ قسمات وجوه المارة من حولنا ما بين السخرية والتهكم وإلقاء النكات بطريقة غير مباشرة.. أحقًّا يلاحظ أبي ذلك ويتعمَّد تصنع اللامبالاة؟؟!، أم أنه لا يلاحظهم.. لأني في الحقيقة "أرى كل شيء واضحًا جليًّا".. أستطيع رؤيتهم جيدًا من دون أن يتفوهوا بكلمة.

-ماما هو بابا لازم يعني ياخد العربية ديه معاه؟؟
-مش عشان يريَّحك يا حبيبي؟! بدل ما تشيلوا وتحطوا.
-أنا عايز أشيل وأحط..
-إنت مكسوف يعني عشان لونها بناتي شوية؟
-يا ماما بقى الناس بتضحك علينا.. بأقول لبابا وهو يضحك ويقوللي مافيش حاجة
-.. ..
-و الله بيتريقوا ..
-يا حبيبي الناس بتتريق على أي حاجة.. ده حل مؤقت بس.

استشعرت أمي عدم اقتناعي بما تقوله فأفلتت مني وقتها بحجة "سينجر" سائق العمل الهندي الذي أهلك "كالاكس" الميكروباص من كثرة النقر عليه فودعتني أمي مسرعة ملقية قبلة طائرة في الهواء لي، بينما لا يزال أبي في الحمَّام. الشيء الوحيد الذي يبقيني هادئًا في حضرة أبي محاولًا امتصاص غضبي وتقبُّلي لكل شيء هو

مرضه بالسكري.. ذلك المرض الذي علمت به وهو لا يدري أني أعلم.. لا أريده أن يستشيط غضبًا فتزيد حالته سوءًا، أمي لا تخبرني الحقيقة كاملة.. لكني أحسست دومًا أنه كمرض خبيث وعليَّ ألا أستفز غضبه، فقررت أن أعمل في صمتٍ.. عليَّ أن أجد طريقة للتخلص من تلك العربة اللعينة.. إلى الأبد!.

لايزال الشك يراودني بشأن سلامة القوى العقلية لأبويَّ، فلاتزال أفعالهما تثير الريبة.. بالطبع لست بشخص كامل.. أدعي التعقل وأتعالى عليهما ظنًّا مني أني الأذكى، لكني لازلت أنتظر بفارغ الصبر نزولهما صباحًا وأعيد الكرة كل يوم.. أتوجه إلى غرفة أمي باحثًا في أدراج دولابها الخشبي الضخم عن فرش وأمشاط للشعر وأحذية والدي الجلدية والبدء من جديد في خلق عالمي الخاص بألعابي الخاصة.

سئمت من سيناريو الوحوش وأبطال النينجا فقررت اختراع سيناريو جديدًا، لكني بالطبع بحاجة إلى "وجوه جديدة".. وجوه أخرى بخلاف فرشة الشعر التي تشبه الإنسان الآلي ومراكب فضائية جديدة بدلًا من أحذية والدي ونعال أمي الجلدي الأنيق.. بحثت في مكتبة والدي الصغيرة لأجد بضع أقلام حبر جاف بألوان شتى، وكان من بينهم قلم ضخم بأكثر من أنبوب لون في آن واحد.. أحببته كثيرًا وبدأ خيالي في التحرر من جديد من قيود الزمان والمكان.على الموكيت الأخضر بغرفة المعيشة جلست والأقلام من حولي.. تخيلت الموكيت ملعبًا لكرة القدم والأقلام هي لاعبو كرة، لكني كنت بحاجة لكرة لإتمام المشهد.. استعنت بإحدى أغطية

زجاجات المياه البلاستيكية الفارغة لدينا وتخيلت لو أنها كرة.. وبدأ الحفل.

لماذا لايمكنني العيش كطفل "حقيقي"؟!!.. لطالما كان هذا سؤالًا لا إجابة عليه هنا، إذ سئمت إقناع والديَّ والتذلل لهما لاصطحابي إلى أسواق الألعاب قبل أن أتحول إلى معتوه حقيقي يتخذ من الأحذية والأشياء من حوله ألعابًا تؤنس وحدته. كان أربعاء غير اعتيادي هذه المرة؛ ففي لمح البصر ارتديت أنا ومنعم وجازمينا ملابسنا وعلى أحرّ من الجمر انتظرنا وصول أبي وأمي من العمل لاصطحابنا إلى"Toys r us".. محل الألعاب الأكثر شهرة على الإطلاق. سمعت عنه الكثير، إذ لم ينفك فرج عن محاولة إثارة استفزازي كل يوم في السفارة باستعراض ألعابه البلاستيكية وشخصيات دمى المصارعين باهظة الثمن التي كان يحضرها معه في كل يوم.. هو صديقي أعلم.. لكني للمرة الأولى تمنيت لو كنت أملك ربع ما يملك.. اليوم فقط يمكنني ذلك.استوقف أبي إحدى سيارات الأجرة التويوتا كامري الرائعة والتي كانت تذكِّرني بسيارات الأجرة ببلدي، لكنها تذكِّرني فقط بالفرق الشاسع بين كلتيهما ومن ثم بدأت الرحلة.

قاربت الساعة العاشرة مساءً حتى وصلنا إلى وجهتنا.. وسط ظلمة مطبقة ومساحة شاسعة من الصحراء والأرض البور يتواجد صرح عظيم مضيء بشتى ألوان البهجة كأنك على وشك الدخول إلى سيرك فخم.. أسمع ضحكات الأطفال وأهاليهم بالداخل، أسمعها جيدًا لأتحمَّس أنا وأخواي أكثر وأكثر لدخول هذا العالم.انطلقنا ركضًا إلى الداخل محاولين استكشاف عالم جديد قد يصيبنا

كأطفـال بالخلـل النفسـي عنـد الخـروج منـه.. على أرض مـن رخـام أبـيض كـالثلج خطـوت أولى خطـواتي، وبأصـفف مـن الألعـاب عـن يميـني ويسـاري حُوِّطـت.. أنـا لا أحلـم بالتأكيـد.. ألعـاب فـي كـل مكان،دراجـات بخاريـة حقيقيـة بمقـاس مناسـب للأطفـال ودراجـات أخـرى بأشـكال حيوانـات.. ألعـاب بلاسـتيكية بكـل شخصـية كرتونيـة يمكـن أن يفكِّـر بهـا عقلـك.. ثـم مـا هـذا؟؟.. شـيء يشـبه الدراجـة لكـن بهيئـة حـرف"L" حاولـت أن أمتطيـه ليطلعني أحـد العـاملين أن اسـمه "سـكوتر".. أردت ذلـك السـكوتر بشـدة فلـم أرَ مثلـه مـن قبـل.. بـل إني أردت كـل شـيء تقريبًـا.. أن تتعـرض لمثـل هـذا الموقـف كمـن هـو تائـه في صـحراء جـرداء ليجـد خيمـة بهـا مـا لـذَّ وطـاب مـن مرطبـات وغـذاء مجهـزة سـائغة لكـل مـن يقربهـا.. رفعـت بصـري لأعلـى حتى لاحظـت سـقفًـا مليئًـا بالألعـاب المعلَّقـة وطـائرات نفاثـة تطيـر ذهابًـا وإيابًـا بطـول السـقف، أضـواء بيضـاء ناصـعة كأننـا دخلنـا إلى مركبـة فضـائية.. عيـني لا تقـوى علـى اسـتيعاب كـل مـا يجـري حـولي مـن ضـحكات الأطفـال في كـل أرجـاء المحـل عظـيم الاتسـاع وصـراخ وبكـاء الـبعض الآخـر عنـد بوابـة الخـروج لـرفض أهـاليهم شـراء الألعـاب التياختاروها..

فكـرت لوهلـة بـأن ذلـك تصـرف قـاسٍ مـن الأهـل، لكـن بـالطبع أبـواي لـن يحرمـاني مـن شـيء فابتسـمت مـرة أخـرى.. كـل ذلـك.. كـل مـا أحسسـت بـه كـان في غضـون بضـع ثـوانٍ فقـط لـم أبـرح فيهـا مكـاني علـى بوابـة الـدخول.اسـتجمعت قـواي والتقطـت إحـدى العربـات الصـغيرة لجمـع الألعـاب-وكـأني كنـت سـأحظى بكـل مـا سـأختاره- إلا أن ذلـك لـم يمنعـني مـن المحاولـة، فربمـا أضـع والـداي في الأمـر الواقـع كمـا يقولـون وأجبرهمـا علـى شـراء الألعـاب منعًـا للإحـراج أمـام

صندوق المحاسبة.انطلق كل منا إلى جهة، أنا ومنعم إلى قسم ألعاب المحاربين البلاستيكية وأبواي وجازمينا إلى قسم ألعاب البنات.. ياله من قسم غبي مليء بترهات الفتيات الوردية وعرائس بملابس تثير اشمئزازي.. كيف يتحملن أنفسهن؟؟!!. ملأت العربة الصغيرة بكل ما لذَّ وطاب لعيني أنا ومنعم من شخصيات محاربي النينجا ودراجون بول وكل ماكنت أتخيله سابقًا بالأحذية وفرشاة الشعر، ولم أكن قد انتهيت حينسمعت صياح أبي ينادينا للرحيل.. تبًّا لم أهنأ بعد وأمتِّع نظري بتلك الجنة!!. بعربة مليئة بالألعاب وقفت أنا وأخي ولدينا من الشك ما يخبرنا أننا لن نحصل على تلك الألعاب، إذ على مدار ساعة واقفين بصفٍّ يجمع آباءنا وأمهات بأطفالهم لم نرَ عائلة واحدة سمحت لأبنائها بالاحتفاظ بكل ما أوتوا به.. إلى أن جاء دور العائلة أمامنا مباشرة، وقبل أن يأتي دورنا بدأت عملية "الفرز" لألعابنا ومايصلح للاقتناء وما سيتم إعادته إلى مكانه بالصف.. عربة مليئة عن آخرها بالألعاب تم فرزها إلى ثلاثة علب فقط بمعدَّل علبة لكل شخص منا أنا وإخوتي.. بدأ صراخ منعم وجازمينا بالتعالي كسارينة الإسعاف في شارع مزدحم ومن ثم صراخ باقي الأطفال من حولنا.. ثورة من الغضب والفوضى العارمة أصابت المكان، إن كان الآباء بتلك القسوة فلِمَ لم يأمرونا بترك الألعاب بالداخل منذ البداية؟؟ لِم تركتم لنا أملًا باقتنائها حتى تخبرونا الآن بإعادتها؟؟.. تذكرت كيف أن الآباء يتلذذون بأذية مشاعرنا دومًا؛ ظنًّا منهم أن هذا في صالحنا فجلست بزاوية ما أترقب الإزعاج من الأطفال حولي.. أترقب ثورتهم على إعادة الألعاب.. شيء ما بداخلي يثير اللذة وأنا أرى الأهالي يفقدون أعصابهم من جراء عواء أطفالهم.. "أحسن،

عشان تبطلوا رخامة".. حتى تأتي لحظة الحسم عندما تقرر إحدى الأمهات التكشير عن أنيابها وقرص ابنتها قَرصة جعلتها تصمت للأبد كاظمة دموعها بداخلها غالقة ثغرها كمن أطفئ محركه عمدًا، ومن ثم احتذت كل الأمهات حذوها.. حاولت التدخل بشيطانية لإعادة الفوضى للمكان ففوجئت بقرصة في مؤخرتي من يد أمي وأكاد أشعر بأظافرها الطويلة كسلطعون بحر:

-إتلم يا عطوة بدل ما ألمك..

-يا ماما بقي فييه إيييه؟؟ منا ملمووم أهووو.

-إتلم.. مش هاتكلم تاني..

-هو أنا عملت حاجة ؟؟!!

-الله ف سماه لو فكرت حتى تعمل.. إتلمم..!!!

بعد قرصة ال"سلطعون الناري" ونظرة "أبو الغضب" وضعت ألف حذاء بفمي ورضيت باللعبة الوحيدة التي حصلت عليها يومها.. شخصية جوكو من كرتون "دراجون بول Z" ومن جديد عدت إلى حيث أنتمي.. إلى شقة فارهة بموكيت أخضر أتخذ منه ملعبًا لكرة القدم لشخصياتي الخيالية، وتلفاز لا يعرض سوي قناتين أسوأ من بعضهما تاركًا خلفي يومًا من ألف يوم.. يوم من الجنة..

Opeikan.com

(9)

"اللهم أهدنا فيمن هديت.. وعافِنا فيمن عافيت.. وتولّنا فيمن توليت.. وتوفنا فيمن توفيت.. واقض اللهم عنا شر ما قضيت.. اللهم إنَّا نسألك علمًا نافعًا، وقلبًا خاشعًا، وشفاءً من كل داء، ونعوذ بك من علمٍ لا ينفع.. وقلب لا يخشع.."

أن تقضي أول رمضان لك بالسعودية فذلك أمر غير اعتيادي.. لكن أن تقضي "عمرة" بالليالي العشر الأخيرة.. فأنت هالك لا محالة!!.بعد قضاء قرابة العشرين يومًا الأولى من رمضان الأول لنا هنا، تقرر أمي فجأة أن نحتذي بفتوي شيخ "جليل" يعرض برنامجه على القناة الأولى هنا.. مضمون الفتوى بأن عمرة في الليالي العشر الأخيرة تعادل حِجّة.. تلك فرصة ثمينة يجب اقتناؤها على حد قول أمي، وعليه استمر صراع طويل طيلة أيام رمضان بين والديَّ على السفر إلى مكة.. مكة.. تلك الأرض الطاهرة التي سأتمكن من رؤيتها على أرض الواقع وتقبيل الحجر الأسود كما كنا نراهم في التلفاز والشرب والوضوء من ماء زمزم.. ها أنا قادم إليك يا مكة، فبالطبع نتيجة الصراع بين أبي وأمي محسومة لا محالة. بعد قضاء عشرين يومًا في هذا الحر القاتل صيامًا وثلاثة أيام من صلاة الجمعة الملتهبة-عوضًا عن تحمُّل المزيد من السخرية بشأن عربة الأطفال وردية اللون- حزمنا أمتعتنا للسفر إلى مكة.اثنتا عشرة ساعة في ال"سوبرجيت" الفاخر لا نفعل شيئًا سوى النوم والاستيقاظ ومن ثم النوم مرة أخرى والاستيقاظ وتغيير الجلسة

على المقعد.. ساعات تمر ولاشيء يمكنك النظر إليه من زجاج الحافلة سوى الرمال والصحراء الجرداء وبقايا منازل ونخيل متفرقة وبعض من الجبال.. لاشيء آخر سوى الكثيير الكثيير من الملل.. لكن كيف لي أن أملّ.. فكالعادة منعم وجازمينا معًا وأبي وأمي معًا، وأنا جالس برفقة غريب جديد.. هذه المرة كان رجلًا من الصعيد.. صعيدي "كما يقول الكتاب".. تذكَّرت وقتها رائحة عفنة نتنة يمكنها أن تؤذي أنفًا مصابة بأنفلونزا من شدة نفاذيتها، رائحة تشبه تلك التي كانت تنتج عندما تترك أمي أواني الطبخ بضعة أيام حتى تفوح منها رائحة العفن.. تذكرت تلك الرائحة فقط عندما تفوَّه الرجل الصعيدي بجانبي بأول كلمة من فمه ذي الأسنان الصفراء المائلة إلى اللون الأخضر كأنها طحالب نمت على سفينة.

-إنتا بجا إسمك إييه؟؟!

-عبد المعطي..

-إهييي!!.. عبد المعطي؟؟ لسا فيه حد عايسمي أسامي كيف ديه عااد؟؟!

-معلشي بقي..

حتى أهل الصعيد يتعجبون من اسمي وكأنه وصمة عار. حاولت مجاراة بلاعة المجاري التي يظنها هو "فمه"بالابتعاد قليلًا عنه عندما يتكلم فلم أستطع الإفلات من الرائحة الكريهة.. اللعنة على أصحاب الأفواه الكريهة، إذا كنت لا أتحمل بضع كلمات منه فكيف لوالدي أن يتحمل تلك المهنة!!. بعد بضع ساعات أُطفئ محرِّكه وغط في نومٍ عميق فاتحًا فاه لتستمر الرائحة النتنة

بالولوج إلى مسافات حوله أثارت اشمئزاز كل من يجلس حولنا، وما زاد الطين بلة تلك المسابقة الدينية التي أعلن عنها الرجل الجالس بجانب السائق قرابة أذان المغرب كنوع من الترفيه للصائمين بالحافلة وكسر الساعة المتبقية قبل الإفطار. لست من مشجعي المسابقات الدينية، لكني تحمست عندما رأيت جائزة "ساعة يدوية ضد الماء"، بدت لي كجائزة مُرضية من تلك الرحلة لتحملي الشخص الجالس بجانبي.. كان السؤال سهلًا للغاية "كم عدد سور القرآن الكريم؟".. أتلك سذاجة أن يسأل الرجل سؤالًا كهذا؟، أم أنه لتيسير الأمور على المعتمرين؟؟.. انتصبت واقفًا وبصوت جهور يعلوه الحماس رافعًا يدي اليمنى كما لو كان سؤالًا بمدرسة وألقيت بإجابتي مسرعًا :114 سورة.. صمت مطبق ساد أرجاء الحافلة، ومن ثم تبعه بضع ضحكات صفراء من الجالسين وصوت أمي تأمرني بالجلوس.. أجبت بصوت أعلى: "أنا عارف الإجابة.. مية وأربعتاشر سورة، والله عارفها"، لتلمذني أمي : "بس يا زفت أقعد ساكت!!".. أأجرمت بشيء ما؟، أم أن الإجابة كانت خاطئة واعتبروا أنه من الحرمانية الخطأ في عدّ سور القرآن. صفَّق لي الرجل ومن ثم تقدَّم إليَّ بابتسامة بيضاء هادئة تتوسط لحية عسلية اللون كثيفة تعدت طول رقبته القصيرة قائلًا: "برافو يالحبيب، ماشالله عليك حفظ الله والدينك.. وش اسمك؟"

-عبد المعطي.

-أجل من وينك يا عبودي؟؟

-من مصر.. ودول بابا وماما (و أشرت إلى والديَّ الجالسان أمامي).

-مبروك أنت ربحت معنا..

ولم يكد ينهي كلمته حتى تأهبت لاستلام الساعة المائية أخيرًا.

-ربحت معنا مصحف الجيب المرتَّل وأشرطة كاسيت لدروس قيمة، أسأل الله أن يوفقك يا عبودي

-.. .. ..

كانت آثار الصدمة تعلو وجهي طوال الرحلة؛ فأنا لا أريد الأشرطة الدينية "القيمة" ولا أرغب باقتناء مصحف صغير آخر؛ فمنزل مليء بالمصاحف التي علاها الغبار ولا يقترب منها أي شخص بالمنزل.. لا أريد سوى الساعة التي تعمل ضد الماء.. المسابقات اللعينة، لقد أجبت الإجابة الصحيحة.. "أريد الساعة"، "أريدهاا بشدة تبًا لكم".. !!!. بعد معانا مع جليسي الصعيدي وليل كحيل حولنا لا أدري كيف يميِّز السائق فيه الطريق وصوت القرآن الكريم الهادىء الذي هيَّأ لي جوًّا لم أعشه قَط وطريق غير ممهد للسير بعجلات الحافلة عليه، عدت إلى خيالاتي عن "مهيب الركن".. تلك الشخصية التي رسمها لي والدي في ليلة كتلك ولا تزال ملتصقة بعقلي حتى اليوم.. أسعى ليل نهار في تطبيق خواصها لكي أنال هذا اللقب الكريم وأحقق مرادي بأن أنال احترام الجميع هنا.. ربما في غضون ساعات سأكون بمحاذاة الكعبة ألمس حجرها الأسود الأسطوري بكفي الصغير وأتعطر بعطرها العتيق.. أرتوي من

مـاء زمـزم وأنــال شــربة لا أظمــأ بعــدها أبـدًا.. حتى توقفـت الحافلـة عند موقف ما للنزول وإرتداء ملابس الإحرام.

شـعور ببرودة الجـو مـن حولنـا والظـلام الـدامس تضـيئه أضـواء إنـارة مــابين ألــوان الأبــيض، الأخضــر والبرتقــالي.. صــوت باعــة الأحذيــة الجلديـة وقصـافات الأظـافر وماكينـات الحلاقـة مـن حولنـا لا حصـر لأعــدادهم، يتحــدثون بشــتى اللغــات.. نســاء جلســن يتســامرن عــن أحــوالهن كأنهــا نزهــة ليليــة في إحــدى الحــدائق، ووســط كــل هــذا رجـال تلفحـوا بأوشـحة بيضـاء تشـبه البشـكير الأبـيض لـدينا بـالمنزل.. أخرجـت أمي لي "بشـكيرًا" منهم لأرتديـه مـع والـدي وخُفًّـا مطاطيًّـا بـدلًا مـن الحذاء؛استـعدادا لمراسـم العمـرة. وقتهـا فقـط، علمـت أن سـفرنا إلى السـعودية لـم يضـع هبـاءً.. طقـوس ملائكيـة وأصـوات المعتمـرين حولنــا يُسَــبِّحون بتســابيح وأقاويــل تشــبه القــرآن زاد مــن حماســتي متناسـيًا مشـقة السـفر على طفـل صـغير بالحافلـة البريـة.بعـد تلـك الطقــوس وارتــداء لــبس الإحــرام عــدنا أدراجنــا إلى الحافلــة لإكمــال مـاتبقى مـن مسـافة ليسـت بطويلـة إلى الكعبـة.. تلـك المسـافة التي لـم أكـد أدركهـا بعـد السـقوط مغشـيًا عليَّ في نـومٍ عميـق حتى اسـتيقظت على صـوت زحـام السـيارات بشـارع ضـيق تحـيط بـه الأبنيـة الشـاهقة يمنـة ويسـرة ورجـل المسـابقات الجـالس بجانـب السـائق يقـول "عمـرة مقبولــة.. عمــرة مقبولــة إنشــالله.. حيــاكم الله، الحــين نبــي ناخــذكم للفنـدق بترتـاحون وتتركـون أغـراظكم وتسـوون المناسـك.. يلـلا مشـينا مشـينا".أفقـت قلـيلًا أحـاول اسـتيعاب أجـواء تلـك المدينـة الرائعـة والصـداع لا يفـارق رأسـيمن جـراء السـفر، نظـرت بجـانبي فلـم أجـد

"كريه الرائحة". لَم أتساءل كثيرًا ولم يكن يشكِّل وجوده من عدمه شيء سوى أنيارتحت منه.

وصلنا الفندق المنشود.. وبعد إفراغ الحقائب ترك والداي منعم وجازمينا بالفندق بعد التأكد من تلقينهما الوصايا العشر المعتادة وترك طعام كافٍ لكليهما ومن ثم أغلقا الباب من الخارج.. وانطلقنا.. واشتعلت همتي للمس الحجر الأسود الذي يشكّل أسطورة حقيقية كما أطلعني أبي، ف "مهيب الركن" الحقيقي هو شخص استطاع أن يلمس الحجر الأسود بكلتا يديه ويدعو دعوة واحدة من القلب فيستجيب له الله ومن ثم يشرب من ماء زمزم ويسود العالم بقوته وسلطانه، هكذا أخبرني أبي.. ياله من أمر بسيط، فقط كل ما عليَّ أن ألمس الحجر الأسود.. لمسة واحدة لا أعتقد أنها ستشكل مشكلة.

على الأسفلت المتعرج بعضه والمستوى بعضه الآخر مشينا مرتدين ملابس الإحرام أو "البشاكير" كما كنت أسميها آنذاك، لم أشعر للحظة واحدة أن تلك المدينة التي رأيت فيها جبالًا وتلالًا بجانب أبنية الفنادق العالية والأضواء البيضاء وأصوات السكان والمارة تتعالى بعددٍ ليس بهيّن من اللغات العربية والغير عربية أنها تشبه ولو بدرجة قليلة مدينة الرياض.. الجو كان معتدلًا للغاية وكلٌ منشغل بما لديه. الأضواء من حولي في طريقنا للكعبة وأصوات الناس حولنا يتمتمون "هاااا هاااا دااا مممم هممم" تشعرني بدوّار في رأسي.. كلمات لا معنى لها اختلطت فيها لغات العالم تقريبًا، وأشكال وألوان وأطياف من البشر كأني في حلم غريب وأنا أمشي

بينهم قصير القامة متشبثًا بيد أمي وأبي بجانبنا كأننا نواجه أمواجًا بشرية تصطدم بنا.. أصابع قدمي المسكينة لم تسلم من أقدام المارة وأنا أتألم وأمي تخبرني أننا نكاد نصل إلى وجهتنا. قاربنا على الكعبة ولم تخل بقعة واحدة من الباعة الجائلين ونساء سوداوات الوجوه تأكدت انهن من دول أفريقيا، جالسات وجليسات بأطفالهن يشحذون الطعام ويتسولون ما يمكنهم تسوُّله من مالٍ من المارة.. حتىإن امرأة كانت تحمل كيسًا بلاستيكيًّا أسود من الفواكه فطلبت إحدى النساء الأفارقة أن تعطيها منه، لم تستجب لها السيدة فإذ بها تنتزع الكيس بوحشية فتمزقه وتنقلب ما به من فاكهة على الأرض، يقوم الصغار بلملمتها ولا تستطيع السيدة أن تنطق ببنت شفة.. اللعنة!! كيف يحدث ذلك في الكعبة؟؟!. بعد هذا المشهد تشبثت بيد أمي أكثر خشية أن تنتزعني المرأة السوداء كما فعلت بكيس الفاكهة.

بعد قطع مسافة تقارب الربع ساعةن انتصف الليل علينا وقد بتنا في الحرم المكي.. المشهد المهيب الذي لطالما كانت صلتي الوحيدة به هي التلفاز وقت الآذان، ها أنا الآن في حضرته.. خالعًا الشبشب المطاطي الأبيض لتنعم قدماي الصغيرتان ببرودة الرخام الأبيض أسفلها.. أركض وأحاول الابتعاد بينما تجذبني أمي بقوة حتى لا أضيع دربي بين زحام المصلين وقرَّاء القرآن والمتجولين من حولنا.. ليتني كنت كبيرًا بما يكفي لأتخذ قراراتي آنذاك. كان علينا الإسراع والشروع في مناسك العمرة قبل آذان الفجر، فرغبة والديَّ كانت على مايبدو جامحة في إنهاء كل شيء قبل الآذان، على

أمل إنهاء المناسك بصلاة الفجر.. وعليه.. كنت مسحوبًا من يدي اليمنى حتى كاد ذراعي أن ينخلع، تم سحبي والركض بي بسرعة في هرولة من أبي وأمي والجميع من حولنا.. الجميع يركضون كالمجانين،لا مجال للإبطاء.. فجأة تغير كل شيء إلى الرتم السريع كمسلسل كرتوني تحاول فيه الشخصيات اللحاق بشيء ما.

-ماما أنا رجلي وجعتني.. انتوا بتجروا ليه كدة؟؟!

-معلشي يا حبيبي عشان نلحق نلف السبع لفات.

-السبع لفات؟؟

-أه.. هانلف حوالين الكعبة..

-يعني هانلمس الحجر الأسود؟؟

-أيوة أيوة، بس يارب نلحق..

لم أفهم ما تعنيه أمي ب "يارب نلحق"، أو بالأحرى لم يتقبَل عقلي سماع أي شيء آخر سوى أننا الآن سنرى الكعبة والحجر الأسود.. وكنت قد هيأت نفسي أرسم وأتخيل صورة للكعبة والفراغ من حولها وطريق ممهدة لي وحدي كأنها فاتحة ذراعيها لي "تعالى يا عطوة، تعالى يا حبيبي في حضني، تعالى في حضن حبيبتك".. من الغريب أن أتخيل صورة للكعبة لها عينان وذراعان وتبتسم لي مرتدية العباءة السوداء كما أراها دومًا في التلفاز وتطلب منّي أن أرتمي في أحضانها لتباركني وتحقق لي أمنياتي، لكن تلك الصورة هي ما أتت بعقلي.. الصورة التي سرعان ما تلاشت على الفور بمجرد أن رأيت الزحام الغفيرة حول الكعبة بأمتار ومسافات أذهلتني حتى كادت تفقدني الأمل بالوصول إلى الحجر الأسود.. بل

الوصـول إلى الكعبـة نفسـها!. لا تـزال عملية جَـرّي وسـحبي مـن ذراعي كشـوال أرز صـغير مسـتمرة، والكـل يصـطدم بـي كأنـه عــن عمـد، وكـأنني جئـت خصيصًـا ليصـطدموا بـي.. أو لعلهـا تحيـة أهـل المدينـة هنـا، ومهمـا حاولـت الصـراخ والبكـاء لإقنـاع أبـويَّ بقـدمي التـي تورمـت وإصـبعي الكبيـر الـذي سـال الـدم منـه مـن جـراء أعـداد لا حصـر لهـا مـن الأقـدام داسـت عليـه لـم يقتنـع والـداي، بـل لـم يعـلُ صـوتي صـوت التهليـل والـدعاء مـن حـولي، وصـوت القـرآن يطـرب أذنـيَّ، ولـم أتمكـن مـن الاسـتمتاع بـه.. تبًـا للكبـار، دومًـا وأبـدًا لـم يفهمونـا ولـن يفهمونـا. بعـد أن قضـينا ثـلاث لفـات حـول الكعبـة تعرقـت فـيهم حتـى فقـدت كـل قطـرة مـاء بجسـدي الصـغير، لـم أرَ الحجـر الأسـود.. وكنـت قـد فقـدت الأمـل بـذلك على أيـة حـال.. رأيـت العجـب في بضـع لفـات فحسـب.. كـوني قصـير القامـة أعطـاني مجـالًا لرؤيـة مـا لا عـين رأتـه مـن طـوال القامـة حـولي.. وكـان أغـرب تلـك الـرؤى رجـل قصـير القامـة مثلـي يتجـول وسـط الزحـام مسـتغلًا انشـغال النـاس بـالطواف والتكبيـر والـدعاء.. مسـتغلًا ذلـك ليخـرج مـن جيبـه آلـة حـادة تشـبه المقـص ومـن ثـم بهـدوء وسـرعة يقـوم بقطـع الحـزام الأبـيض حـول خصـر أحـد الرجـال الطـائفين.. لا أدري لِـم يفعـل ذلـك، لكنـه ذكَّرنـي ب"حرامـي الغسـيل" لـدينا في مصـر.. أي مـريض يسـرق أحزمـة مـن النـاس؟؟!!.. لكـن سـرعان مـا علمـت السـبب عنـدما صـرخ الرجـل المسـروق"حزامـي.. فلووسـي.. فلووسـي يانـااس.. الله ينـتقم مـنكم الله ينـتقم مـنكم".. وظـل ينظـر حولـه كـالمجنون في كـل إتجـاه حتـى تـرك الطـواف وتوجـه لأحـد رجـال الأمـن ليـروي لـه مـا حـدث. حاولـت إخبـار والـديَّ أنني رأيـت اللـص ويمكنني

تمييـزه، رأيتـه رؤي العـين ذاك المحتـال، لكـن بـلا جـدوى، فكلمـا حاولت الصراخ لا أحد يسمعني أو حتى يلتفت لي.. سامحني يا رب!.

تعـدى الأمـر مجـرد التعـرق ووصـل إلى ال"تسـلخات" التيفتكـت بـي حتى صـرت أمشـي كـالبطريق فـور إنهائنـا أخيرًا للسـبع لفـات حـول الكعبـة.. أنهيناهـا ونحـن بالكـاد نـرى قماشـها الأسـود عـن بُعـد، فلـم يجـرؤ أيٌّ مـن ثلاثتنـا علـى الاقتراب منهـا قَـط.. إمـا بسـبب الزحـام الشـديد أو صـفوف مـن الرجـال السـود يرتـدون ملابـس تشـبه ملابـس الحـج، ولكـن بـاللون البرتقـالي والأزرق.. لا أعلـم عـن مـاهيتهم ولكـنهم كـانوا كالبنيـان المرصـوص، كـل طـابور يتكـون مـن عـدد يتراوح مـابين الخمسـة إلـى العشـرة رجـال طـوال القامـة سـود البشـرة يمتلكـون أكتافـا وعظامـا عريضـة كـالوحوش، يتحـدثون بلغـات غريبـة بعضـها مضـحك والـبعض الآخـر مخيـف، يصـرخون بأدعيـة يحملونهـا بـين أيـديهم بكتيبـات صـغيرة وبصـوت واحـد جهـور يـرددون: "اهـايووي ووهـااي.. اهـاايوويوو يايـاا هـااعع" .. كلمـات لا أعلـم ماتعنيـه أو حتـى لا أدري ان كـان هـذا حقًّـا النطـق الصـحيح لهـا.. فقـط أذكـر أني ضـحكت مـرة واحـدة في اللفـة الأخيرة حـول الكعبـة وإذ بأحـدهم نظـر لي نظـرة كـأنني أهنتـه أو أهنـت عائلتـه فأختبـأت خلف أمي.. تبًّا لكم يا سود الوجوه يا وحوش!

-ماما هو إحنا كدة خلصنا؟؟!

-رد إنت بقي يا غازي أنا مش قادرة

-لسا يا عطوة، لسا فيه "الصفا والمروة"..

-إيه ده كمان؟؟! أنا تعبت أوي.. !!!

ولم ألبث أن تعجبت من ردّ أبي حتى تم جَرّي وسحبي من ذراعي من جديد إلى ساحة كالطريق الطويل مطلية برخام أبيض أيضًا ولها طريق ذهابًا وإيابًا وطريق بالمنتصف يسير عليه العجائز والقعيدون على كرسي بعجل.. كنا نطوف ذهابًا وإيابًا ولم أعد أهتم بالعد بعد ذلك، فقط استسلمت للجذب من ذراعي وأنا أركض كالبطريق من جراء التسلخات التي أشعلت لهيب لا ينطفئ بين فخذتيّ.. "ااااه.. ياربي لا أريد أن أكون مهيب ركن.. أريد فقط أن تزيل تلك التسلخات اللعينة". الصفا والمروة تلك كانت غير ثابتة، نمشي تارة وعندما نصل إلى نقطة معينة نهرول تارة أخرى.. وكانت تلك آخر مغامراتي والمرة الأخيرة التيأعتقد أنني سأذهب فيها إلى الكعبة ثانية. فجأة.. وبدون مقدمات.. توقف الكل.. نظرت من حولي، "ماذا يحدث؟؟!!".. وإذ بمنادٍ يقول بأن صلاة الفجر قاربت.. هنا فقط.. وأعني ذلك.. تحولت المراسم إلى دربٍ من الجنون، فالناس يركضون ويهرولون لقضاء ما تبقى لهم من طواف وإنهاء المناسك ومن ثم اللحاق بصلاة الفجر بقرب الكعبة كما سمعت من أمي.. لكن الصعوبة الحقيقية ليست في اللحاق بالأذان.. التحدي الحقيقي في أن تجد مكانًا مناسبًا تجلس فيه للصلاة.. هذا إن كنت محظوظًا ووجدت رقعة على بعد كيلو متر من الكعبة.

-يا بابا والله ما قادر، رجلي وجعاني..

-خلاص يا عطعوطة، هانت باقي لفة.. فين عطوة البطل

-مش قادر..

-أمال عايز تبقي مهيب الركن إزاي بقي؟؟!!

فور سماعي لكلمة السر تلك زاد اقتناعي أكثر بتلك الأسطورة.. "نعم، أنا مهيب الركن.. وسأكون على القدر الكافي من المسؤولية لأنال هذا الشرف". تناسيت تمامًا التسلخات البغيضة المؤلمة، تناسيت التعب والإرهاق، كأنني وُلِدت بطلًا من جديد، وتذكرت وقتها فقط أن الآلام ستزول بالراحة والاسترخاء، وأوجاع التسلخات يمكنني فيما بعد مداواتها ب"بدرة التلك".. هذا الترياق الخارق.. ولكن أن تنال لقبًا مرموقًا كمهيب الركن فذلك يتطلب التضحيات.أنهينا الجولات والمناسك أخيرًا وركضنا كالمجانين إلى آخر رقعة وجدناها ولا أعلم كيف لأبي الذي وُلِدَ مرتديًا نظارة أن رآها.. وما كدنا نجلس حتتلفتّ يمينًا ويسارًا لأشاهد هذا المنظر المهيب من الرجال باللون الأبيض والنساء بالعباءات السوداء والكل جالس بترقب للصلاة.. تلك أجواء لم أتخيل يومًا أن أشهدها، ولكني سرعان ما لفتَ عينيَّ شيءٌ ما.. شيء لمحته عن بُعدٍ.. شيء معدني كبير يعلوني في الطول ببضع أقدام،أها.. إنها آلة تبريد للمياه.. لكن تلك ليست أيآلة، تلك الآلة التي سألت أمي عنها قبل دخولنا فأجابتني بأنها "كولدير ماء زمزم".. يا ويلي.. ماء زمزم مبرَّدة ومثلجة ولا زحام حولها.. الكل مشغول بالدعاء وترتيل القرآن.. أعلم أن تلك قد تكون مغامرتي الأكبر، وأعلم أني سأدفع ثمنها غاليًا.. لكني لن أستسلم الآن.. لم أستطع لمس الحجر الأسود لكني لن أترك كولدير المياه ذاك يفلت من يدي.

انسللت من بين يدي أمي كالماء الذي يتسرب من القماش وقد أنهكها التعب هي وأبي وانطلقت أتنقل بين الناس ولا أرى أمامي

obeikan.com

سوى المبرد المعدني.. أقترب أكثر وأكثر وأتحرك بهدوء وسط أكوام من اللحم البشري كأنها حرب والكل ملقى من التعب، أصطدم بتلك وذاك وأتلقى السباب تارة واللعن تارة من نساء باللغة السعودية.. سمعت كلمة "إيش فيك يا بَذر" من كلهن أكثر من مائة مرة فور اصطدامي بمؤخرة إحداهن، وأنا لا ألتفت لهن، حتى سمعت صوت أمي تصرخ "الوااد فيييييين؟؟!!.. الواد فين يا غاااازي؟؟!!.. إبني.. إببني"، ترددت قليلًا لا أعلم لماذا.. ربما لأني لا أريد أن تقلق عليَّ أمي، أو ربما لأني أعلم علم اليقين أن يدها لو طالتني في تلك اللحظة ولو بعد حين سأتعرض للضرب المبرح كلِصٍّ هارب تم الإمساك به.. ولكن هيهات.. إن كنت سأتعرض للضرب، إذن فليستحق العناء.. تابعت المشي حتى رأتني أمي، لمحتني من ظهري فصرخت: "إبني أهوو.. حد يمسكه يا ناس.. يا عطوة.. تعالي يا حبيب ماما".. تبًّااا.. كان عليَّ الركض الآن، يحاول الكل الإمساك بي في حالة من الهرجلة والقلق ولا أزال أركض وأركض وأركض حتى تغيرت نغمة نداء أمي من الحنين إلى : "تعالى يا زفت ماتوجعشي قلبي.. يا قطرااان!!!".. "ماشي يا عطوة الكلب، ماشي".. يا ويلي، لقد وصلت لمرحلة "الوحش".. اقتربت أكثر فأكثر حتى لمست الكولدير المعدني بيدي، لا أحد حولي، لا زحام ولا ضغط على سحب مياه زمزم.. إنها الجنة بعينها.. فتحت الصنبوور ليتدفق زمزم البارد كما لو كان نهر الكوثر الذي أطلعتني جدتي عليه بدعائها لي: "ربنا يسقيك منه يا حبيبأنا وإنت، أنا وإنت من غير غازي".. مددت فمي لأنهل من تدفق الماء البارد وأروي عطش يوم كامل بعد تعب.. لا.. بل سأتحمم به حتى أتبلل وأبارك جسدي

obeikan.com

بـه.. وقبـل أن تلامـس ميـاه زمـزم طـرف لسـاني، إذ بصـوت آذان الفجـر يثقـب أذنـيَّ فيـرتعش جسـدي مـن الخضـة خشـية أن أفطـر وقـد أعلنـت رايـات الصـيام، فتوقفـت في ذهـول مـن الموقـف.. توقفـت عـن التفكير بـأي شـيء عـدا كـل الأوجـاع بجسـدي طـوال اليـوم، والعطـش الـذي غمرني حـد القتـل وحسـرتي على أنني قريـب جـدًّا مـن مـاء يـأتي إليـه النـاس مـن شـتى بقـاع الأرض وهـو الآن بـين يـديَّ بـارد سـائغ للشـاربين ولا يمكنني حتى تذوقـه.. أقـف لاعنًـا لليـوم الـذي فكـر فيـه والـدايإتمام العمـرة في صـيام رمضـان، وعلـى النقـيض تعلمـت لمـاذا قـد يجازينـا الله باحتسـاب عمـرة رمضـان ب "حَجَّـة".. تعلمـت الـدرس بالفعـل.. لكـن الـدرس الأعظـم والأكثر قيمـة-و هـو مـا تعلمتـه فـور أن تلقيـت صـفعة قويـة علـى رأسـي بحقيبـة يـد أمـي- هـو ألا أقـوم باسـتفزازها أبـدًا في موقـف كهـذا.. تلـك الصـفعة التي جعلـت رأسـي يـدور والعـالم مـن حـولي ينقلـب رأسًـا على عقـب فاقـدًا وعيي فلـم أسـمع مـن الكلمـات سـوى: "إسـتني بـس أمـا نـروح.. عاجبـك كـدة.. أدينا هانصلي بعيد كمان"

-خلاص يا فاطمة معلشي.. هو ماكنشي يقصد!!

-ماكانشي يقصد؟؟؟.. ليلته طيين النهاردة.. .. .حبيب ماما..

-!!!!!!!!!.. .

فتحـت عينيَّ على ظـلام يخترقـه ضـوء خافـت برتقـالي وأنـا ملقـى على سـرير طـري نـاعم، وأسـفل رأسـي وسـادة بيضـاء رائحتهـا كرائحـة المنظفـات.. تلفَّـت حـولي لأجـد منعمًـا وأبـي بجـانبي، وأمـي وجازمينـا علـى السـرير الآخـر، والكـل في سـبات عميـق كـالموتى.. تجولـت علـى

الموكيت الخشن حافي القدمين والدوار لايزال برأسي لا أدري أهو من ضربة أمي أم من مشقة العمرة أم لأني عطشان وجائع إلى حدٍّ يثير الشفقة ولازلنا ببداية اليوم.. جُبت الغرفة الصغيرة باحثًا عن ثلاجة لعلي أجد طعامًا فلم أجد سوى قطعة شيكولاتة صغيرة ربما تبقت من أخواي، هممت بالتهامها حتى تدخَّل صوت القدر في صورة قرآن يتلى من الغرفة المجاورة بصوت يكفي ليذكِّرني أننا "لازلنا برمضان"!!!.. ألن ينتهي هذا الجحيم؟؟!. عدت إلى السرير لأجد تلفازًا بالغرفة.. أخذت جهاز التحكم عن بُعد وقمت بتشغيله لعلّي أجد شيئًا أقتل به الوقت حتى يستيقظوا.. لم أجد سوى القناتين السعوديتين ذاتهما، لكن المفاجأة كانت في ما وجدتهم يعرضونه على القناة الأولى.. أيعقل ذلك؟؟!!.. إنه فيلم عربي.. فيلم مصري بطولة نور الشريف وسهير رمزي، أنا أعلم هذا الفيلم جيدًا.. أعلمه نعم، فيلم "الوحش".. أعشق هذا الفيلم وكلما عُرِضَ على قناة بمصر كنت أشاهده مرارًا وتكرارًا.. لا أدري لِم هذا الفيلم تحديدا ولكني كنت أنتظر بفارغ الصبر اللقطة التي يتحول فيها نور الشريف من الشخص الطيب المسالم إلى الشخص الشرير الوحش الذي ينتقم منهم جميعًا.. تلك الدموية كانت تثير لذتي، ربما لأنه هو الآخر "مهيب ركن".. لكن هل القوة هنا هي الطريق إلى ذلك اللقب؟؟!!.المفاجأة بوجود فيلم كهذا يُعرَض أخيرًا على قناة سعودية كانت من شأنها إخراسي وإلزامي الصمت طوال مدة العرض، لكن سرعان ما أتت اللقطة الأولى التي أنتظرها من الفيلم.. لقطة "القُبلة".. عندما يحاول نور الشريف التقرب من زوجته.. أخجل وتتورد وجنتاي كلما أتت تلك اللقطة، ولكني

أحفظها عن ظهر قلب، فمتى ما شاهدت هذا الفيلم مع والدي وتأتي تلك اللقطة وأمي تقترب منا على غفلة كان أبي يُحَول القناة.. فاعتدت على حفظها. ما أثار دهشتي أن المشهد مرَّ وقد تعرقت واشتد الحر وفجأة .. لا يوجد لَقطة القُبلة!!!.. "فين البووسة؟؟!، أنا حافظ الفيلم كويس!!.. كان فيه بوسة!!".. كما أن شيئًا غريبًا آخر أثار استفزازي، فهناك لَقطة أخرى ترتدي فيه البطلة فستان "كات".. وإذ بعلامة سوداء كعلامة مائية تحجب ذراعيها ابتداءً من الكتفين وحتى الأصابع!!.. ما هذا الهراء؟؟!!.. لم تعد مشاهدة الفيلم ممتعة.. أو ربما لا يريد الله أن يضيع أجر العمرة عليَّ بتصرفي الأحمق.. حُبًّا فيالله، أين نحن؟.. في جنة الخلد؟!.. لا أخطاء.. لا ذنوب.. لا شيء على الإطلاق.. لا داعي.

أيقظني صوت أبي المتكرر بجملة واحدة لم يلبث أن غيرها : "يللا عشان نصلي الظهر.. يللا عشان نصل الظهر"، وكأنها منبه ذو بطاريات فارغة خفضت من صوته.اغتسلنا وتوضأنا استعدادًا للصلاة الأخيرة عند الكعبة.. صلاة الظهر. بخطى غير ثابتة أترنح فيها كشبه غائب عن الوعي والصداع لايزال ملازمًا لي كظِلّي. كانت تلك خطواتي إلى الحَرَم حتى تكرر شعوري بالأمس وقدماي حافيتان على رخام أبيض بارد يداعب جلد قدميك وكأن شمس الظهر الحارقة ضيف شرف لم يترك سوى ضوئه دون حرارته التي لم تؤثر على برودة الأرضية الرخام.

كان الفراغ هو السمة المشتركة بين بقاع الحرم المكي.. أعداد قليلة فقط التقطتها عيناي العسليتان الصغيرتان من المعتمرين

يطوفون حول الكعبة، أما الباقي ففي حالة من التعبد. اقتربت هذه المرة إلى أقرب حد يمكن تخيُّله.. بمنتهى الثقة والطمأنينة تقدمت أنا ووالدي باتجاه الحجر الأسود وأنا غير مصدق.. "أحقًّا يمكنني الآن لمس الحجر الأسود وتتحقق النبوءة؟".. هكذا سألت والدي ليرد عليَّ بثقة عمياء لم تدع لي مجالًا للشك: "نعم.. يمكنك ذلك والدعاء بما تشاء، وسيستجيب إليك الله يا ولدي.. يا مهيب الركن".. قالها بجدية وبحزم، فسابقته إلى الكعبة فاردًا ذراعيَّ القصيرين المترهلين إلى الأمام وكلتا اليدين جاهزتان للمس الحجر الأسطوري.. حتى حدث.. شعرت وكأن الطاقة تسري في جسدي، تنتقل بقوى خفية من حجارة الكعبة إلى جسدي وعقلي عبر ذراعيَّ.. وكانت أولى دعواتي والأكثر وضوحًا لي وقتها: "اجعلني مهيب ركن يا الله".. وقتها فقط، تراءت في ذهني صورة واضحة جلية لي وأنا أطول قامة وأعرض كتفًا، أرتدي جلبابًا أبيضَ ناصعًا وحذاءً شديد السواد كسواد الليل.. وجهي ذو فك عريض قوي ولحية سوداء مهذبة تحد نهايات وجهي.. لا أدري إن كانت تلك الصورة هي نتاج مسبق مخزن في رأسي للصفات التي أعطاها لي أبي سابقًا، ولكنها تجسدت الآن تلبية لرغبات عقلي المشتاق لهذا اللقب.. أم أن تلك رؤية حقيقية وكانت ستتحقق في يوم من الأيام!. أنهينا صلاة الظهر وعدنا مسرعين إلى الفندق حيث كانت أمي بانتظارنا وأخواي لايزالانيتثاءبا،ن فالنعاس هو السمة المخيمة على وجوههم.. حزمنا أمتعتنا القليلة وأثناء نزولنا إذ برجل هندي يرتدي شيئًا يشبه التنورة ينتظرنا على بوابة الفندق.

-" بابا هاذا فيه واحد موووية زمزم.. إنت فيه شيييل؟؟!"

تعجبت من تلك اللغة التي لم أتقنها بعد ليرد أبي عليه

-بكم هاذا؟؟

-هاذا واحد جيركن عشرة ريال..

-لا لا إيه الكلام ده

-و الله بابا هاذا فيه واحد جيركن عشرة ريال.. هاذا مووويـة زمزم، إنتا مافيه معلوم؟

-يا عم أنا فيه معلوم، عارف انها زمزم، بس كتيير عشرة ريال

-خلاص بابا انت فيه جيب سبعة ريال

-هما خمسة ريال وهاخد منك اتنين

-اااه، انتا فيه واحد مصري عليبابا .. خلاص مافيه مشكل

-أه يا عم أنا فيه واحد مصري "علي بابا".. وانت كمان عليبابا يا نصاب هههههه

تقبل الرجل الإهانة من والدي الذي تعرض للإهانة أيضًا كنعته ب "المصري العلي بابا"-فيما بعد علمت أنه ينعته بالحرامي- واشترى حاويتيْ مياه زمزم.. هكذا؟؟.. بتلك السهولة حصلنا على زمزم؟؟!.. الويل للواسطة والكوسة.

بعد عناء اليوم الكامل في السفر لدى عودتنا، عدنا كالجثث الهامدة إلى منزلنا الحبيب بشارع المنفوحة، تلك المنطقة التي تعج بسائقي التاكسي والمصريين والهنود وكل قبائل البنجالة.. عدنا ولم نكد نلقي بأجسادنا المتعبة على الأسِرَة حتى طرق أحدهم باب الشقة.. توجَّه والدي ليفتح وعاد سريعًا وبيده كيسا أسودا ملء يده اليمني..

-مين يا غازي؟
-ده مشعل.. بيقوللي فيه حد سابلك الحاجة ديه في البريد.

جلسنا كالعادة والفضول يقتلنا، فماذا يمكن أن يكون في كيس أسود صغير.. كل منا رسم بمخيلته الكثير.. رزمة أموال ربما؟؟.. خطابات ورقية؟؟، لكن من يرسلها؟؟.. لم نفكر كثيرًا حتى بدأ أبي بالتنقيب عمَّا بداخل الكيس الأسود.. الكيس يحتوي على أربعة أشرطة كاسيت.. تأملناها قليلًا ولا نعرف ما تحتويه حتى قامت أمي بتشغيلها على الكاسيت وكانت المفاجأة!!..

"إزيك يا فاطمة عاملة إيييه؟ وحشتينا وحشتيناا وحشتينااا.. وغازي والعيال عاملين إيييه؟؟!! إحنا هنا كلهم بيسلموا عليكواا.. سلموا على طنط فاطمة يا ولاد.. إززيييييك يا طنننننط.. .. "

اللعنة.. الأربعة أشرطة تحتوي على توثيق للعائلة بمصر مسجلًا بأصواتهم ردًّا على ما أرسلناه إليهم منذ فترة.. كل شيء مسجل.. ليست عائلتنا الوحيدة هي من بها درب من الجنون.. وبالطبع لم أسلم من نظرة والدي التي كانت الشماتة تملؤها لأن فكرته "العبقرية"-في نظره-قد نجحت

-شوفت بقي يا سي عطوة؟؟.. لما أقوللك حاجة تسمع وتتعلم من غاازي.. ده أنا غازي يابني..
-اااااه.. إرحمني يااارب.. .. !

(10)

" من يعرف كيف يكون، محبوبًا بين الناس.. يسعى ويحاول نشر السعادة.. من يسعى للوصول، لقلوب جميع الناس.. هو من يعطي الطفل الإفادة.. تخيلوا أن الكون لا طعم له أو لون.. أو أن التلفزيووون.. من غير سبييس تووون"

كلمات تلك الأغنية لم تفارق أذنيَّ منذ أن قام والدي أخيرًا بتركيب طبق الدش بسطح المنزل وإمدادنا بعددٍ لا حصر له من القنوات الفضائية التي حولت عالمًا من الصمت إلى ضجة صاخبة بقنوات الأغاني وعالم من الأبيض والأسود إلى عالم مليء بالألوان والأفلام- بما فيها المشفر منها- والتي سرعان ما قام أبي بتشفيرها عندما التقطني أتابع إحداها بالخطأ فظنَّ أنني أسترق اللحظات عمدًا. عام دراسي جديد جديد أقبل علينا بصدر رحب والتزامات جديدة.. التزامات كالعادة تجعل منِّي مسبب المشاكل الأول بالعائلة ونقطة ال"نحس" والبطة السوداء وكأنني أنا المسؤول.

كانت مرحلة الدراسة بال"سفارة" مخصصة للصفوف الابتدائية فحسب، وعليه.. كان على والدي أن يبحث عن شيء جديد.. مدرسة جديدة. صراعات جَمَّة بين والديَّاستعرت كالحريق في كومة قش على نوع المدرسة الجديدة.. أيجب أن تكون سعودية هذه المرة أم أننا سنلتزم بالدراسة المصرية؟!.

-ندخله حاجة سعودي وخلاص يا فاطمة زي إخواته.

-لا يمكن.. وافرض سيبنا هنا في أي وقت نرجع بقي نحوله تاني من سعودي لمصري؟؟

-يا ستيإن شاء الله مش هانسيب.

-انت ضامن حاجة هنا؟

-و لما هو كدة وافقتي ليه عالسفر من الأول وزنييتي عليا؟؟ مانتي عارفة ان مافيش حاجة مضمونة.

-يوووه.. تاني؟؟ هو اللي نعيده نزيده؟؟

-خلاص خلاص.. أعمل إيه دلوقتي؟؟

-إستنى، رغدة هاترد عليا بكرة.. ابنها في إعدادي برده وكانت قاليتلي على حوار كده.

-أيوة اللي هو إيه بقي؟

-يا سيدي النهاردة من بكرة مش هاتفرق..

بعد أربعة أيام من الصراعات الأسرية المصيرية لتحديد مدرستي الجديدة توصل والداي إلى حلٍّ غريب.. حلٍّ لم أعهده من قبل.. في السابق كنت بمدرسة مصرية تستبدل فيها حصص التربية الرياضية بتنظيف الملعب من القمامة، وحصة التربية الموسيقية بالجلوس في الصف صامتين.. ومن ثم انتقلت إلى هنا حيث كانت مدرستي لا تتعدى فيللا بطابقين ونظام تعليمي بالكاد يمكن تسميته مدرسة.. لكن أن أجد نفسي مرتديًا زيي الخاص وجالسًا في منزل أحدعم برفقة ثمانية تلاميذ من بنات وبنين في مثل سني ومدرس لغة رياضية يرتدي جلبابًا صعيديًا رمادي اللون ويسمون هذه مدرسة؟؟!!!.. هذا ما لا يصدقه عقل.

بـدأ الأمـر باسـتيقاظي في يـوم مـن تلـك الأيـام الحـارة وارتـدائي ملابـسَ لا علاقـة لهـا بالمدرسـة تلبيـة لرغبـة أبـي، ومـن ثـم اصـطحبنيللتعرف على مدرسـتي الجديـدة. لـم ولـن أنسـى هـذا اليـوم في الثامنـة صباحًا ونحـن نسـتقل سـيارة الأجـرة يقودهـا للمـرة الأولى هنـا سـائق مصـري وعـزم على تشـغيل شـريط كاسـيت لهشـام عبـاس.. لا تـزال كلمـات الأغنيـة تلـو الأخـرى تتردد على مسـامعي والجـو حـولي سـاكن، نوافـذ السـيارة مغلقـة وهـواء التكييـف قـد أثلـج أطـراف أصـابعي وأنفـي ولا زالت ذاكرة جسدي تتذكر شعور الجلوس على كنبة

السـيارة الخلفيـة المصـنوعة مـن قمـاش نـاعم يشـبه فـرو الحيوانـات والشـمس تحـاول دغدغـة عينيّ محاولـة طـرد النعـاس مـن كلتيهمـا.. حتى دخلنـا شـارعًا يـدعى "الخـزان".. شـارع لا يختلـف كثيـرًا عـن شـارعنا المجيـد "المنفوحـة". ترجلنـا مـن السـيارة تـاركين جنـة البـرودة ليصـطدم بنـا مـن جديـد صـهد العـالم الخـارجي وتوجهنـا إلى إحـدى البنايـات المرتفعـة.. بالمصـعد الكهربـائي صـعدنا حتى الـدور الأخيـر ليطـرق والـدي جـرس الشـقة تسـعة وثلاثـين.. صـبي صـغير في مثـل عمـري يـدعى "محمـد صـلاح" فـتح لنـا.. نحيـف ذو رأس كالبطيخـة، وهـذا الاسـم سـرعان مـا اكتشـفت أنـه لقبـه الحقيقـي، رأس البطيخـة. أدخلنـا وقـدم شـرابًا بـاردًا لأبـي ومـن ثَـم تركنـي أبـي معـه مطَمئنًـا إيـاي أنـه سـيمرّ لاصـطحابي في الثانيـة ظهـرًا. أدخلني رأس البطيخـة إلـى غرفـة المعيشـة وأنـا فـي الطريـق إليهـا أحـاول التقـاط أيّ معلومـة وأحـاول تفهـم مـا يحـدث.. ماتلـك المدرسـة الغريبـة؟؟! أهـم يعطـون دروسًـا في السـرّ؟؟ أهـا، أهي منظمـة سـرية أو مـا شـابه ذلـك؟؟! ولكـن

سرعان ما تم قطع حبل أفكاري عندما فتح باب غرفة المعيشة الزجاجي ذو المصراعين عن آخره ورأيت طاولة خشبية كبيرة تسع لعدد لا بأس به من الطلاب ويجلس في حضرتها ثمانية تلاميذ من الأولاد والبنات وأنا ورأس البطيخة أتممناهم عشرة. نظر إليّ الجميع وكأني مخلوق من كوكب آخر جئت إلى باترينة عرض ليتدارسوني.. الثلاث فتيات ينظرن إليّ ويضحكن ضحكات بها شيء من السخرية.. فأنظر إلى ثيابي وهيئتي في خجل وتوتر ويراودني ذاك الشعور القديم مجددًا عندما أذهب إلى مكان جديد.. أشعر وكأن سحّابة البنطال مفتوحة والكل ينظر إليّ. سرعان ما طردت تلك الأفكار فور رؤية الأولاد وتعاطفهم معي.. طمأنني رأس البطيخة ووفر لي مكانًا أجلس فيه.. حتى دخل علينا المدرس الأول.. مدرس اللغة الإنجليزية الأكثر غرابة على الإطلاق.. آخر شخص توقعت رؤيته هنا.. مستر "فادي" الذي درّسني بالسفارة، والد الفتاة بيضاء الوجه سوداء العينين والشعر "هاجر". كم هي صغيرة تلك الدنيا.. احتضنني بقوة وبطيبة أب لابنه، سألني عن أحوالي وأحوال فرج صديقي القديم من السفارة والذي قرر والداه السفر النهائي إلى مصر وإتمام دراسته هناك.. تحدثنا عن كل شيء تقريبًا.. بعد أن أنهى حصته تكلمنا عن ما جرى له من أحداث بعد تركه للعمل بالسفارة، ولم يكن وحده من تركه، بل تقريبًا كل مدرسي هذا المجال تركوه بإنهاء عقودهم.. بدا له الأمر نهاية المطاف.. الكثير من المدرسين وقتها تركوا العمل نهائيًّا بالسعودية وعادوا إلى مصر، ولكن قليلون هم من قاموا بابتكار مشروع من نوع خاص.. شيء جديد ربما في بداية الأمر يخيل إليك أنه غير قانوني.. في الواقع هو

بالطبع "غير قانوني".. ولكن معشر المدرسين قرروا تحمل الخطر واتخاذ الحيطة.. عالم من التدريس غير شرعي في صورة "مجموعات"-كما يسمونها - قد تم الترتيب له بمنتهى الحِرَفية.. عالم إذا ماتم التعرف على أطرافه فقد يضيع مستقبل الكثيرين وأولهم "نحن" التلاميذ.. لذا.. كان على الكل التزام السرية التامة.. كان على الكل عدم لفت الانتباه.. كان على الكل الدخول إلى "اللعبة".. بصمت!

تجاوزنا الأسبوع ولازلت أحاول التأقلم على وضعي الجديد.. الاستيقاظ يوميًّا خمسة أيام بالأسبوع والالتحاق مبكرًا بالـ"مجموعة" ولا أكاد أفقه شيئًا مما يدرسوننا هناك.. لا أدري إن كان هذا غباءً مني أم أن عقلي لا يتقبل مفهوم الدراسة إلا في فصل واسع يضم على الأقل عشرين تختة يتسع كل منها لثلاثة طلاب.. لا أدري إن كنت فقدت الإحساس بالأماكن والأزمنة فلا يستطيع عقلي استيعاب الوضع الجديد وعليه استيعاب كمٍّ هائلٍ من المعلومات يُضخ إلينا كل يوم من خمسة مدرسين كل منهم يدرّس مادة أو اثنتين في آن واحد.. معلومات تسببت في حرق أسلاك مخي الصغير المتخم بالتساؤلات، وحجة المدرسين أنه لضمان تحسن الطلاب هنا ورفع مستوياتهم عليهم إنهاء المنهج التعليمي مبكرًا على الأقل بشهرين للمراجعات النهائية. تعرفت على كل من بالمجموعة سريعًا، وحتى الفتيات اللاتي كنّ يضحكن عليّ في اليوم الأول صرن كالخاتم بإصبعي.. علمت منذ اليوم الثالث تقريبًا أنني سأبدأ بإنشاء إمبراطورية جديدة وعليّ خلق "مهيب

ركن آخر" بقوانين أخرى تليق بالمكان.. إذ لم يكن كما رأيته في رؤيا الحجر الأسود، ولكني لن أدع لليأس طريقًا إلى قلبي.. كما أن شيئًا آخر قد غير مجري تلك السنة الدراسية وعدل من حالتي المزاجية ليجعل من ساعات دراستي بالمجموعة "ساعات من الفردوس".. شخص جديد أتانا متأخرًا بأسبوع.. شخص آخر لم أتوقع أني سأراه هنا أيضًا.. لكن هذه المرة خفق قلبي وتعرق جبيني ولم أحرك ساكنًا وتثاقل لساني عن النطق أمامه بكلمة واحدة.. تلك الفتاة التي وددت لو أني ألتهمها برغيف خبز ساخن منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها في السفارة.. الفتاة سوداء العينين وشديدة البياض.. "هاجر" ابنة مستر فادي.

شيء ما تغير بالمنزل منذ أن بدأ العام الجديد.. حركة غريبة من التغييرات على عائلتنا أخذت في الحدوث منذ أن بدأت بالذهاب إلى المجموعات.. كان كل ما يشغل بال والدتي هو "كيف لمجموعة من الأساتذة لا تراخيص لديهم ولا أمان لوجودهم هنا أن يحققوا الكسب بالآلاف بفكرة مشروع صغير لن يكلفهم سوى شقة من شقق أحد تلامذتهم؟؟!".. الأمر الذي جعل أمي تفكر بشيء ما.. شيء لم تفصح عنه لأبي وتوعدتنا بعذاب الحريق إن فكرنا فقط بإطلاعه على شيء. كان المنزل شبه هادئ قبل أن تبدأ وفود من نساء تختلفن في الأعمار والأشكال والأحجام في المرور علينا ذهابًا وإيابًا وكأن المنزل صار صرحًا لشيء ما.. حاولت التلصص ومشاهدة ما يجري في غرفة المعيشة السرية التي باتت غرفة اجتماعات منغلقة غير مصرّح لي أو لإخوتي بالاقتراب منها.. حاولت

ذلـك مـرارًا وتكـرارًا مشـاهدة مـايجري مـن عـين البـاب وسـماع مـا يمكنني سـماعه.. لاحظـت نسـاءً بـدينات سـمينات الجسـد وأخريـات قبيحـات الوجـه حـد التقيـؤ، تمـلأ وجـوههن البثـور والحبـوب كرغيـف خبـز مـتعفن.. كـن يخلعـن النقـاب لعلمهـن بوجـود أطفـال صـغار فلايبـالين.. بعضـهن يشـكين همهـن إلى أمـي، همـوم ذات صـلة رئيسـية بـأزواجهن فـتطلعهن أمـي عـلى نفـس الوصـفة تقريبًـا عنـدما يتعلـق الأمـر بالمشـاكل الزوجيـة، وصـفة "شـرش الزلـوع".. ذاك النبـات الغريـب حيـث تتعـالى ضـحكاتهن بـدلال وخجـل عنـد سـماع اسـمه.. وبعضـها وصـفات تضـم أشـياء مـن قبيـل غـذاء ملكـات النحـل وجنـين القمـح وحبـة البركـة.. ماتلـك الأسـماء الغريبـة؟؟! أيعقـل أن أمـي تركـت وظيفتهـا وتعمـل دجالـة أو مشـعوذة؟؟ تلـك الأسـماء لا أسـمعها إلا في بعـض الأفـلام عنـدما يطلـب الـدجال مـن الشـخص إحضـارها بمقـادير معينـة. اسـتمر الوضـع هكـذا وأبي لا يعلـم أي شـيء عـن ذلـك.. ولكنـه يعلـم جيـدًا أن أمي ظلـت منـذ ذاك الوقـت بـالمنزل مـايقرب عـدة أشـهر لاتـذهب إلى العمـل.. لا أعـرف مـا إن كـان تـم فصـلها أم حـدث شـيء آخـر.. لكـن أيًّـا كـان مـا تفعلـه الآن فعلى الأرجـح هـو أفضـل بكثير وذو ربح مادي أفضل من ذي قبل!

(11)

"متوفر حول العالم من شركة إن-دايركت.. للطلب والمعلومات حول الدفع بالعملات المحلية يرجى الاتصال على الرقم الظاهر على الشاشة أمامكم.. وإن كانت الخطوط مشغولة.. يرجى معاودة الإتصال.. موظفونا جاهزون لتلقي طلباتكم.."

الدعاية الإعلامية الرخيصة على تلك القنوات لا تنقطع ليل نهار.. نشاهدها أنا ومنعم وجازمينا طوال الوقت أكثر من مشاهدتنا لأفلام الكارتون.. تلك الدعاية التي ذكرتني باليوم الأول الذي حطت فيه أقدامنا مطار المملكة العربية السعودية.. اليوم الأول الذي علمت فيه أننا سنعيش سلسلة من الكذب المتواصل وعلينا التأقلم عليها. بدا إعلانًا عاديًّا وقتها.. جهاز صغير يشبه دواسة ماكينة الخياطة القديمة لدى جدتي، ورجل بحجم فيل أفريقي ضخم الجثة تتدلى معدته بين فخذتيه جالس أمام التلفاز يتناول شطيرة بها ما يعادل ألفي سعر حراري، يرتدي ملابسه الداخلية (الفانيلة البيضاء وشورت قصير ملون بألوان زاهية تثير الشفقة) حتى يأتي المذيع إليه من التلفاز بفكرة عبقرية: "نعم.. يمكنك الآن عزيزي أن تخسر أرطالًا من الدهن بحركة بسيطة واحدة.. وصدقني.. إنها ليست خدعة سينمائية.. كل ما عليك فعله عزيزي السمين هو الجلوس كملك من ملوك العالم والضغط فقط بقدم واحدة على جهازنا وسوف تتحول أرطال الدهن تلك إلى عضلات

مصقولة صلبة كالحجر.. صدقوني، إنها ليست خدعة سينمائية". "يا نصابين ياولاد الحرامية"!! هكذا كان صوت عقلي كلما رأيتهم يبدلون الشخص السمين بآخر ذي عيون خضراء وفك رجولي عريض وملامح "شخص آخر" وكأنه تحول.. ألا لعنة الله على تلك الإعلانات القذرة. لم يتجاوز الأمر مجرد المشاهدة.. بل إن أمي وطنط "رغدة" والدة زميلي بالمجموعة قد قررا تجربة بعض تلك البضائع الرخيصة. تحولت حياتنا بالمنزل إلى شيء أشبه بالنوادي النسائية كما في المسلسلات التلفزيونية.. نساء وزوجات جيراننا وصديقات أمي اللاتي تعرفن عليها في فترة إقامتنا هنا بالأرض المحرمة تجاوزن الخمسين عضوة.. صار الأمر أشبه بـ"عيادة علاج طبيعي منزلية"، وبعد فترة ليست بطويلة بدأ أبي يلاحظ وفود النساء إلى المنزل.. حتى أتت إحدى زميلاتها بالعمل السابق ونقلت إليها خبرًا أثار غيرتها وألهمها وحوّلها إلى آلة نقود، لا تفكر سوىبالنقود، لا تتحدث إلا عن كم سنكسب وفيم نصرف وكيف سنقتصد من المصاريف.. وعندما حاول والدي إرجاعها عن وصفات العلاج الطبيعي غير المصرح بها قانونيًّا وأن ذلك قد يعرضنا للطرد من المنزل، اشتعلت حريق مستعرة من جديد بدافع أن زميلاتها يعملن مدرسات بمنازلهن، ومدرسي الـ"مجموعة" التي يرتادها ولده هم أيضًا هكذا.. اعتمدت أمي في الإقناع هذه المرة على مبدأ: "لا شيء مضمون هنا".. المبدأ ذاته الذي لطالما كان أبي يتوجس خيفة منه.. اعتمدت وبكل ثقة على أنه لا مانع من مشروع صغير خاص يؤمّن لنا مالًا قد يساهم في شيء للزمن، وعندما

اعترض والدي ذكرت له ما نقلته زميلتها القديمة بالعمل عن "سينجر".. ذاك السائق الهندي الذي يقود عربة العمل لديهم.

-يا عازي انت ماشوفتش سينجر بقي عامل إزاي دلوقتي؟

-ماهو زي ماهو.. هندي معفن.. لسه سواق..

-سواق؟؟! ده إنت طيب قوي.. إتفرج إتفرج..

مجموعة من الصور الفوتوجرافية قام "سينجر" بتوزيعها على كل من بالعمل القديم بعد أن أخذ إجازته وعاد إلى الهند. الصور تضم ممتلكاته الجديدة بالهند.. قصر على مساحة ألفي متر مربع معمد بأعمدة من الرخام ومزرعة شاسعة المساحة يربي فيها مايقرب من مائة بقرة حلوب مسلمة لا شية فيها تسر الناظرين.. ليست للأكل.. وإنما للعبادة، وصور أخرى تظهر جمال القصر من الداخل وفخامة مفروشاته.. "من أين لسائق هندي أن يشتري كل هذا في غضون عامين فقط؟؟!".. هكذا كان سؤال أمي لأبي ولم تترك له مجالًا للتفكير حتى أردفت قائلة: "فرق العملة يا عزيزي".. لكن السؤال الذي تردد على عقلي أنا وقتها هو: "لم يفعل سينجر هذا؟؟ أي عقل حقود أو مريض يوزع صورًا عن ممتلكاته وكأنه يثير استفزاز من حوله من أطباء وعمال؟؟!".. على كل حال لم أكن أرتاح لهذا "السينجر" الهندي ذي الشعر البرتقالي السائح وملابس الرهبان الغريبة.

أن تحاول الوصول إلى مكنون شخصية مهيب الركن في مجموعة في شقة أحدهم ومدرسين غريبي الأطوار فذلك ليس باليسير.

obeikan.com

تعلمت الكثير وقتها عنا كمصريين أكثر مما كان يمكنني أن أراه أو حتى ألحظه ببلدي، فطباع المصري لا تتغير كما أطلعنا من سافروا سابقًا.. بل في الواقع المصري الحقيقي يظهر على حقيقته كلما ابتعد أكثر عن بيئته.. إن كنت سيئًا حقودًا حسودًا فسيظهر عليك ذلك.. وإن كنت طيب القلب نقيًّا نظيفًا فسيظهر ذلك واضحًا جليًّا أمام وفود من متحجري القلوب المتنكرين لأصولهم وعاداتهم المصرية. كان المثال الأكثر تحديًا لفضولي هو أستاذ "عبد الباري" مدرس الرياضيات لدينا. الرجل لا ينطق حرفًا صحيحًا باللغة المصرية، ولا يكاد يفقه اللهجة السعودية فينتج عن ذلك لهجة غريبة تتمايل مابين الاثنتين. رجل بعرض باب الشقة وطول مترين يرتدي جلبابًا بترولي اللون و"كلسون" أبيض باهتًا أسفلها يضفي لجسده الممتلئ ضخامة إلى ضخامة ولحية غير مهذبة كسلك مواعين صدئ رديء الصنع.. لا يهتم بمظهره ظنًّا منه أن مكان عمله ليس بحاجة لذلك.. كم كرهت الجلوس بجانبه، فرائحة العرق التي تشبه الدجاج المشوي المتعفن الصادرة من أسفل إبطه كلما همّ برفع ذراعيه كانت تثير اشمئزازي حد القيء.. ومع الوقت أفقدتني الرائحة اللعينة حاسة الشم.. تبًّا وألف تبًّا لمدرسي المجموعات.. تقبضون أموالًا طائلة ولا تتكلفون عناء الاستحمام حتى؟؟! ما كان يهوّن عليّ تلك المأساة هي الفتاة التي أثارت فضولي للتقرب منها أكثر.. بيضاء الوجه سوداء العينين "هاجر". يومًا بعد يوم حاولت التقرب إليها بعمل واجباتها وحل المسائل الكلامية العقيمة في الرياضيات عنها، وإعراب جمل النحو باللغة العربية وإنهاء واجبات ونصوص اللغة الإنجليزية عنها.. كل ذلك وهي لا

تعطيني حتى طريقًا للحديث معها.. بل إن شخصًا آخر كان يسرق مجهودي.. بينما أنا ملقى في وحل واجباتها المدرسية يتمتع هو بالحديث والدردشة معها.. ربما هو مهيب ركن من نوع خاص، ولكن لا يمكنني الاستسلام.. حتمًا هناك حل لذلك.

منذ أن تعرضت "عربة الأطفال الوردية" - المقيتة-إلى حادث في أحد أيام الجمعة تفتتت فيه إلى أجزاء من مائة قطعة عندما زاد أبي من الـ"حمولة" بإضافة أربع حبات بطيخ وحاوية مياه كبيرة أخرى.. قرر والدي أخيرا -بعد أن نشبت بيننا مشاجرة كان صوتي فيها هو الأعلى - شراء سيارة تنتشلنا من الظلام وتستر عوراتنا في الطرقات وتلبي حاجياتنا. لا اعتراض لدينا أن تكون السيارة مستعملة، ففي النهاية وكما تقول أمي: "إحنا مش قاعدين في البلد على طول، ديه فترة مؤقتة وكده كده بنمشّي نفسنا، عشان لما نمشي ونسيب البلد نبقى نتخلص من كل حاجة".. وكأننا من المخابرات العامة، ننهي ما أتينا من أجله ومن ثم نتخلص من جميع الأدلة ولا نخلف شيئًا ورائنا. السيارة لم تكن كما توقعت فكالعادة عائلة غازي يهولون المواضيع ويضفون شيئًا في الوصف يجعلك ترى الأمور من منظور لا حدود له. سيارة كابريس قديمة سوداء كإحدى سيارات الشرطة الكابريس الأمريكية في الأفلام القديمة تزن أطنانًا وبعرض سفينة بحرية.. لكني لم أكره تلك السيارة أبدًا، إذ كانت مريحة إلى أقصى ما يمكن تخيله، تشعرني بالهيبة والقوة وتناسب شوارع الرياض.. سيارة تليق بـ"مهيب الركن".. وفي نفس الوقت.. سيارة لم تكلف أكثر من سبعة آلاف

ريال سعودي.. أي رقم مجنون هذا؟؟! لم أصدق في البداية أن السيارات هنا رخيصة إلى هذا الحد.. لكن تلك هي الحياة في السعودية. تنقضي الأيام والليالي الواحدة تلو الأخرى ولازلنا نستكشف العالم من جديد هنا بالسيارة الجديدة.. لم أعد محرجًا من الخروج كل جمعة. فالآن لدينا سيارة كالبشرين العاديين وازدادت ثقتي بنفسي وقد أيقنت أني أسير على الدرب لأكون مهيب ركن ذا صيت.

قارب العام على الانتهاء، ولم يكن سيئًا كالعام السابق.. لكن هطول الأمطار حد السيول والبرد القارس كصحراء جرداء في شتاء السعودية هو ما أنهى عامنا تقريبًا بحالة من الالتهاب الرئوي لوالدي علاوة على مرض السكري أفقدته جزءًا كبيرًا من طاقته. ما زاد من الأمر سوءًا هو اقتراب موعد الامتحانات النهائية.. تلك الامتحانات التي تضعني للمرة العاشرة موضع المسؤولية بحكم أني الابن الأكبر والأكثر أهمية. فمدارس إخوتي بالمنهج السعودي تبدو عليها السهولة واليسر التام.. بعكسي أنا يبدو أني قد تورطت بمصيبة أشبه بجريمة.

-ها يا ابني.. راجل عنده عربية فاكهة فيها عشرين كيلو برتقان بصرة وعشرة كيلو عنب وعشرة كيلو خوخ.. وقع من العربية وهي ماشية خمسة كيلو عنب، وباع تلاتة كيلو برتقان ورجع البيت رمى اتنين كيلو من كل صنف منهم "بدل تالف".. فإذا كان كيلو البرتقان بخمسة جنيه، وكيلو العنب باتناشر جنيه وكيلو الخوخ

بسبعتاشر جنيه.. إحسب بقى مقدار المبيعات اللي باقية ليه آخر اليوم..

-يا بابا هو ازاي عنب وخوخ وبرتقان طالعين في نفس الموسم؟؟!!

و قبل أن أتفوه بكلمة أخرى إذا بيد والدي تمتد لالتقاط شماعة بلاستيكية وانهال عليّ بالضرب حتى تكسرت على ظهري!! ومن ثَم أخذ يتمتم بكلام لا معنى له حتى نهرني بلهجة حازمة مبررًا ذلك بأنها غلطة مطبعية، وأن تلك المسألة لا يهم فيها الحقائق العلمية بقدر ما يهم أن يحل اللغز. كانت تلك الشماعة البلاستيكية هي السادسة عشرة والأخيرة بالمنزل، فأعاد السؤال عليّ مرة أخرى.. تسمرت أمامه لا أنطق قليلًا وقد قارب أذان الفجر على الانطلاق معلنًا أن ماتبقى من الوقت للامتحان النهائي لا يتجاوز الثلاث ساعات.. نظر لي والدم يجري بعروق وجهه ورقبته ومن ثم صرخ: "يا ابني ردددد عليااااااا.. هيتبقاله فلوس أد إيه لما يبيع اللي باقي له؟؟!! ما انت عندك كل المعطيات أهو، ده لو حمار كان خد المعطيات وحلها!!!". "المعطياات المعطيات المعطيااااات".. لعن الله تلك الكلمة التي جعلت من حياتي مع الرياضيات جحيم.. أكره عندما ينعتني أحد بحيوان ما من الحيوانات.. وكانت جدتي والدته تخبرني دومًا أنه كان ضعيفًا أيضًا في الرياضيات الكريهة.. أليست تلك جيناتك يا من تصرخ في وجهي الآن؟؟! بادلته الرد بعد صراخه قائلًا له ببرود تفوقت فيه عليه هذه المرة: "يا بابا ما انا قلتلك قبل كدة كتير أنا مابافهمشي المسائل الكلامية ديه.. أقطع نفسي طيب؟؟!"

-نعم يا روو.. (كاد أن ينطقها).. إنت جاي تقول لي الكلام ده قبل الإمتحان بتلات ساعات؟؟!!

-ما انا بقوللك من امبارح مش راضي تصدقني.. هو أنا هاكدب ليه؟!

بدأ ينظر حوله لعل يده تطال أي شيء ليضربني به فلم يجد، حتى وجد المسطرة الحديد بجانبه.. استنتجت بذكائي الألمعي أن تلك المسطرة هي أداة التعذيب الجديدة و"الأخيرة"، فلم يعد لدينا بالمنزل أي شيء آخر.. نظرت إلى وجهه الغاضب وعينيه الجاحظتين فتذكرت تعليمات الطبيب عندما علمنا للمرة الأولى بمرضه بالسكري فتناولت المسطرة سريعًا وأخذت أضرب نفسي بها كأني أعاقب نفسي قبل أن ينفجر بركان من الغضب يفور منه.. في النهاية الرجل مصاب بداء السكري ولا نريد أن نثير جنونه.

"ضمير مستتر تقديره (هو)".. لم أسلم من تلك الجملة أيضًا!.. ففي اليوم العاشر-وهو آخر أيام الامتحانات-كان امتحان اللغة العربية.. اللغة التي بالكاد أستطيع فيها التفريق بين "كان وأخواتها" و"إن وأخواتها".. فلتذهبن جميعكن إلى الجحيم والويل والزمهرير. لا أطيق الجلوس طوال الليل محاولًا فقط استذكار فرع واحد من فروع اللغة.. النحو.. وهو ما كان يقدر به الطالب "المحترف" بأمور اللغة.. فيمنح وسامًا من ذهب إن استطاع تصريف الأفعال وإعراب جملة كاملة بها أداة جزم وجرّ وكرّ وفرّ وأسماء الفاعل والمفعول والآلة.. اثنتا عشرة ساعة جالس أنا وأمي في غرفة المعيشة على الموكيت الأخضر وصوت مكيف الهواء المزعج قد

نـومني مغناطيسـيًّا فصـاركـل شـيء منكـر، وكـل حـديث زائـل. اثنتـا عشـرة سـاعة أحـاول فيهـا حـل جميـع امتحانـات المحافظـات مـن كتـاب "الأضـواء" و"لامـي" وأُخَـرُ متشـابهات في اللغـة العربيـة. أتـذكر وقتهـا مسلسـلًا كارتونيًّـا كـان يعـرض على "سـبيس تـون" بعنـوان : "مدرسـة الكـونج فـو".. المسلسـل يتحـدث عـن صـبيّ يبحـث عـن ذاتـه مـن خـلال تعلـم أسـاليب رياضـة الكـونج فـو.. كـان المسلسـل يسـتعرض تقنيـات قتاليـة وفي إحـدى الحلقـات تحـدث عـن مـا يـدعى بنقـاط الضـغط.. إحـدى تلـك النقـاط كانـت أسـفل الـرأس خلـف الرقبـة، ويقـال إن تلـك النقطـة عنـد التعـرض للضـرب عليهـا بشـدة فإنـك تفقـد توازنـك وتنهـار في غضـون ثـوانٍ معـدودة.. الشـيء الغريـب أن والـدتي كانـت على علـم بتلـك الأسـرار.. فكلمـا حاولـت أن أغفـو قلـيلًا منهـا أثنـاء حـل الأسـئلة في ليلـة الامتحـان تلـك التي تمنيـت انتهائهـا سـريعا، كانـت تصـوب لي شبشـب الحمـام المطـاطى على تلـك المنطقـة أسـفل الـرأس منادية بصوتها الرقيق:

-يللا يا عطوة.. إعرب..

-يا ماما بقى عايز أنام، مش قاااادر!

-ماتستعبطشي، أنا عارفة الحركات ديه.. إعررررب..

-حركات إيه بس، والله لأنسى كل حاجة بكرة، وذنبي ف رقبتك!

-ده أنـا كنـت اذبحـك وأشـرب مـن دمـك لـو درجـة نقصـت.. إعـرب يـا زفت خليني أروح أنام!!!!

تعجبني ثقـة والـدتي دومًـا بحـديثها.. "إعـرب يـا زفـت خليني أروح أنـام" تلـك العبـارة التي أضـاءت شـعاع الأمـل بـداخلي أنـه ربمـا سـينهكها

obeikan.com

التعب وتتركني لتغفو قليلًا.. لكن والدتي من فصيلة "مخيبات الآمال محطمات الأحلام".. ظلت تعبث بذاكرتي حتى تدخلت أشعة الشمس الذهبية للفصل بيننا وانتشالي من بين قبضتها التعليمية لأرتدي ملابسي وأستعد للامتحان الأخير. على أمل تذكر أي شيء مما حفظت انطلقت إلى اللجنة مع والدي في مدرسة تابعة للسفارة المصرية وجاليتها.. مدرسة تضم الكثير الكثير من المصريين المغتربين بأنحاء المملكة العربية السعودية كلها.. تضم كافة مراحل التعليم الابتدائي حتى الأول الثانوي، ولا أدري بشأن من هم أكبر سنًّا.. كل ما أردته وقتها هو إنهاء ساعتيْ الامتحان بأسرع وقت.. شعرت وكأن رأسي جردلًا بلاستيكيًّا كبيرًا يحوي الكثير من الماء، وفور أن جلست واستلمت ورقة الإجابة-بلا أدنى شك-قمت بسكب مابرأسي من معلومات حتى كادت تغرق من حولي من طلاب. تخلصت أخيرًا من قاذورات النحو برأسي.. محوتها إلى الأبد بلا رجعة وكأن شيئًا لم يحدث آملًا بألا تتكرر في العام القادم فأندم أشد الندم أني لم أحتفظ بها وأعاود الكرّة من جديد.. لكن.. ما شغل بالي وقتها فاق بكثير كل قلق.. ماشغل بالي كان أمرًا كدت أن أنساه بمرور عامين هنا.. كان عليّ البدء بتحضير حقائبي فور انتهاء امتحاناتي أنا ومنعم وجازمينا.. فنحن على موعد طال انتظاره كثيرًا.. نحن على وشك قضاء إجازتنا الأولى بمصر بعد غياب عامين كاملين. توقعت فور سماع الخبر أننا لن نجد كل شيء كما كان.. ولكنني لم أضع بالحسبان وقتها أن عامين من الغربة قد يكونان "دهرًا كاملًا" تشيب فيه وجوه وتولد وجوه، وتسود وجوه وتبيض وجوه.. لم أكن أدري وقتها أن اختبار العالم والمعيشة وأنت بعمر

طفل قارب على المرحلة الثانوية بمنأى تماما عن اختباره بعمرك السابق، فأن ترى الوقائع والبشر وكمًّا من الذكريات بعين جديدة قد يكون بمثابة "لعنة" تؤرق حياتك إلى الأبد.. والمفاجأة التي أعدها لنا والدي قبل السفر.. تعدت حدود الخيال!

obeikan.com

(12)

" رايحة فين يا حاجة وشقة البحوري.. رايحة أزور النبي محمد وأزمزم شعوري.. رايحة فين يا حاجة يا ام الشال قطيفة.. رايحة أزور النبي محمد والكعبة الشريفة.. رايحة فين يا حاجة يا ام الشال سماوي.. رايحة أزور النبي محمد وأرجع عالقناوي"

مجموعة من النسوة جالسات في ركن استراحة بميناء سفن يرتدين عباءات ملونة وبعضها مشجرة وسوداء تعتلي وجوهن سعادة قد تغمر الأرض ومافيها وتتعالى ضحكاتهن مرددات كلمات تلك الأغنية الغريبة التي ترددت على مسامعي للمرة الأولى هنا.. أضافت الشمس الحارقة من ظهر اليوم على هذا المشهد البانورامي جوًّا من الحنين إلى الوطن، ولكني بالرغم من ذلك أحاول نسيان ما جرى لنا في الأربع وعشرين ساعة الماضية عندما قرر والدي حجز تذاكر السفر بالـ"عبّارة" بدلًا من الطائرة، معللًا ذلك بأن الأحمال هذه المرة ستتجاوز الضعفين بعد ملء أربعة حقائب من الهدايا للأهل والأقارب والأصدقاء، وشراء بعض الأجهزة الكهربائية للشقة بمصر فور تأكده من وجود "عمو مصيلحي" في إدارة الجمارك لتمرير ما تم شراؤه بسلاسة. لم يتوقف الأمر على الأجهزة فحسب.. فلكل منا ما يقرب المائة وخمسين كيلوجرامًا من الأوزان، وعليه.. قرر والداي استغلال الوضع ورفع معدل الفانتازيا إلى أقصى درجات الخيال ليشمل

ذلـك نقـل أرطـال مـن الزبـد واللحـم والـدجاج واللانشـون المـدخن وأجبـان وفواكـه ورمـان.. ولا يمكـن نسـيان أنـواع الرطـب والـبلح مـن السـعودية، حاويـات كرتونيـة مـن الـبلح الـذي فاحـت رائحتـه وشـملت قمـاش الحقائـب حتى بتنـا كمـن يحمـل جثـة في حقيبـة وفاحـت رائحتهـا. بـدأت رحلتنـا الغريبـة بالـذهاب إلى مطـار الريـاض البـريّ.. المطـار الـذي جعلني أبصـق علـى الأسـفلت المسـتوي النظيـف حـد الجنـون عنـدما تـذكرت مطارنـا الجـوي بالقـاهرة.. كيـف لمطـار "بـريّ" أن يظهـر كـل هـذا النظـام والالتزام بمواعيـد الـرحلات ونظافـة فاقـت كـل تصـور لـدينا؟! جلسـنا على الكراسـي المعدنيـة البـاردة في انتظـار الحافلـة التي سـتقلنا إلى الأردن-كمـا قـال والـدي- ومـن ثَـم نسـتقل العبـارة "السـريعة".. تأكـدت والـدتي مـن حجـز والـدي للعبّـارة السـريعة وليسـت البطيئـة المعتـادة.. وكـأن ذلـك شـكّل فارقًـا!!. كنـت قـد جربـت مـن قبـل ركـوب الحافلـة لنصـف يـوم حتى تتـورم مؤخرتـك ويصـيبها التنميـل فـلا تكـاد تشـعر بهـا عنـدما قمنـا برحلـة العمـرة، لكـن أن تظـل اثنتي عشـرة سـاعة إضـافية !!! يـوم كامـل على الطريـق البري نغفـو ونصـحو على ذات المنظـر.. طريـق مسـتوٍ تتيمنـه جبـال وتتيسـره رمـال برتقاليـة اللـون وبعـض مـن البيـوت غير مكتملـة البنـاء والـبعض الآخـر قـد عفـا عليـه الزمـان.. أنـاس بملابـس بـدو وماشـية وجِمَـال قـد تقطـع عليـك الطريـق فتتوقـف حتى يمـر آخـر "هبـع" مـن الجمـال ومـن ثـم نكمـل طريقنـا إلـى اللانهائيـة. أحاديـث جانبيـة مـن جنسـيات العـائلات مـن حـولي في الحافلـة تنوعـت مـابين المصـرية باللهجـة الصـعيدية، السـودانية، السـعودية بلهجـات بني قحطـان والعنيـزي والعتيبي والبـدوي، السـورية، وبـالطبع أحبـائي المميـزين "الهنـود"

أصحاب لغة "بابا إيش كلام صديج".. وضيف الشرف هذه المرة بجانبي كان رجلًا هنديًّا من العيار الثقيل.. ذا شارب كالمقشة ورأس مفلطح يغطيه شعر بني سائح مفروق من المنتصف وحاجبان كثيفان سوداوان لا أدري من أي جينات جاءوا فلم يناسبا لون شعره البني. زميل الكرسي هذه المرة لم يكن سيئًا، فأن تجلس بجوار هندي لهو أمر يستحق عناء السفر. "سنجهام"، أو كما كان يسمي نفسه كان هنديًّا من نوع خاص.. في الواقع عندما رأيته أثناء حجز التذاكر قبل الصعود إلى الحافلة تذكرت الهنود في الأفلام الهندية القديمة الذين يقومون بدور الكومبارس حيث يقوم البطل طويل القامة بضربهم كالذباب.. أخفيت عليه حقيقة شعوري حتى أخبرني هو بالمفاجأة بعد حديث مطول دام ست ساعات عن ماهية وظيفته، ولماذا هو مسافر إلى مصر.. إنه بالفعل "فتى أفلام".. كومبارس صامت يؤدي دوره بحرفية تامة من تلقي الضربات والركلات واللكمات والطيران بعيدًا وأداء الشقلبات الهندية والاصطدام بألواح زجاجية تتكسر أثناء المشهد فتعطي منهاجًا دراميًّا يسلكه سائر الهنود في التمثيل. لم أصدق أني جالس بجانب شخصية خيالية كتلك.. تحدثنا عن كل شيء تقريبًا حتى كدت أن أجزم أن الوقت مر سريعًا هذه المرة. تعلمت منه الكثير عن عاداتهم وتقاليدهم،وتعلمت سر هزة الرأس الشهيرة لديهم يمينًا ويسارًا.. كان زميلًا استثنائيا هذه المرة.

فور وصولنا إلى الأردن كنا قد قطعنا تقريبًا معظم المسافة، ولم يبق سوى الشيء اليسير. بعد أن نام الهندي قمت بمزاولة هوايتي المفضلة

Obeikan.com

بالاستماع إلى الأغاني عبر كاسيت صغير بحجم اليد يشحن ببطاريات جافة وبه شريط لأغاني هشام عباس التي كنت أستمع إليها صباح كل يوم متوجهًا فيه إلى "المجموعة".. أستمع إلى تلك الأغاني في فضاء الصحراء وأسبح في خيالاتي ليلًا والكل نيام وهواء جهاز التكييف فوق رأسي مباشرة ليجعل من تلك اللحظات أمرًا يشبه السحر.. فقط ما أشعله هو تذكري لتلك الجميلة بالمجموعة.. هاجر.. ابنة مستر فادي.. هذه المرة لم أراقب تحركات الناس على الأغاني كما اعتدت سابقًا.. هذه المرة تخيلتها هي فقط تدنو مني وأنا أحاول أن أشرح لها إحدى المسائل الكلامية اللعينة وكأني "العليم بأمور الرياضيات". العبقري الذي يملك فقط وحده مفاتيح نجاحها، فتضحك وتتعالى ضحكتها ومن ثم نترك المذاكرة ونتطرق لأحاديث جانبية لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالمنهج.. أعلم أني الأفشل في المسائل الكلامية، وأعلم أني أنا من بحاجة إلى المذاكرة.. ولكن ألا يحق لي أن أحلم وأتخيل؟؟! أسأكون فاشلًا في الحقيقة والخيال أيضًا؟؟! لا والله لن يحدث! استمرت خيالاتي العشقية في النمو حتى أفقت على صوت أحد الضباط يصرخ: "أجوول طلع طلع الجوازات يالحبيب.. الجوازات أكرمكم الله". كنا قد وصلنا إلى حدود مابين الأردن والسعودية.. وكانت المعاملة قاسية من مسؤولي الأردن.. أصروا على تفتيشنا ذاتيًّا الواحد تلو الآخر وفُتِحَت الحقائب بوحشية كما لو كنا نتاجر بالممنوعات.. غلظة التعامل من رجال الأمن هناك وحِدّة أصواتهم الآمرة جعلت من أحد الركاب وحشًا بشريًّا نهرهم جميعًا وقام بالسباب واللعن في كل ما يخص الأردن ورجالها وأنظمتها.. الرجل كان "مصريًّا"، مما أعطانطباعا لهم أننا كلنا متشابهين. حاول والدي والمصريون الآخرون تهدئته منعًا لحدوث مشاكل والتعطيل العام لمصالح الجميع، فلم يستجب.. وزاد من سبابه ولعنه.. الأمر الذي

أدى إلى صراخ أحد مسؤولي التفتيش هناك بإعادة تفتيشنا مرة أخرى وفتح الحقائب هذه المرة بوحشية كادت تمزقها، وذلك كان من شأنه نشر الفوضى والجنون بين سائر الركاب بما يشمل "الجنسيات الأخرى". كادت الأزمة أن تتحول إلى مشكلة دبلوماسية، مشكلة قد تورط السعودية مع الأردن، مما كان يحتم على الضابط السعودي وقتها أن يتدخل بدبلوماسية وحنكة ليفض هذه الحريق المستعرة.

بعد عناء السفر بريًّا وقضاء ساعتين بالدخول إلى العبارة السريعة وإنهاء إجراءات الخروج من خليج العقبة.. بتنا أخيرًا في أرضنا الحبيب.. ميناء "نويبع" بسيناء".

"الجحيم على أرض الواقع".. هذا ما راودني وأنا أخطو أولى خطواتي على أرض "نويبع".. تلك الأرض التي سمعت عنها الكثير.. فكلما كان يذكر اسمها لعائلتي ممن سبقونا إلى الخارج، كانت سيناء تقرن بها. وكما تخيلت سابقًا السعودية كـ"الكعبة" قبل أن أرى الحقيقة بأم عيني.. تخيلت "سيناء" كما كان يروى لي.. تخيلتها منبع التاريخ وعظمة الأصالة وأرض الأحرار.. تخيلتها كمصيف يعج بالسياح من أنحاء العالم، وفنادق جمة على أعلى مستوى من الرقيّ والتقدم.. لكن كالعادة، لا أحد يطلعك على الحقيقة الكاملة.. إذ لم يخبرونا أننا قد نرى هذا الجانب "الآخر" من سيناء متمثلًا في ميناء "نويبع" البري.. الجانب المظلم إن شئت تسميته. لم أنس رائحة براز أحد الأطفال هناك عندما قررت أن أستريح قليلًا أنا وإخوتي من الشمس الحارة في بقعة صغيرة يحتضنها ظل إحدى البنايات القصيرة هناك.. المشهد لا يفارق عقلي.. طفل صغير

جالس بلا ثياب تستر أسفل جسده يتبرز في المكان الوحيد الذي يستره الظل فلا يجرؤ أحد على الجلوس هناك.. الذباب يلتصق بوجهك كما لو كان تطبع بطباع الناس هنا.. طباع سمجة.. الأطفال يلهون ويركضون حولنا وكأنها نزهة صيفية وأولياء أمورهم جالسون على الأرض بانتظار حقائبهم. أحاديث النساء لا تنقطع عن "كل شيء".. "عن كل شخص".. وعن "كل سر" يتعلق بهن أو بغيرهن. تأففت أمي ولم يتوقف أخوتي عن البكاء من الحر الشديد وعناء الرحلة وكأننا قد قيدنا بسجن ما أو نعاقب من والدي على شيء اقترفناه سابقًا. من هنا فقط.. بدأت النساء بالغناء وارتفع التهليل بتلك الأغنية الغريبة "رايحة فين يا حاجة يا ام الشال قطيفة.. رايحة أزور النبي محمد والكعبة الشريفة".. لا أعلم ما علاقة تلك الأغنية بالسفر إلى مصر، ولكن ما أضاف لهذا المشهد رونقًا خاصًّا هو مناداة أبي لي من مبنى وصول الحقائب والبضائع بصوت عال، فذهبت إليه وأنا أطرح سؤالًا تعجبيًّا واحدًا: "أليست تلك التي بجانبنا هي حقائبنا فقط؟؟ أم أن هناك المزيد؟". ركضت إليه تاركًا إخوتي وأمي في الشمس بجانب الحقائب.. دخلت المبنى والكثير من البضائع ملقاة على الأرض بمختلف أنواعها.. مبنى واسع بسقف من الزجاج وأرض رملية تفوح منها رائحة البول بمحاذاة الحائط والكثير من البضائع.. كأننا نتبادل شيئًا ما مع رجال مافيا في مكان مهجور والشمس تتخلل زجاج الأسقف. نظرت إلى والدي والدهشة تعلو قسمات وجهي..

-هو إحنا المفروض لينا حاجة هنا؟

-آه.. هاتلي عربية من الحديد اللي برا.

-عربية بعجل؟

-لأ بتطير يا عطوة.. يا ابني العربيات اللي بتتجر بعجل، هتلاقيها برا كده، هاتلنا واحدة.

انطلقت ولم أعد حتى أتيت بواحدة كبيرة.. وياليتني لم أعد.. إذ وجدت ما يقرب من العشرة كراتين بطولي تقريبًا، مستطيلة الشكل وأخرى بحجم تلفاز وأخرى بحجم "ثلاجة".. "إيه يا بابا ده؟؟!".. هكذا سألته بدهشة ليرد قائلًا ببرود لا أستغربه كثيرًا على أبي: "ديه شوية حاجات كنت شحنتهم قبلها بيومين.. حاجات للبيت كدة عالماشي، أهي سفرية مرة واحدة وخلاص.. وبعدين معانا وزن". بينما كان منشغلًا بترتيب الكراتين متنوعة الحجم على العربة لجرها إلى الخارج، حاولت أنا استراق النظر إلى مابداخل إحداها.. وجدت ما يقرب الأربع أباجورات وكرتونة أخرى تحتوي على "شجر بلاستيكي" للزينة.. كما أن هناك أربع كراتين ثقيلة جدًّا حملناها سويًّا أنا وأبي لوضعها على العربة.. كراتين تحوي أربع مناضد معدنية وزجاجها-أتعجب كيف لم ينكسر بطريقة النقل تلك- وكل ما تشتهيه الأنفس من مكملات منزلية صغيرة. عشرة كراتين بهذه الأحجام إضافة إلى ست حقائب من نوعية "رحلة سعيدة" القماشية كالشوال في تمام الساعة الثانية ظهرًا متجهين بها إلى السوبرجيت لقطع مسافة أخرى ليست بهينة إلى القاهرة. كانت الشمس قد نالت منّا وقضت على ماتبقي لنا من صبر، فزاد مستوى غضب أحد الحمالين الثرثارين، لم يتوقف عن الكلام

والمناهـــدة لعـــرض خدماتـــه فـــي حمـــل الحقائـــب.. يتجنـــب والـــدي الحـديث معـه رافضًـا أيّ خـدمات منـه حتى بعـد إصـرار والـدتي، لـم يقتنـع أبي يومًـا بفكـرة الحمـالين في مصـر.. يـرى أنهـم كثيرو الحـديث قليلـو الفعـل.. تحمـل كـل فـرد مـن العائلـة دفـع العـربتين الكبيرتين مـن دون مســاعدة مــن الحمــال وهــو لا يــزال ملازمًــا لنــا ولا يكــف عــن الحـديث "أشـيلهالك يـا باشـا.. يـا باشـا.. يـا بيـه".. وأبـي لا يـرد سـوى"يـا عــم أنــا لا باشــا ولا بيــه.. حــل عــن ســمايا".. ولا يــزال الرجــل يحــاول مــرارًا وتكــرارًا "طــب خمســين جنيــه بــس.. خمســين جنيــه يــا بيــه وأريحــك انــت والأولاد".. بــلا جــدوى. حتى آخـر متر مـن المسـافة التي قطعناها إلى الحافلة توقف الحمّال بجانب أبي ولم يبرح مكانه..

-نعم.. فيه حاجة؟؟

-لا يابيه مفيش.. بس مفيش حاجة علينا كده؟؟

-حاجـة إيييييـه؟؟!! يعني إنـت جـاي ورانـا كـل المسـافة ديـه وإحنـا اللي جارين العربية وجاي تقوللي حاجة؟؟

-يا بيه منا قلتلك أشيلهوملك وإنت رفضت..

-يـا سـيدي أنـا جـريتهم لوحـدي مـع ولادي.. انـت مـال أهلـك.. غـووور بقي أنا مش طايق نفسي.. ياباااي!!

صــمت الحمــال قلــيلًا ومــن ثَــم أردف قــائلًا بضــحكة صــفراء رفعــت الســكر بمســتوى دم أبــي: "طــب يــا بيــه مفــيش أي حاجــة كــدة لعــم عبده حتى؟؟!"..

تلك الكلمة كانت أشبه بكلمة السر التي أيقظت وحشًا كامنًا بداخل هذا الرجل الهادئ الوديع.. وحشًا أخذ يسب ما حوله من مخلوقات وجماد وبشر ويلعن السفر البري في كل زمان ومكان.

-أنا عاااايز أعرف بقى مييييين عم عبده ده اللي كل ما أسافر ف حتة يطلعلي؟؟؟!!!

-خلاص يابيه حقك عليا أنا آسف.

-آسف إيييييييه، وحياة أمي ما هتمشي النهاردة غير لما توريني عم عبده ده!!! يا أخي عايز أشووفه؟؟ أشووووف شكله عامل إزاي!!!

وبين تلك المشاجرة ظهر صوت "الحق".. صوت فخيم راكز يقول الكثير عن صاحبه.. صوت رجل خمسيني هادئ وعميق أتى من خلفنا يقول: "أيوة يا باشا.. أنا عم عبده".. هنا.. في تلك اللحظة، نظر كل من بالميناء خلفهم ولم يعبؤوا بحرارة الشمس العمودية على رؤوسهم إلى هذا الرجل أبيض الثياب ذي القميص البرتقالي المهترئ وشارب أبيض طويل منمق وقبعة بيضاء كما لو كان "قبطان درجة أولى" جالسًا على كرسي بلاستيكي أحمر اللون يستحلب نيكوتينه من سجائره ويسعل كما لو كان يدخن للمرة الأولى.. اقترب والدي منه شيئًا فشيئًا.. تناديه أمي "خلاص يا غازي.. خلاص يا غاازي خلينا نمشي".. وقبل أن يتفوه الرجل بكلمة بادره أبي بحديث يتبعه ابتسامة: "إنت بقى عم عبده؟؟!!.. إيه يا عبده؟؟.. مزعل الناس ليه يا عبده؟؟!"

-أباشاااا خلاص خليها علينا المرا ديه.

-ما انا هاخليها عليك فعلًا.. هو أنا كل ما أروح ف حتة هيطلعلي واحد يقولي حاجة لعم عبده؟؟!

-خلاص يا بييه والمصحف ما عايز حاجة!!!

بعد اعتذار صريح من الرجل وللمرة السابعة يتم إحراجي أمام الناس كما حدث سابقًا في العربة الوردية وغيرها.. انطلق السوبرجيت أخيرًا إلى أرض الكنانة.. تمنيت فقط لو أننا نصل ليس لأجل شيء، وإنما لأحاول نسيان تلك الرحلة البرية الغريبة.. تمنيت فقط لو أغفو أستيقظ على نسيان كل شيء.. ولكن السؤال هنا.. هل سأجد الأميرة بانتظاري كما كانت منذ عامين؟؟!

obeikan.com

(13)

بعـد نـوم عميـق كمـن أهلكـه التعـب قـتلًا اسـتيقظت مـن غيبوبـة دامـت عشـرين سـاعة تقريبًـا لا أدري مـا إن كنـت في صـباح اليـوم التـالي أم أننـا وقـت الغـروب.. لا أتـذكر سـوى أنـي متكئ على الكنبـة القديمـة ذات المراتـب الصـلبة كـالحجر بمنزلنـا بالأميريـة والسـاعة الخامسـة فجـرًا.. لا أحـس بشـيء سـوى الصـداع ذاتـه منـذ عـام وقـت عمـرة رمضـان. بحثـت في غـرف المنزل عـن أحـد غيري فلـم أجـد سـوى إخـوتي نـائمين وخـالاتي الاثنتـين وأبنائهمـا وأمـي في غرفـة نـائمين كـالقتلى، وأزواجهـن وأبـي بالغرفـة الأخـرى.. فقـط. أتجـول وحيـدًا والنـاس نيـام في شـقتنا الصـغيرة كمـا لـو كنـت أتفقـدها للمـرة الأولى بحيـاتي.. مـا هـذا؟؟!.. كـل شـيء صـغير.. كـل شـيء ضـيق.. أفـتح بـاب الحمـام لألبـي نـداء الطبيعـة فـإذا بالحـائط يصـطدم بـوجهي.. أيـن الحمـام اللعـين؟!!.. نظـرت أسـفلي لأجـده لـم يحـرك سـاكنًا منـذ أن تركنـاه، ولكـن كـل شـيء صـار أكثر ضـيقًا.. الغـرف أصـغر والمطـبخ لا أسـتطيع حتى الوقـوف فيـه وغسـل كـوب مـاء لأروي عطشـي.. "أهـذا حلـم سـيء؟؟!".. هكـذا حـدثت نفسـي بصـوت عـالٍ.. أتلـك حقًّـا شـقتنا القديمـة؟؟لا أزال غيـر مصـدق لـك تفصـيلة تغيـرت بهـا، ولا أدري إن كنـت أنـا مـن كبـرت بـالحجم أم أن الشـقة صـارت أصـغر بمـرور الوقـت.. أم أن تلـك خيـالات مـن جـراء السـفر وصـداع الـرأس المـلازم لي منـذ اسـتيقاظي!! لعلي بحاجـة إلى الراحـة الآن وعنـدما أسـتيقظ سأجد كل شيء كما كان.. بالطبع سيعود كما كان.

"جلست والخوف بعينيها تتأمل فنجاني المقلوب، قالت: يا ولدي، لا تحزن، فالحب عليك هو المكتوب". كلمات الأغنية المتقطعة من مذياع قديم لا يزال بالمنزل منذ أن تركناه أيقظتني بعد بضع ساعات منذ استيقاظي في شبه الحلم السابق.. الذي اكتشفت فيما بعد أنه "ليس بحلم".. بل كابوسًا حقيقيًّا. البيت يعج بالأقارب وأنا أحاول استيعاب ما يجري.. الكل غريب الشكل والهيئة.. الكل يرتدي ملابس المنزل من جلاليب وعباءات وإسدال.. الكل سعيد ويبدو علينا المرح وفرحة اللقاء.. لكن هذا المنزل لا يبدو كما تركته.. لا يزال أصغر مما سبق.. أعلم أني قد أكون سمينًا بعض الشيء، ولكني لست دبًّا قطبيًّا لأسبب هذا الزحام.. المنزل لم يعد كما كان!. كان على أحدهم النزول لإطعام أفواه قد تنهش عظامك نهمًا وجوعًا، وبالطبع وكّلت أنا بتلك المهمة الإنسانية.. ارتديت "شبشبي ذا الإصبع" كما كان منذ عامين وانطلقت حاملًا حقيبة الخبز القماشية كما كانت بالضبط وكأن شيئًا لم يحدث.. كأن عامين في السعودية لم يخلقا في الأصل.. كأنه كان حلمًا قصيرًا جدًّا وانتهى. لم أكن أدري وقتها لم كل شيء غريب، منذ نزول سلم العمارة المتآكل حتى اختفت معالمه وصار كسلالم الأهرامات، وحتى أهل الحي بالحارة بشارع التحرير.. هل أنا الوحيد الذي يرتدي بيجامة بيضاء مرتسمًا عليها شخصيات "السنافر" وشبشب حمام مطاطيًّا؟؟! الكل يرتدي زي الخروج، والكل يضع العطر.. الكل يضع مستحضرات التجميل و(جيل) الشعر كما لو كان هناك حدث بالشارع.. الكل في أبهى حلة له والساعة لم تتجاوز التاسعة صباحًا.. ماذا بكم ياقوم؟؟! أتجول بالشارع محاولًا التعرف على أي

Obeikan.com

شخص عرفته سابقًا.. لا أحد.. لا عم جرجس.. لا عم توفيق العجلاتي.. مهلًا لحظة؟؟! يبدو أن عم توفيق قد غير نشاطه إلى الأبد، المحللم يعد كما كان، لم يعد "عجلاتي التوفيق".. بل صار صالون حلاقة رجاليًّا كبيرًا.. لكن كل من بالداخل صغار السن.. ماذا جرى لك يا عم توفيق؟!. مررت بجانب بائع البيض الوحيد بالشارع لانتقاء بيض أحمر يكفي لإطعام خمسة عشر شخصًا على الأقل.. دخلت على الرجل في ثقة "إنك ميت وانهم لميتون".. أخرجت من جيبي "جنيهًا واحدًا ورقيًّا" ومددته إلى البائع الطاعن في السن بإصبعيْ السبابة والوسطى وكأنني أمنّ عليه بهذا الجنيه، وفي نبرة صوت حازمة واثقة أمرته: "خد يا عم، إديني بجنيييه بييض".. نظر إليّ العجوز في استغراب وقبل أن ينطق بكلمة أخرى كررت سؤالي بأسلوب أفضل:

-إيه يا عم.. بأقوللك هاتلي بجنيه بيض..

-ياه يا أستاذ.. بجنيييه بيييض؟؟

-آه يا عم.. انت أول مرة حد يشتري منك بالكمية ديه؟!

-كمية؟؟! يا ابني انت باين عليك إبن ناس ومحترم.. مايصحش كده!

-هو إيه اللي مايصحش يا عمو..

-عمو!!! مش بأقولك باين عليك إبن ناس..

-لو مافيش أكياس عندك تشيل الكمية خلاص هاتهوملي في كرتونة بقى مش مشكلة.

-أكيـااس إيييـه؟؟!! يـا ابني مـاتخلينيش أسـب لـك عالصـبح.. إنـت مين يلاااا؟؟!! أبوك مين؟؟! تبع أنهي عمارة؟!!

حاولـت تهدئتـه حتى تنهـد الرجـل تنهيـدة استسـلام بعـد أن تأكـد أنـي لا أدعي الغباء.. نظر إليّ نظرة تفحص أخيرة ومن ثم أشار إلى ورقة من الكرتـون كتـب عليهـا الأسـعار.. في نفـس اللحظـة أخـرج كيسًـا صـغيرًا ووضـع بـه بيضـتين فقـط وصـرخ: "مـا اشوفشـي وشـك هنـا تـاني.. فـاهم يـلاا؟؟!!". البيضـة بخمسـين قرشًـا؟؟!! عامـان فقـط رفعـا الأسعار حد الجنـون!! ربمـا لـم أوفـق في مشـوار البـيض.. ولكني حتمًـا سـأوفق أمـام مخبز "الفينـو".. وقفـت في الصـف كعـادتي دومًـا منـذ عـامين.. لكـن هـذه المـرة الأحاديـث اختلفـت.. الكـل يتحـدث عـن عـم توفيـق وتغيير نشـاطه.. يبـدو أن صـالون الحلاقـة أمـر جديـد لـم يتعـدَّ إنشـاؤه بضـعة شـهور. فـور وصـولي لنهايـة الصـف وتسـلمي دوري في الطلـب، طلبـت مـن الخبـاز إيتـائي خبـزًا بمـا يعـادل ثلاثـة جنيهـات.. غـاب الرجـل خمـس دقـائق وعـاد بكـيس بلاسـتيكي شـفاف يحـوي عـددًا أقـل ممـا كنـت أحصـد سـابقًا.. كمـا أن شـكل الرغيـف وحجمـه ليس كالمعتاد.

-حضرتك أنا عايز بتلاتة جنيه فينو..

-أيوة يا باشا ماهو ده بتلاتة جنيه!

-لأ حضرتك مش فاهمني.. أنا عايز فينو.. مش بقصمات!!

-يا بيه ماهو ده فينو..

-ده فينو؟!! هو مش المفروض أعرض من كدة شوية؟؟!

-مفـرووض؟؟ "مفـرود" عنـد المكـوجي يـا بيـه.. هـو ده اللي موجـود!! هو البيه مش من هنا؟!

ربمـا "بيجامـا السـنافر" التي أرتـديها هي مـا تسـبب الـنحس لي هـذا اليـوم.. لا شـيء عـاد كمـا كـان. كيـف لنـا أن نعـيش هنـا بعـد ارتفـاع الأسـعار هكـذا في عـامين فقـط.. مـاذا سـيحدث إن غبنـا أكثر.. كمـا أن هـذا الشـعور لا يفـارقني منـذ اسـتيقظت صـباح اليـوم.. وكأننـا هبطنـا على أرض جديـدة.. كوكـب نـاءٍ بحاجـة إلى التكييـف فيـه مـن جديـد.. حتى وإن فكرنـا بـالعودة كمـا كنـا قبـل السـفر، فلـم يعـد بمقـدورنا ذلـك.. كيـف يمكننـا نسـيان الريـاض بملـذاتها وشـوارعها الواسـعة ومنازلهـا الفارهـة.. حتى الأطعمـة هنـاك لهـا مـذاق خـاص.. الطعميـة هنـا يمكنني رؤيـة الحصـى والأتربـة بهـا.. هنـاك كانـت تصـنع بآليـات خاصـة تظهرهـا بمظهـر يسـر العـين قبـل المعـدة، أمـا هنـا.. فبيـدين قـذرتين تُصـنع، وبـالتراب تُـدَعّم.. كيـف لي أن أتـأقلم مـن جديـد وأنـا بالكـاد أشـعر بالضـيق في السـاعات الأولى فقـط. قطـع تفكيـري مـن يلكزنـي في كتفـي مـن الخلـف.. التفـتّ إليـه في غضـب وعصـبية.. توقفـت للحظـة عـن الكـلام ومـن ثـم تـذكرت تلـك الملامـح السـمراء القاسـية وهـذا الشـعر المجعـد الـذي يمكنـه جـرح أصـابعك إن مررتهـا عليـه.. تـذكرت تلـك الأسـنان الصـفراء بخـط بني يقطعهـا بـالعرض الواحـدة تلـو الأخـرى.. تـذكرت تلـك الابتسـامة التي تركتهـا منـذ عـامين ولا تـزال حتى الآن كمـا كانـت مـع تغير طفيـف.. "يخربيـت سـنيييينك.. .سيد؟؟!!"..

(14)

"يااا ترا يا حبيبي يا ترى.. إنت فين ياحبيبي، ياترى.. عااامل إيه يا حبيبي ياترى.. اااه.. قريب ولّا بعييد.. ولّا، حزين ولّا سعيد.. واللاا.."

بينما كنا نتجول كسابق عهدنا أنا وسيد في شوارع وأزقة الأميرية.. لم نمر ببقعة أو محل أو كشك صغير بزوايا الحارات إلا وكانت أغنية "بهاء سلطان" الجديدة ترج أرجاء المكان وتهتز لها جدران العمائر المهترئة.. لا شيء عاد كما كان وكأنني غبت أعوامًا.. الشيء الوحيد الباقي على حاله هو "سيد".. لكنه صار أكثر حنكة من ذي قبل، في الواقع جمع كل صفات "المحتال الحقيقي" كما تركته قبل سفري. تحدثنا عن كل شيء وكل شخص يهمنا أمره أو لا يهمنا.. الغيبة والنميمة كانت السمة الأساسية لحديثنا طوال أسبوع كامل بمصر.. لم أغادر حدود الأميرية تقريبًا إلا إن كان لزيارات الأهل. منذ أن توفي عم توفيق لم تعد حرفة إصلاح الدراجات بالأمر الذي يدر عائدًا مجزيًا على سيد، خاصة وإن كان المحل كتب باسمه بعد وفاة جدّه.. الأمر الذي لم يترك له مجالًا سوى إضافة بعض التغييرات لرفع سيولة الأموال والمكسب.. بدءًا من تأجير الدراجات البخارية بدلًا من العجل فقط، وانتهاءً باقتناعه التام بأن كل شيء لن يكون على سابق عهده.. وعليه، قرر تغير النشاط إلى صالون الحلاقة الرجالي الذي لطالما كان أسوأ ما يمكن أن يمتهنه سيد.

أذكر أني تركت هذا الوغد الأسمر يعبث بشعري البني الناعم ذات مرة بمقص عم "حمزة" حلاق المنطقة، وفي غضون بضع ثوانٍ حول رأسي إلى أرضٍ زراعية تم تجريفها بطريقة مهينة وانتهى الأمر بخصامنا أسبوعين متتاليين.. لكني لا زلت أحب هذا الوغد. عائلتي لا تزال تستقبل وفود الزائرين من أعيان "منفلوط" وطنطا وبعضًا من أقارب لا أسمع عنهم إلا إن كان هناك كلمة من كلمات السر الجاذبة لهم كـ(نقود–مال–شراء-مشروع مشترك - نقود-سلفة أو دين–نقود- استشارة طبية مجانية من والدي–نقود-وصفة أعشاب من والدتي–نقود-نقود.. وأخيرًا، "فلوس"). أذكر أن أحدهم أتى زيارة هو وحرمه وأبناؤه من ذوي الدم "البارد" وقد كانت المرة الأخيرة التي رآه والدي فيها منذ أكثر من عشر سنوات.. الرجل كان ذا جلد سميك-كما وصفته أمي دومًا- لا يعبأ بأصول ضيافة أو حرمات المنازل.. جلس وتناول الغداء كما لو كان يختبر إحساس التذوق للمرة الأولى في عمره، وزوجته تلك "رأس الثعبان الحبشي" لم تكف عن توجيه الحديث الماسخ إلى والدتي ونصحها بعدم العيش مرة أخرى في مصر معللة: "البلد بقت لا تطاق.. مايتعاشّي فيها". فور تناول الغداء ختمنا اليوم بفناجين شاي "العروسة" في بلكونة شقتنا القديمة، وبدأ سيل من المحادثات بين والدي وسميك الجلد هذا في كل مايتعلق بـ"مستقبل أفضل".. ومحور الحديث كان عن ضرورة شراء أبي لعيادة خاصة، فما عاد شيء مضمون بهذا الزمان.. أعلم جيدا أن والديّ يكرهان تجاذب أطراف الحديث مع أقارب البلد، فالحسد والحقد وسواد القلوب لا يأتي دومًا إلا من زياراتهم. بعد أن أراح والداي قلبيهما بوعود

بالتفكير في نصائح زوجي الأفعى هؤلاء.. عزما على المغادرة أخيرًا.. وقبل أن يفارق الرجل سميك الجلد باب الشقة، لمح حقيبة جلدية سوداء فاخرة كان أبي يضع بها أوراقه ونسخًا احتياطية دومًا كما اعتاد.. نظر الرجل إليها نظرة شراهة أظهرها جحوظ عينيه فبادر أبي بالحديث: "حلوة أوي الشنطة ديه يا غازي.. حلوة حلوة يعني!!". لم يستطع أبي الرد وقتها سوى بعزومة "المراكبية" المعتادة في الفولكلور المصري: "ياباشا ماتغلاش عليك والله".. وكان رد الرجل فورًا على رد والدي هو الأكثر وقاحة مما رأيته بحياتي .. الرجل لم يتردد كثيرًا فأمسك بالحقيبة في طمأنينة وثقة بالغة بأن والدي لن يرد كلمته ومن ثم أردف قائلًا: " ياغازي طول عمرك صاحب واجب والله، خلاص والله ما هرجع كلمتك".. وسحب الحقيبة وانطلق هو وزوجته، حتى كادت أمي أن تسبه فأمسكت لسانها واكتفت بذكر اسم أبي بصوت عالٍ: "غاازي!!!!! الشنطة"، ليوقف أبي الرجل ولم يستطع من فظاعة أخلاقه وفجاجة تصرفه أن يرد كلمته.. قال مستنكرًا التصرف: "طب استنى طيب آخد الورق اللي فيها يا عبد الباري.. إستني يا أخي.." .. وانصرف الرجل.. وساد صمت مطبق أرجاء المكان ومن ثم ضحك كل فرد بالعائلة.. ألا الويل لأقارب البلدة!

حاول سيد أن يجعل للفرحة طريقًا إلى قلبي، فبعد أن مرّ ما يعادل نصف إجازتنا هنا لم أجد بديلًا لخروجاتنا إلى الأهل لتسليم هداياهم وإنهاء أمور تتعلق بشراء شقة جديدة بدلًا من شقة الأميرية-مما أسعدنا وأعطانا ثقة بأننا على الطريق الصحيح-

وأشـــياء لا علاقـــة لهـــا بـــالمرح كـــأن تتوســـط أمـــي لـــدي صـــديقاتها القـــدامى لحـــل مشـــكلاتهم وإنهـــاء مشـــاجرات لا تنتهـــي.. كـــأن الجميـــع ينتظرنـا بفـارغ الصبر ليصـب علينـا لعنـات السـنة.. ليصـبوا علينـا مـن مشـكلاتهم ويشـركونا في آراء لا علاقـة لنـا بهـا، وفي النهايـة.. كـلٌّ يتبـع هـواه وعقلـه بإحكـام دون الأخـذ بنصـيحتك.. كـلٌّ يعلـم مصـلحته.. ولكـــن إن شـــئت تســـميتها بعـــلاج بالـــ"فضفضـــة" ونميمـــة لإراحـــة النفس.. فلا بأس بهكذا اسم..

-فاكر فؤش بتاع شرايط الفيديو يلا؟؟

-فؤش.. هو ده يتنسي؟!.. هو لسا بيبيع "سيمبا"؟

-ســيمبا إيــه يــا ابنــي.. أنــا هارووووقــك.. عــاملين قاعــدة كــدة أنــا والعيال في بيت مهند.

-يـا عـم سـيد أنـا دايـس معـاك ف أي حاجـة.. والله نفسـي أغـور مـن هنا والأجازة تخلص بسرعة.

-هاظبطك.. سيبلي نفسك خالص..

لا يـزال محـل الأشـرطة المسـروقة بـالحي كمـا كـان.. كشـك صـغير لا يتعـدى الثلاثـة أمتـار.. لكننـا اعتـدنا تسـميته بالمحـل. ماكـان يضـحكني حقًّـا بشـأن هـذا المحـل-و لا زال يفعـل- هـو ترجمتـه الغريبـة لعنـاوين الأفـلام. بعـد السـلام الحـار والتحيـة الطيبـة على عـم فـؤاد، عـزم على إعطائنـا شـريطًا لفـيلم أكشـن مجانًـا احتفـالا بعـودتي إلى الشـارع مـن جديـد. الفـيلم لــ"جـاكي شـان" بعنـوان "قنـاص المدينـة" (city hunter).. لكننـي قـرأت عنوانـه المترجم بلغـة "عـم فـؤش" وكـادت معـدتي أن تنفجـر مـن الضـحك.. العنـوان مترجم إلـى: "وحيـاة أمـي

لأنـتقم".. يتحـدث عـن ضـابط في المخـابرات السـرية يحـاول إنقـاذ ابنـة رجـل أعمـال معـروف بالصـين، ومـن ثـم يتـورط "جـاكي شـان" في صراع طويـل مـع عصـابات المافيـا.. حيـاك الله يـا عـم فـؤش على هـذه الترجمـة. يومًـا بعـد يـوم وليـالي الفيـديو باتـت هـي متنفسـي الوحيـد لإنهـاء الإجـازة الكئيبـة هنـا.. بـدأنا بفـيلم "وحيـاة أمـي لأنـتقم" لجـاكي شـان، فـيلم "ولاد المتضـايقة" لشـاروخان.. وأخيـرا فـيلم فـان دام "the kick boxer" وترجمتـه الحرفيـة إلى: "المُهلِك".. ولـم ولـن أنسـى المشـهد فـي منتصـف الفـيلم عنـدما قـرر أحـد رجـال العصـابات الماليزيـة قتـل فـان دام فحـاول الـزعيم إشـعال غضـب المقاتـل واستفزازه ليفتك بفان دام:

-هل تريد قتل ابن السافلة؟؟!

-....

-تكلـم يـا "نـاكح الأمهـات" (Mother Fucker).. هـل تريـد قتـل ابـن السااافلة؟؟!!

-نعم أريد قتل ابن السافلة.. وسأفعل..

ألا لعنـة الله علـى "التعلـيم المجـاني".. الويـل للأميريـة ومـا يحـدث بهـا مـن تلـوث تعليمـي.. الترجمـة الحرفيـة كانـت تقتلني ضـحكًا مـع أن الفـيلم قتـاليّ ومليء بالألفـاظ البذيئـة.. كـان الـدافع الحقيقـي لجلوسـنا أمـام تلـك الأفـلام هـو "الضـحك حتى القـيء".. لا نعبـأ بقصـة الفـيلم، فقـط الترجمـة القاتلـة ضحكًا. في إحـدى جلسـات القهـوة على ناصـية شـارع التحريـر، تطرقنـا أنـا وسـيد وبعـض مـن أصـدقاء الشـارع عـن فكـرة المـدارس الحكوميـة هنـا.. وتـذكرت كيـف

أن والـدي في البدايـة كـان معارضًـا أشـد المعارضـة دخـولي إلى مـدارس أزهريـة حكوميـة.. تأكـدت اليـوم فقـط مـن صحـة قـراره. روى لي سـيد أنـه في أحـد امتحانـات العـام الماضـي لمـادة القـرآن الكـريم بفروعـه مـن فقـه وتوحيـد وتفسـير تقـدم أحـد الطـلاب بجانبـه لتسـميع إحـدى السـور وتفسـيرها، وكـان المعلـم شـيخًا ضـريرًا بالكـاد يشـعر بمـا حولـه، ولكنـه أوتـي مـن الفطنـة والـدهاء مـا أهّلـه لينـال مرتبـة عاليـة وسـط جمـوع المدرسـين.. الشـيخ الضـرير جلـس وبـادر بسـؤال "شـوكة"-الفتى بجانـب سـيد في الامتحـان- عـن تسـميع سـورة "الفيـل".. فقـال الولـد - و هـو الـذي لا يـذكر في الأصـل أن في القـرآن سـورة تـدعي "الفيـل- شـيئًا مـا مـن مخيلتـه الواسـعة، اسـتعرض فيهـا "غبـاءً يجـب علـيهم تسجيله في موسوعة جينيس":

-"الفيـل.. مـا الفيـل.. ومـا أدراك مـا الفيـل.. أنفـه طويـل.. وذيلـه قصير"..

صـمت المـدرس للحظـات دامـت ثـوانٍ معـدودة، ومـن ثـم ابتسـم وهـو يشـعر بالولـد على يمينـه حتى وإن كـان لا يـراه رأي العـين.. ابتسـم أكثر ومـن ثـم نظـر إليـه نظـرة وصـفها لي سـيد ببضـع كلمـات: "وعهـد الله يـاعطوة كنـت هعملهـا علـى روحـي".. ثـم الـتقط عصـاه المطاطيـة المصـنوعة مـن خرطـوم برتقـالي اللـون بداخلـه خرزانـه حـادة مرنـة ويغلفهـا شـريط لاصـق لإمـدادها بقـدرة علـى اللسـع تفـوق حجمهـا بمراحل، ومن ثم صرخ:

Obeikan.com

-"بقى الفيييل أنفه طوويل وذيله قصيير! الفيييل أنفه طوييل يا ابن الفيييلة؟!!! هو ده القرآن اللي بتتعلمووه؟؟!! بترتجل ياروووح خالتك؟؟!! أومال لو جولتلك سمعلي صورة النمل، هاتجولي إيييه؟؟، هاتجوللي: أول ما عرفت إن السكر بيدوب في المايه إعتزلت السباحة؟؟!!"

وانهال عليه بالضرب مشهرًا سلاحه العتيد.. ولم يمنعه ضياع نظره من ملاحقة "شوكة" وكأنه يراه أفضل من غيره.. لم يخطئ ضربة واحدة. لم أكن أدري ماذا عليّ أن أفعل.. أن أضحك على هذا الموقف، أم أتحسر على ضياع أجيال لا أعلم إن كانوا يستحلون تحريف آيات القرآن للنجاح فقط وهم بمثل هذه السن.. فماذا يمكن أن يصبح حد تجاوزهم إذا ما أنهوا الجامعة.. رحماك ياربي.. رحماك ياربي.

صبيحة اليوم الخامس والعشرين من إجازتنا الصيفية المريبة أفقت من نوم لم يدم ثلاث ساعات.. على أمل أن أجد شيئًا جديدًا أفعله في تلك البلدة التي بالكاد عدت أعرفها.. ماذا حدث لي.. ماذا حدث "لنا" جميعا؟!! ما بال الغربة هي حالي في بلد اعتدت فيه الألفة وألصقت بصماتي على جدرانه وآثار أقدامي لا تزال محفورة على بقاع لم يمر بها أحد سواي.. الهواء اختلف، الطعام اختلف.. البشر ليسوا كما تركتهم.. الكل يدب منخاره بأمورك كما لو كنت مزارًا للعامة، وإن شئت مشاركتهم شيئًا ما دفعوك بعيدًا طريدًا بينهم.. لا يحق لك التدخل في شؤون غيرك، لكن شؤونك لا تخصك وحدك.. وكأنك ببيت من زجاج وسط حارة تعج بالمعتوهين

والمتطفلين. حاولنا كسر روتين اليوم بالخروج خمستنا كعائلة مستقلة حرة للمرة الأولى منذ بداية الإجازة.. وحدنا فقط بدون الأهل والأقارب الدائمين بالجوار وكأن منزلنا كان مهربًا للجميع من آلامهم ومشاكلهم.. ربما هكذا كان شعوري وقتها بتلك الإجازة الغريبة.. كأنك خلقت فقط لتمتص آلام الغير حتى آخر يوم من إجازتك ومن ثم تعود من جديد إلى أرض اعتدت تسميتها بالغربة وقد باتت لك هي الوطن. توجهنا إلى أحد مطاعم الطعام السريع الشهيرة.. جلسنا على منضدة بالكاد تكفي مقاعدها المعدنية لنا، وإن كان النادل اضطر إلى إحضار كرسيين آخرين كما لو كان عدد الخمسة أفراد هو عدد غريب في تلك المدينة. المنضدة صغيرة لا تكفي لاحتواء وجبات فردين، فطلب والدي من النادل خدمة أخرى بإحضار منضدة أخرى لتوسيع المجال.. تقبلها النادل كما يتقبل طفل صغير بلع دواءٍ مرير، وكأنه يسدي إلينا معروفًا. المطعم الذي اعتدنا الذهاب إليه في المناسبات كأحد أفضل الأماكن التي شعرنا فيها بالبهجة كلما زرناها لم يعد الآن سوى مطعمٍ صغيرٍ ضيق المساحات، قذر الجدران، خانق الجو، كريه الرائحة.. بل في الواقع تفوح منه رائحة المنظفات الأرضية النفاذة فتشوش على روائح الطعام الداخلة إلى أنفك وتثير تقلب معدتك. لم يتوقف الأمر على ذلك فحسب.. أنت جالس كما لو كنت مراقبًا من الجميع.. كلما حاولنا التهام قطع الدجاج المقلي ننظر يمينًا ويسارًا لنجد كل من حولنا يتابعون وبشغف حركات أفواهنا تقضم الدجاج.. ما بال أولئك الحمقى.. "لم تنظرون إلينا؟؟! أترونا نرتدي ملابس مهرجين؟؟! اللعنة عليكم!!".. هكذا تعالى

صوت والدي في الجالسين حولنا كما لو كان يشعر بمثل ما شعرت به. في الرياض كانت المطاعم تحوي دائمًا قسمين.. قسم "العوائل" كما يسمونها وقسم "الأفراد". في بداية ذهابنا إلى هناك كنا نظن بأن تلك رجعية وتخلف قَبَلِيّ.. لكن أن تختبر عيون الناس تتفحصك وأنت تلتهم طعامك كما لو كنت ترتكب جريمة، فتخفض من صوت التهامك أو تدعي تطبيق "الإيتيكيت".. فهذا ضرب من الجنون، ولعلي أفضل الآن البقاء في دولة "رجعية" أشعر فيها بالراحة، على أن أبقى هنا كالمُرَاقَب على الدوام. أنهينا غداءنا ومن ثم انطلقنا إلى أحد أسواق الملابس التي اعتادت أمي الطواف بها ذهابًا وإيابًا طوال اليوم وإرهاقنا حد الموت ومن ثم "لا شراء".. فقط "ناخد فكرة". تجولنا كما لو كنا نتجول للمرة الأولى هنا.. الأزياء غريبة بعض الشيء عليّ، ولا سِيّمَا الأزياء الرجالي. أعلم أن الحياة تتطور والأزياء دومًا في تقدم، لكني اعتدت ارتداء البنطال ذو "السَحّاب".. فأن أجد كل ما بالسوق سراويل جينز بأزرار بدلا منه لهو أمر لو تعلمون عظيم! مالِ الألوان كلها متشابهة؟ لا جديد.. ربما الآن فهمت لم الجميع هنا صاروا نسخًا عن بعضهم. أشارت أمي إلى أحد القمصان طالبة مني قياسه، عللت ذلك بأن لونه لا يوجد بالرياض وقد قررت شراءه لي كتذكار.. لا أريد شيئًا من تلك البلدة، فقط أريد العودة إلى المنزل فقدماي وأسفل ظهري ما عادا يتحملان أكثر، لكنها أصرت على دخولي هناك وقياسي له.. فإذا بالبائع يبادرها سريعًا بالرد: "لا يامدام ماتلاقيش مقاسه". تلك الكلمة القاسية التي يمكنها قلب مزاجك رأسًا على عقب.. ردت أمي بعصبية امرأة غيور على ولدها البِكر:

Obeikan.com

-يعني إيه ما الاقيش مقاسه؟؟! هو أنا جاية أجيب قميص لفيل؟؟!

-يا مدام ماقصدشي والله.. أنا بس قصدي..

-قصدك إيه؟؟! إبني تخين يعني؟؟!

-يا افندم مش قصدي.. هو بس ابن حضرتك "مليان شوية".. شويتين!!!

-ده مليان ده؟؟!!.. إنتو بتجيبوا مقاسات لعصافير الظاهر!!!

ليتك صمتِّ يا أمي.. الآن بات الحديث علنيًّا أمام كل من بالشارع، وتدخل أحد التجار المجاورين بكلمة لعله يهدئ من روع هذه الأم الغاضبة: "خلاص يا افندم حضرتك اتفضلي معايا وأنا هنا ملك المقاسات الكبيرة.. عندي إكس إكس إكس لارج".. لتستشيط أمي غضبًا قائلة: "إنتو بتتكلموا جد ولّا هزار؟؟! ده طفل في اعدادي!! هو إيه اللي جرى في الدنيا؟! مفيش غير مقاسات عصافير؟؟!!". انتشلنا أبي من "الحفلة" التي كادت أن تقام على شرفي واستقللنا أول سيارة أجرة التقطتها عيناه وانتهى يوم آخر زاد من كرهي لمصر!

كان لابد لنا من استغلال آخر عدة أيام بالإجازة هنا.. كان علينا جميعًا كآل غازي التفكير بشيء ما.. وأقرب ما يمكن أن يخطر ببالنا في مثل هذا الوقت من العام هو "المَصيَف". كثيرون هم من حاولوا مجاملة والداي بعروض تشمل أربعة أيام بإحدى قرى الساحل الشمالي أو مرسى مطروح.. كثيرون من حاولوا إرضاءنا حتى بإحدى ممتلكاتهم من شاليهات صغيرة ستكون بين أيدينا

نصنع بها مانشاء.. ولكن.. كيف لنا أن "نفرح"؟؟! كيف لنا أن نقضي إجازة صيفية كـ"سائر البشر".. يتبادر هذا السؤال دومًا إلى ذهني، ولكن هذه المرة تحديدًا سألت والديّ عن ما إذا كان من "الحرام" أن نذهب إلى إحدى مصايف التلفاز ولو لمرة واحدة بحياتنا!! لم علينا دومًا قضاء أفضل خمسة أيام في الإجازة-بل في العام كله- في بحور الإسماعيلية وفنارة وفايد؟؟! لا فائدة من المحاولة، فمن الطبيعي أن نعتاد على سماع الإجابات ذاتها في كل مرة: "يا حبايبي الحتت ديه قريبة وفي نفس الوقت عماااار.. يعني هتبقي جوة المدينة.. عايز تجيب أكلك شربك وتتفسح جوة البلد، لكن الحتت التانية ديه نائية.. إيش فهمكم انتو!!".. وكأننا نفعل أيًّا من هذا!!

-يافاطمة ساحل شمالي إيه ومارينا العلمين إييه!! أنا هاظبطلكوا حاجة تبع الجيش.

-يا سعاد الولاد عايزين يغيروا.. وبصراحة كدة مش كل سنة في فايد!!

-مالها فايد؟؟! ولّا نسيتي ههههه (ضحكة رقيعة).. ده إحنا قضينا فيها أحلى شهر عسل..

-طيب هاسألهم وأرد عليكي.

وبالفعل قامت أمي بطرح السؤال علينا.. قامت بطرحه فقط لكي تكون صريحة أمام الله عندما أقسمت لطنط سعاد على استشارتنا والأخذ بنصيحتنا، ولكن.. يبدو أنه لا فائدة من النواح.. نحن قادمون إليكِ يا "فايد".

قرية تابعة للجيش بها أبنية صفراء اللون قصيرة الطول تتكون من ثلاثة طوابق كحد أقصى وبحر أخضر اللون ورمال صفراء وجو من الهدوء القاتل وكأننا الوحيدون في تلك القرية. الشمس الحارقة آثارها على جلودنا، فلا يقاومها مستحضر تجميل أو ظل ظليل.. فقط عليك الانتظار حتى مقاربة الشمس على الغروب والرحيل تاركة جزءًا من ضوئها على الشاطئ وبعض من دفئها لتنعم بآخر ساعتين من البحر قبل أن يخيم الظلام.. لكني لم أستطع مقاومة الهدوء والشاطئ الذي يكاد يكون لنا وحدنا فقط. انطلقنا أنا ومنعم وجازمينا مرتدين ملابس البحر تاركين خلفنا كل المخاوف من الحرق والتسلخات وتقشير الجلد في المياه المالحة.. فقط كل ما أردناه هو اغتنام كل لحظات السعادة وقتها تعويضًا لما ضاع من أيام الإجازة بهموم الآخرين. ركضنا وركضنا على الرمال الساخنة نلهو ونطوف الشاطئ ذهابًا وإيابًا.. حتى سمعت صوت محركات سيارات من مسافة بعيدة.. صوت لا يشبه السيارات كثيرًا، وإنما شيء أقرب إلى موتور وسائل النقل الرديئة.. توقفت للحظات أنظر على جانبي هنا وهناك والبحر أمامي حتى تيقنت في لحظات أن الصوت قادم من خلفي.. نظرت أنا وإخوتي إلى الخلف ببطء وصوت الضجيج والهتاف يعلو شيئًا فشيئًا.. يقترب أكثر.. أكثر.. أكثر.. حتى كاد أن يصدمنا!! حافلتان كبيرتان من الفولاذ الصدئ إحداهما حمراء والأخرى خضراء مليئتان بالكتل البشرية بحيث تكاد هياكلهم أن تنفجر من ازدحام الركاب اقتحمتا أرض القرية الرملية ويتبعهما ميكروباصان أزرقا اللون كعلبتي سردين معدنيتين.. أصوات مشغل الأغاني المرتفع رديء الجودة كادت أن

تفقدنا القدرة على السمع.. طبعت كلمات الأغنية الرديئة الخارجة منه في أذني ومن ثم تركت سمومها عالقة في عقلي..

"سَيد يااااا سَيييييد.. .سَيد يااا سَاااااااييييييييد.. واد يا سيييد.. سيد يااا سيد!!"

كلمات لا معنى لها سوى "البحث عن مجرم هارب يدعى سيد.. أو بما أن صوت المغني هو صوت امرأة، فلعلها إحدى الأمهات تنادي على ابنها وتتوعده بالضرب المبرح إذا ما أمسكت به!! لا أدري لما تذكرت وقتها "سيد" صديقي.. أتلك والدته أنتجوا لها شريطًا غنائيًّا؟؟!، فتلك المرأة كانت معهودة بالغناء في المَنوَر.. لكن غناءً من نوع خاص يشمل سب ولعن كل من بالحارة من نساء كما لو كن جميعهن عاهرات!!. ابتعدت عن الطريق فورًا جاذبًا أذرع إخوتي الصغار خوفًا من أولئك المتوحشين.. وإذا بسيل من البشر سمراء جلودهم بالية ملابسهم.. قوم لا يكادون يفقهون تتبعهم نسوة من مرتدي العباءات المُزَهّرَة والإسدالات المنقطة والكثير الكثير من أواني الطبخ الألومنيوم ووابور جاز وبعض الأقمشة التي افترشوها على الرمال جاعلين منها منازل ومتخذين منها مستوطنات لقضاء يوم على أمواج البحر. في غضون خمس دقائق بات من المستحيل نزول "البحر ذاته" إلى البحر.. فالأولاد وآباؤهم أخذوا يرتعون ويتحممون بماء البحر البارد ليَرووا أجسادهم العطشة في هذا الحر إلى برد الماء كما لو كانت تلك المرة الأولى التي يَرَون فيها البحر.. كان المنظر غريبًا حينما شاهدناه من الشرفة بالأعلى.. كأنك تتابع قطيعًا من الجاموس البريّ يبرد جسده في ماء

البحر كما في برنامج عالم الحيوان.. "ما بال أولئك القوم لا يسبحون؟؟".. هم جالسون فقط في أماكنهم بلا حراك! والنساء على الشاطئ يخبزن ويصنعن شطائر الجبن الرومي والجبن الأبيض بالطماطم والخيار لبعولتهن وأبنائهن وكأنها حرب على اليَم.. ولكنهم لا يسبحون!! لا يبذلون مجهودا!! حاولت السخرية منهم وقتها بتشبيههم بالجاموس، لكن أمي نهرتني أشد النهر داعية إلى التأديب وأن لكل منا أسلوبه في الترفيه عن نفسه.. لكني لا أزال بداخل عقلي أتخيل هذا المشهد من جاموس بري يسبح في المياه المالحة!! "ماذا عليّ أن أفعل؟؟! تلك مخيلتي وليس لي عليها سلطان!!".

استمر الضجيج حتى المساء.. كأن البحر سيهرب إن أعتقوه قليلًا!! لكن بحلول آخر خيط برتقالي لقرص الشمس على ريم البحر كان الجميع يستعد للملمة أشيائه والمغادرة. انطلقت كل حافلة بما تحتويه من بشر وقد زادت أملاح البحر وحرارة الشمس من سواد جلودهم تاركين خلفهم ميكروباصًا واحدًا فقط.. الميكروباص الذي كان يؤوي النسوة اللاتي كن تغنين. لم تكتفِ لعنات مصايف الجيش عن الانصباب علينا صباحًا.. بل إن استكمال الحفل ليلًا كان الأكثر ضجرًا لنا أجمعين. كنا قد ظننا أن هذا الوقت من العام لهو متأخر بعض الشيء، وأن الجميع تقريبًا قد قاموا بقضاء إجازاتهم الصيفية ومن المفترض أن تكون السواحل هادئة.. لكن حافلات "رحلة سعيدة" تلك لم تكف عن القدوم طيلة الأربعة أيام التي قضيناها بالقرية. تكرر مشهد الحافلة تلو الأخرى تترك بصمات عجلاتها المطاطية الضخمة على رمال الشاطئ بالرغم من مخالفة ذلك لقواعد المكان، ولكن لا يزال الجميع يدّعي

"البلاهـة".. أطفـال وأنـاس جـدد كـل يـوم يـأتون مـن سـائر بقـاع مصـر ليـزدادوا سـوادًا عـن سـواد ومـن ثـم ينتهـي اليـوم بتـركهم لقمـامتهم وبعـض حاجيـاتهم على الشـاطئ. بعضـهم قـاموا بـاختراع ألعـاب مائيـة جديـدة لقتـل الفـراغ وحـرارة الجـو.. قـام مجموعـة مـن الصـبية بابتكار لعبـة غريبـة تسـمى: "اللي يـدوق الـدح مايقولشـي أح"!! اللعبـة ببسـاطة تقتضـي اصـطياد قناديـل البحـر التي كانـت تطفـوا وقتهـا على وجـه البحـر وتمتلـئ منهـا الشـواطئ في نهايـة اليـوم وكأنهـا أكيـاس بلاسـتيكية ملونـة بكـل لـون يمكنـك تخيلـه. بـدأت تلـك اللعبـة في تكـوين بنيتهـا الأساسـية عنـدما كنـا أنـا وإخـوتي جالسـين في اليـوم الثـاني نحـاول التـأقلم والتعـرف على الوفـود الجديـدة، فـإذا بإحـدى السـيدات تصـرخ أن هنـاك قنـديلًا ظنتـه هـي كيسًـا بلاسـتيكيًّا أزرق اللـون علـى الشـاطئ، وفـور أن لامسـته قـام بلسـعها تاركًـا علامـة غريبـة الشـكل. منـذ تلـك اللحظـة قمنـا بابتكار تلـك اللعبـة التي تهـدف إلى "إنشـاء فـرق مكافحـة القناديـل"، وقـام "شـلقامي"-أحـد الأطفـال الأكبر سنًّا-باختيـار هـذا الاسـم الغريـب! بـدا الأمـر مسـليًا جـدًّا.. "فرقـة لتتبـع حركـة القناديـل الخارجـة عـن القـانون".. تلـك القناديـل اللعينـة التي تهاجمنـا بأسـلحتها اللاسـعة وتنشـر سـمومها لطـرد السـعادة بقضـاء المصـيف. جلسـنا يومهـا نخطـط بقيـادة "عمـو بسـيوني" وعمـو "حسـين" وهمـا قائـدا جـيش سـابقيْن.. عجـوزان اتخـذا مـن تلـك اللعبـة أيضًـا سـببًا لإسـعاد قلوبهمـا وقضـاء بعـض الوقـت بـلا ملـل في تلـك القريـة الهادئـة.. كانـا بمثابـة قائـديْ الحـرب ومـوجهيْ الفِـرَق القتاليـة للمكافحـة.. وضـعا خطـة محكمـة وقامـا بتقسـيم الأطفـال إلى مجموعـات.. اخترعنـا أسـلحة مـن قطـع خشـب وشـبكات صـيد مهترئـة

وتـدربنا على طريقـة اصـطياد القناديـل، إذ كـان عليـك إمسـاكها مـن الظَّهـر وتقـوم بتقليبهـا على ظهرهـا براحـة يـدك.. لا تلمـس أبـدًا أسـفل القنـديل، وفـور القـبض عليـه، نقـوم بتقطيعـه إربًـا إلى أربعـة أو خمسـة أجـزاء ودفنـه في الرمـال (لكي لا يتحـول مـن جديـد، فالرمـال هي المـادة الخارقـة التي تقـوم بمنعـه مـن الحيـاة بعـد المـوت)، و هـذا مـا كنـا نرسـمه بخيالنـا لصـنع سـيناريو للعبـة قـد تتوارثهـا أجيـال مـن الأطفـال في تلـك القريـة. انقضـت الأيـام الأربعـة بمـا يرضـينا جميعًـا.. رأينـا فيهـا عالمًـا جديـدًا مـن المتعـة لا علاقـة لـه بأمـاكن فـاخرة و"أوبـن بوفيـه".. لا علاقـة لـه بمـالٍ أو مقتنيـات باهظـة الـثمن.. كـل مـا يمكـن تـذكره مـن تلـك الرحلـة هـذه المـرة هـو أن السـعادة لا توهـب.. وإنمـا في كثير مـن الأحيـان، السـعادة "تُصـنَع". في الليلـة الأخيرة لنـا هنـا، كـان علينـا البـدء بتوضـيب حقائبنـا للمغـادرة في الصـباح البـاكر وتسـليم الشـاليه إلى الوافـدين الجـدد.. كـم تمنينـا وقتهـا قضـاء المزيـد مـن الوقـت، ولكـن علينـا بـالعودة لإنجـاز مـاتبقى لنـا في أيـام الإجـازة القليلـة المتبقيـة، ومـن ثَـم العـودة إلى حيـاة هادئـة بعيـدًا عـن أيّ مخـاطرة.. بعيـدًا عـن أيّ مشـكلات.. حيـاة كمسلسـل كرتـوني أنـت تعلـم أن في نهايتـه كـل شيء سـيكون على مـا يـرام.. لا يمـوت البطـل، ولا تتـأذى الشخصـيات، وحتى إن تـأذوا قلـيلًا.. ففـي النهايـة، الكـل يبتسـم.. الكـل راضٍ.. الكـل "مُـدّعي". حاولنـا النـوم قلـيلًا بعـد سـهرة مـن اللـب والفـول السـوداني أمـام أحـد الأفـلام على قنـاة الفضـائية المصـرية.. حاولنـا أن ننـال قسـطًا مـن الراحـة في الطـابق الأرضـي القريـب مـن حمـام السـباحة بالخـارج.. كانـت غرفتي أنـا وإخـوتي هي الغرفـة الأصـغر وصـاحبة الشـباك الأكبر في الشـاليه.. فتحـت الشـباك

عن آخره لعلني أستقبل بعضًا من نسمات الهواء وطاردًا لرطوبة الغرفة التي أبقتني مستيقظًا قلقًا طوال الليل وحتى مقاربة الفجر.. في هدوء الجو وظلمة المكان لاحظت صوتًا يطرق باب الشرفة من الخارج.. صوتًا سمعته من قبل وأجزم أني أحفظه عن ظهر قلب.. كأنها ترانيم وتراتيل في الليل قادمة من الخارج.. كأنها تعاويذ تُقرأ.. توجست خيفة فالكلمات لم تكن مكتملة بأذني.. كلمات متقطعة من مسافة بعيدة عن أذني لكنها قريبة من الشباك.. قريبة من الطابق الأرضي! طردت النوم من عيني وتقدمت حافي القدمين على بلاط الأرضية البارد وباطن قَدَمَيّ متعرق من التوتر، أتقدم من الشرفة كطفل صغير يتعلم المشي في بداية وقوفه.. كلما تقدمت أكثر كلما ازدادت كلمات الأغنية الغريبة وضوحًا.. نعم.. إن الصوت بالتأكيد لأكثر من امرأة أربعينية في العمر.. حتى كدت أن أصل إلى الشباك مفتوحًا على مصراعيه وأنا أنظر إلى هذا المشهد الغريب بحمام السباحة.. الحمام به كمية من المياه لا تتعدى العشرين سنتيمترًا والظلام حالك لا يخترقه سوى إضاءة أعمدة الإنارة الأربعة برتقالية الضوء حول حمام السباحة وبه خمس نساء تجلسن بداخله كما لو كنّ متكئات على الأرائك وبحوزتهن أطباق معدنية من الفاكهة والمقرمشات تتسامرن وتتبادلن أطراف الحديث في أمور تتعلق بالزواج والإنجاب.. ولا يكتمل الحديث إلا بتلك الأغنية التي أخيرًا التقطتها أذناي تصفقن بانتظام وتعدنها مرارًا وتكرارًا:

"رايحة فين يا حاجة، يا ام الشال قطيفة.. رايحة أزوور النبي محمد والكعبة الشريفة.."!!!

لحظات الوداع هي الأصعب كما في نهايات الأفلام دومًا.. لم أكن باقيًا على شيء هنا هذه المرة، بل كانت أكبر أمنياتي هي الرحيل من تلك البلدة بسرعة. في الليلة الأخيرة لنا هنا قررنا قضاءها بالجلوس في المنزل.. متأملين كل شيء، نتذكر المرة الأولى التي قررنا فيها ترك كل شيء خلفنا والبدء من جديد.. تذكرت أمي والدتها التي ماتت على هذا السرير بالغرفة.. وتذكر والدي تلك الشرفة التي رأى منها الشجار القاسي بين "أكلانة" وعم جرجس.. وكأن كل شيء صار هباءً منثورًا. لازلت أشعر بأن الشقة صارت أكثر ضيقًا عن ذي قبل على الرغم من بدء جسدي بالاعتياد عليها من جديد.. كنت أظن أني لن أفوت يومًا هنا من دون العودة إلى محل الآيس كريم بجانب محل طاحونة القهوة التي لطالما عبثت رائحتها الزكية بأنفي فداعبت كل ذكرى جميلة لي هنا بالحي.. مذاق الآيسكريم الذي سرعان ما صار يشعرني بالتقيؤ عندما أقارنه بآيسكريم "باسكن روبنز" بالسعودية!! أردت ركوب الدراجة الزرقاء والصعود بها من وإلى الشقة طلوعًا ونزولًا على السلم المهترئ كما اعتدت.. فلا السلم عاد يتحمل، ولا الدراجة عادت تناسب جسدي الممتلئ.. فقط هي ملقاة أسفل سريري والغبار استوطن كل شبر بها، والرطوبة نالت مما تبقى منها تاركة أجزاء من هيكل صدئ لا يحوي إلا بعض الذكريات.. ربما كنت "مهيب ركن" منذ صغري وأنا لا أدري.. أو ربما لم يعد لدي شيء أحققه في تلك المدينة. لا تذكار منها

سوى أيام المصيف واختراعنا لتلك اللعبة الغريبة.. أشرطة الفيديو المترجمة بتلك الترجمة الغريبة وليالٍ قضيناها سويًّا ضحكنا فيها من القلب على أفلام لا تمتّ للضحك بأدنى صلة.. فقط هو تأثير "اللمة".. هي مجرد ذكريات عابرة، لحظات قد لا تدوم سوى بضع ساعات في الطائرة ومن ثم سيتلاشى كل شيء.. لكني سأتذكر تذكارًا آخر من "سيد".. طرق الباب في الحادية عشر مساءً ليودعني الوداع الأخير في اليوم المشهود قبل أن نلحق طائرة الواحدة.. كنا قد عبأنا الحقائب ولا أذكر أنها كانت ثقيلة كما اليوم الأول منذ عامين.. ودعني وقتها بدموع لم يذرفها حين مات جده "عم توفيق".. ودعني تاركًا لي تذكارًا أخيرًا مع تأكيد عدم فتحه إلا بعد وصولي هناك.. كأنه كان يشعر بأن وداع هذه المرة كان مختلفًا.. كأنه كان يعلم بأنني سأغيب هذه المرة طويلًا جدًّا. استطعنا اللحاق بالطائرة على المحك.. فور جلوسنا على المقاعد أرخى كل منا رأسه للخلف وكأننا قد تمسكنا أخيرًا بحبل الخلاص.. لم يكن لديّ رفيق سفر هذه المرة، إذ أن الرحلة كانت متأخرة ولم يكتمل العدد. أخذت أنظر من النافذة بجانبي ولا أذرف الدمع هذه المرة، كأنني ذاهب إلى وطني "الحقيقي".. لم أفكر بأي شيء سوى أن تلك البلدة من الأعلى هي الأجمل، هي الأكثر إنارة والأكثر بهاءً وألقًا.. لكن الورد رغم جماله فلا يمكنك أكله.. قد أكون خائنًا عديم الانتماء كما كان ينعتني بعض أقاربي.. ولكني لم أفهم لِمَ كل شيء كان عليّ جديدًا في وطني؟!! عدت إلى المنزل الواسع.. إلى هدوء ينومك مغناطيسيًّا.. عدت إلى حياة اعتدتها غريبة سابقًا.. لكن هذه المرة لم أشعر ولو للحظة أن هناك شيئًا يصعب على عقلي

تفهمه كما المرة الأولى.. ركضت إلى الحمام لأجده عاد كما كان "واسعًا".. عاينت المطبخ لأجد أبعاده عادت كما كانت "أوسع" وأكثر راحة.. مشيت على الموكيت الأخضر الذي يطلي أرضية الشقة بالكامل لأستشعر خشونته على باطن قدمي.. صوت التكييف المزعج بغرفتي ماعاد يثير أذني، بل استأنستُه منذ أن قمت بتشغيله وتمددت على السرير الناعم ملمسه الطرية وسائده والمريحة مراتبه.. لم أخف أو أتوتر هذه المرة، بل اختبرت شعورًا آخر غير الذهول كما في المرة الأولى التي دخلنا فيها تلك الشقة.. اختبرت شعور "الألفة".. شعور "الوطن".. وماهي إلا لحظات حتى أغمضت عينيّ اللتان أثقلهما النوم ماحيًا كل ذكرى لي في تلك الإجازة.. شيئًا فشيئًا أتوغل في النوم أكثر.. حتى بتّ لا أشعر بأي شعور، وعندما استيقظت في الصباح.. لم أتذكر أيّ شيء تقريبًا سوى أني جائع وبحاجة إلى تناول "الخبز الصامولي".. وكأن الإجازة لم تكن.. وكأن الشهر الماضي بتفاصيله.. كان مجرد "حلم".

obeikan.com

(15)

"كل.. جبار.. ظالم.. جته داهية.. .فاهم يا ولا منك ليه؟؟!.. (كل) يعني كلهم في المربع ده.. (جبار) يعني الـ"جا" بسفي المربع ده.. (ظالم) يعني "الظا" بس في المربع ده.. (جته داهية) يعني "الجتا" بس في المربع ده.. ولو نسيتوها إبقوا إفتكروا الجملة التانية: (كل جميلة ظريفة جتها عريس)"!!!

"الجا" و"الجتا".. "الظا" و"الظتا".. "القا" و"القتا".. تلك الطلاسم اللعينة التي لن ننتهي منها أبدًا.. أمر واقع بات عليّ تقبله بدخولي الصف الأول الثانوي.. ولا أدري ما الفائدة من تلك الأحرف اليونانية التي ربما كانت ألفاظًا بذيئة سابقًا في بلادهم.. لكن أن تسمع تلك الأحرف تُنطَق بلسان أستاذي العزيز ذي الجلباب الأخضر ورائحة العرق المميزة.. فهذا أمر آخر. الرجل يحاول مرارًا وتكرارًا استعمال ما يلزمه من صوت وحنجرة قوية لإيصال معلومات "حساب المثلثات" إلى عقولنا المرهقة من أمثلته الغريبة، ولا شيء يحركنا بتاتًا، حتى ينهكه التعب الشديد فينظر إلينا نظرة من يحاول تعليم "قرد" كيفية التحدث باللغة الروسية في ثلاثة أيام!!. مرّ عاما المرحلة الإعدادية بسلام.. وكنت قد اعتقدت بأني سأنتهي أخيرًا من الالتزام بالذهاب للـ"مجموعة".. لكن يبدو أنه عليّ قضاء عام أخير في هذا المنزل الأشبه بمدرسة سرية. تغير الكثير من الطلاب هنا، ولكن الشخص المفضل لديّ والقريب إلى قلبي لا

يـزال بـالجوار.. في الواقـع بعـد أن التـزم والـدها بالعمـل في إحـدى المـدارس السـعودية كمـدرس لغـة إنجليزيـة قـدير بتوصـية مـن أحـد أبنـاء كبـار العـاملين هنـاك بعـد أن ثبـت جدارتـه بتـدريس ولـده.. صـارت المجموعـة هـي عشـقي الأول والأخيـر. الأولاد معنـا بالصـف كلهـم مـن الدرجـة الثالثـة.. كلهـم يخجلـون كفتيـات في الحاديـة عشـرة مـن أعمـارهن.. كنـت حقًّـا مهيـب الـركن هـذه المـرة.. أتحـدث بثقـة مـع الجميـع، لا يهمني شـيء.. لا يهمني شـخص.. وبـالطبع لـن يأخـذ أحـد مكـاني بجانـب "هـاجر".. حتى ظهـر لي منـافس لـم أتوقعـه.. صـبي أتـي مـن مـدارس "اللغـات".. يتحـدث ثـلاث لغـات بطلاقـة. هـو الأفضـل بـالطبع في اللغـة الإنجليزيـة.. الأكثر جاذبيـة بعينيـه الزرقـاوين وشـعره الـذهبي وأنفـه الصـغير وأسـنانه الناصـعة البيـاض.. كأنـه أحـد فتيـان الإعلانـات.. الوغـد يمكنـه الحصـول علـى أي فتـاة بالمجموعـة.. أكـان ينقصني هذا "الملون"؟؟!!

الكثير من التطـور وبعـض التغييرات قـد حلـت في تلـك الفترة بالمملكـة ككل.. لـم يعـد اسـتقبال عمـال جـدد للعمـل هنـا بـالأمر اليسير كمـا في السـابق. حـاول الملـك فهـد وقتهـا تطبيـق مـا يسـمى بقـانون "السَّـعوَدَة".. وهي نظريـة إحـلال العمالـة السـعودية في شـتى المجـالات عوضًـا عـن العمالـة مـن سـائر الجنسـيات. كـان قـرارًا يشـوبه الكثير مـن التسـاؤلات.. فمـا عهـدت طـوال فترة إقـامتي هنـا سـعوديًا يعمـل بمجـال التجـارة في السـوق.. ماعهـدت سـعوديًّا يعمـل بمحـلات ذهـب.. لـم أشـهد سـعوديًّا يقـف كعامـل "كاشـير" في أحـد المـولات الضـخمة. دار بيني وبـين أبـي نقـاش حـول هـذا الأمـر انتهـى بأنـه "يسـتحيل" أن

يفعّل هذا القانون هنا.. حتى صدمتنا المفاجأة!! في أحد أيام الجمعة بعد انتهاء الصلاة، توجهنا بالسيارة أنا وأبي للتبضع من السوق المجاور لنا.. توقعنا وجود الرجل البنجلاديشي الأصل في قسم الخضروات، والآخر اليمني الأصل في أقسام الحبوب والأرز والبهارات والسلع الأخرى، فأهل اليمن لديهم تلك الشهرة باحتلالهم مراكز التجارة بالسعودية إما بحصولهم على الجنسية والعيش وكأنها مدينتهم الأم، أو بالعمل بصفقات تجارية في المجالات الغذائية ومن ثم العودة إلى الوطن محملين بالخيرات. رجل بجلباب أبيض وشِمَاغٍ وغُترَة ونعال من جلد بنيّ يجلس على كرسي خشبي ككراسي البحر، يضع القدم على القدم شاهرًا القدم العليا في وجه زبائنه.. يتحدث إليهم كما لو كانوا عبيدًا يعملون بالسُّخرة لديه، لحيته متقطعة غير مكتملة النمو وصوته حاد كما لو كان من قبيلة "عنيزي".. ظنناه في البداية يمني الأصل- فكلهم متشابهون في الشكل حينما يتعلق الأمر بالملابس- ولكن طباع هذا الرجل لا يمكن أن تكون يمنية.. لم يكن يطيق الكلام والرد على زبائنه.. حاول والدي استلطافه ولكن الرجل كان قاسي الطبع.. لم يتكلف عناء الرد على والدي حينما سأله عن بعض الخضراوات ما إذا كانت متوفرة.. وعندما حاول الاستفسار عن سعر البازلاء بادره الرجل بالرد "ياخوي وش فيييك؟! أنت ما تعرف تِجرَا؟؟! الحين السعر مكتوب عليها، ماتعرف تِجرَا؟؟ ما يعلمونكم الجِرَايَة؟!".. هممت بالرد على هذا المتغطرس المتعجرف فأوقفني أبي وابتسم ناظرًا إليه نظرة: "مفيش فايدة". الكثير من التجاوزات قام بها ذوو الأملاك بعد أن طردوا العديد من الجنسيات الأخرى

لإحلال حركة السَّعوَدَة والحلم بمجتمع أفضل بدون "أجنبي".. حتى وإن كان من دول عربية، فهو في نظرهم وقتها غريب أعجمي أجنبي. مر على تلك الحركة مايقرب من الأسبوعين.. تدنى فيها مستوى السوق السعوديه بكل مراحلها. بلغت خسائر محلات الذهب والفضة والمجوهرات عنان السماء.. فبدلًا من العمالة المصرية والسورية التي كان يمتاز أصحابها بالحديث اللين وحسن معاملة ومحاورة الزبائن بلسان يقطر شهدًا، استبدلت بآخرين لا يفقهون في التجارة شيئًا ولا في التعامل شيئًا ولم يكن لديهم الخبرة اللازمة للتعامل مع أصناف شتى من الزبائن لهذا المجال.. ولا أقول بأنه لا يوجد سعوديون يجيدون فن التجارة.. لكن قليلون هم من يدركون أن في هذه المجالات العمالة المصرية والسورية هي "الأفضل" بلا منافس. استغل بعض من أبناء الصاغة هناك محلات الذهب التي تركها آباؤهم لهم أسوأ الاستغلال.. فبعضهم كان يعطي تخفيضات تصل إلى النصف تقريبًا لصاحبات العيون الكحيلة والأجساد الممشوقة والعباءات السوداء المزركشة بخيوط الذهب.. ولا أقول أنه لم تكن هناك مثل تلك العطايا سابقًا، ولكن كل شيء بقدر.. أما الآن.. فكل شيء و"أي شيء" لا يخضع لحسابات، وعليه.. قد تجد رجلًا مسنًّا يتوقف أمام أحد محلات الذهب فيترجل من سيارته الرولز الفارهة وبالكاد يستطيع المشي، وفور دخوله لأحد تلك المحلات ينهال بالضرب على الشاب البائع هناك، فتكتشف فيما بعد أنه والده وصاحب تلك الممتلكات وقد أدرك من العاملين أن ابنه المصون قد سبب خسائر بالغة للمحل تقدر بملايين.. فما كان من الرجل إلا أن يضربه ويقوم بتوبيخه أمام الجميع لاعنًا

Obeikan.com

يوم ولادته مع توصية لأصحاب المحلات من حوله بأن يطلبوا الشرطة إن رأوه مجددًا يحاول فقط المرور بجانب المحل.

-لا لا يا غازي.. ياراجل هو احنا خلاص مانعرفشي نشوفك غير في المناسبات؟؟

-عم سامح.. أنا برضه؟؟.. والله ليك وحشة..

-إبلفني بقى بكلمتين ما انا عارفك.

-طب والله لأعدي عليك.. إنت قولتلي الشركة فين؟

بعد أن أنهى والدي مكالمته الهاتفية في "الهاتف الجوال" الجديد الذي لم يكفّ للحظة عن الاستماع إلى نغماته كالطفل الصغير فرحًا بلعبته.. قرر الذهاب إلى صديق قديم يعمل بإحدى شركات الاستيراد والتصدير الكبرى، وهو بالأصل الذي اقترح عليه منذ البداية شراء الهاتف المحمول الأسود بحجم موزة كبيرة. كان طفرة في عالم الاتصالات وقتها.. فأن يدخل بيت عائلة غازي هذا الاختراع الرائع لهو أمر يستحق تدوينه.. وبمرور شهر واحد، كانت أمي أيضًا تملك واحدًا في حقيبتها ولا يفارقها أبدًا. عمو "سامح" هو بمثابة تلك الشخصية التي تظهر في حياتك مرة واحدة كل فترة من الزمان لتقترح عليك شيئًا جديدًا يثير الرغبة بداخلك لتجربته.. ظهر لنا سابقًا مقترحًا "طبق الساتلايت" معللًا ذلك بأنه ما عاد أحد بتلك البلدة يشاهد التلفاز السعودي-بما يشمل السعوديين أنفسهم- وفور عودتنا من إجازة مصر عاد من جديد بطاقم من الهواتف الجوالة يستعرض فيه خدماته الغير مسبوقة وعروضه التي لا يجب على أبي أن يرفضها، وإلا ندم أشد الندم. كنت أعلم بدهيًّا

obeikan.com

أنه كان في جعبته الكثير من المفاجآت.. لكن المنتج المراد بيعه لوالدي هذه المرة كان مختلفًا بعض الشيء.. كان شيئًا يصعب على عقولنا تفهم ماهيته.. شيئًا ما لم نكن نراه إلا بأفلام الخيال العلمي.. جهاز "الحاسوب".

في سابقة غير معهودة لعائلة غازي، أصبح بمنزلنا جهاز حاسوب.. كمبيوتر من طراز كان قديمًا وقتها بنسخة "ويندوز 98". ألحّ عمو سامح يومها على والدي كثيرًا لاغتنام فرصة الحصول على هذا الحاسوب المميز، وباقة من الألعاب وبرامج الترفيه التي تنضم لقائمة المدفوعات.. وعليه، قام والدي بإجراء الصفقة.. من دون أدنى تفكير بماهية استعمال هذا الشيء العجيب!. كان اليوم الأول لدخول الجهاز إلى المنزل لهو حدث تاريخي.. وضعناه بالطاولة الرئيسية بالمنزل وجلس خمستنا حوله نتفحص تفاصيله بأعينٍ كادت تدمع من هول المنظر.. "بقى عندنا كمبيوتر يا جدعووووون". هكذا صرخت في عقلي ولا يكاد وجهي يصدق الأمر. كانت تلك المرحلة من حياتي كـ"مهيب ركن" هي الأكثر نضجًا فيما سبق.. فمرحلة الثانوية كانت بمثابة "وقت استكشاف الذات". تركنا والدي للنزول إلى العمل بينما اتجهت أمي لتنال قسطًا من الراحة وبقيت أنا ومنعم وجازمينا كثلاثة قرود حول جهاز بالكاد نعلم كيف نقوم بتشغيله!! وضعنا السلك في القابس وقمت أنا بضغط زر التشغيل باعتباري الأكبر سنًّا والذي سيتحمل مسؤولية انفجاره إن حدث. أثناء تشغيل الجهاز واستعداده للبدء، قام منعم الغبي بالضغط على أحد الأزرار على لوحة المفاتيح والله

وحده من يعلم بما حدث، إذ أصدر الجهاز أوامر كثيرة وجُمَلًا باللغة الإنجليزية بدأت بالتراكم فوق بعضها كما لو كانت قنبلة موقوتة وتم تفعيلها.. فجأة سادت الفوضى وصرخت أختي في وجه منعم الذي كاد أن يبكي بينما حاولت أنا أن أمحو من رأسي تلك الأفكار السوداء عما سيحدث لو علم أبي بأننا قمنا بتشغيل الجهاز من دون علمه.. خاصة وأنه قد نبه علينا وحذرنا أكثر من مرة بأنه ليس علينا حتى الاقتراب منه حتى يأتي بالمساء ويعلمنا ما تعلمه هو من عمو سامح. الشيطان برأسي بدأ يطرح عليّ بضع حلول.. كان أغربها أن تلك الحادثة ذكرتني بحادثة مشابهة لقَطّاعَة كهربائية(خلاط) كانت على وشك الانفجار أيضًا، وكل ما فعلته وقتها-من دون علم والديّ - أني قمت بسحب السلك من القابس.. لعل تلك هي الطريقة المثلى لإنهاء عملية تفجير الحاسوب، أن أقطع عليه الكهرباء وكأن شيئًا لم يحدث ومن ثَم يمكننا العيش بسلام.. في النهاية جميعها أجهزة كهربائية. كان إخوتي يرتجفون خوفًا من العقاب، وكان عليّ "كمهيب ركن" التصرف.. فصلت السلك من القابس وانتهى الأمر.. أو على الأقل "أتمنى ذلك". بالمساء بدأنا نخطوا خطوة جديدة نحو عالم أفضل.. جلسنا مجاورين لأبي الذي ضغط على زر تشغيل الحاسوب ليفتح كما لو كان للمرة الأولى، فحمدت الله الذي سترني اليوم. كان أبي في الواقع هو الآخر في حالة من الضلال المبين كما لو أنه نسي كل شيء علمه إياه عمو سامح.. حاولنا قراءة كل كلمة إنجليزية، حتى تذكر أبي أنه يمكنك تغيير اللغة من الإعدادات إلى العربية.. وعليه، قام بذلك.. فاختلفت الحياة من جديد.. وبدأ كل شيء يتضح جليًّا. بدأنا بتعلم

اسـتعمال "الفـأرة" ويتبعهـا الكتابـة علـى "الـوورد".. صـرنا بمـرور الوقـت "عبـاقرة" بفـتح حجـرة الإسـطوانات المضـغوطة وإدخـال الإسـطوانة وتشـغيل مـا عليهـا.. بـل مـا أثـار إعجـاب والـدي هـو أنـه كيـف لنـا أن نخـزن المعلومـات على "الديسـك المضـغوط"!! لـم تكـن بـالكثير، فقـط كنـا نـدعي كتابـة أي شـيء على برنـامج الـوورد ومـن ثـم نقـوم بنقلـه إلى "الفلـوبي ديسـك". كانـت مجـرد فكـرة الاقتراب مـن الحاسـوب في البدايـة هي بمثابـة محاولـة فـك شـفرة مـا.. لكـن بتنـا الآن نجيـد التعامـل مـع برنـامج "الرسـام"، ويمكنني وبكـل ثقـة أن أرسـم لوحـات مبهرجـة وملونـة باسـتعمال فـأرة الـتحكم كمـا لـو كنـت خبيرًا.. كـل هـذا كـان يبـدو لنـا آنـذاك كمعجـزة.. حتـى أني كلمـا تـذكرت تلـك الأيـام ضحكت كثيرًا مـن سـذاجتنا. في إحـدى الليـالي، كنـا على موعـد عشـاء مـع زمـلاء العمـل لـدى أبي وعـائلاتهم.. تطـرق أبي وأحـد أصـدقائه إلـى موضـوع الحاسـوب، فأشـار الرجـل إلـى أنـه يملـك حاسـوبًا مـن طـراز "وينـدوز 95" ليتبـاهى والـدي بثقـة عميـاء أننـا نملـك الطـراز الأكثر حداثـة.. بـل إنـه عـرض على الرجـل أن يـأتي بجهـازه إلى منزلنـا لكي يقـوم أبنـاؤه "العبـاقرة" بتحميـل لعبـة "تـارازان" مـن أحـد الأقـراص المدمجـة لـدينا إلى جهـازه، والقيـام بـبعض أعمـال الصـيانة لـه"..عـن أي أعمـال صـيانة تتحـدث يـا أبـي؟؟! حبًّـا في الله كفـاك توريطًـا لنـا!! كـل مـا نفقـه هـو تحريـك الفـأرة وادعـاء الكتابـة على لوحـة المفـاتيح!!".. لكـن أبي لـم يكـف عـن توريطنـا.. معلنًـا أننـا قـد أتقنّـا وبشـكل بـارز طريقـة "إلغـاء تجزئـة القـرص".. تلـك الطريقـة التي بالكـاد نفهـم لـمَ صـنعت في الأجهـزة، فتقـوم بإعـادة ترتيـب ملفـات

جهازك وهذا قد يعطيه أداءً أفضل بقليل.. هذا ما نجنيه عندما يتحدث الآباء!!

ظننت أن وجود الحاسوب في منزلنا لهو أمر يستحق اهتمام "هاجر".. فكنت الوحيد بالمجموعة الذي يملك هذا الكنز التكنولوجي الثمين متباهيًا بكل ما به من خدمات ومميزات.. وما أكد الأمر هو زيارة بعض أصدقاء المجموعة لي بالمنزل، وكانت تلك المرة الأولى لي بالسعودية التي أستقبل فيها ضيوفًا أتوا لي أنا وحدي. منذ ذاك الوقت وقد انتشرت الإشاعات في المجموعة كما لو كانت حريقًا مسّ ورقًا مفرومًا.. وازداد الأمر عندما أضفت إليهم بعض التشويق فور أن ذكرت كلمة "إلغاء تجزئة القرص"-وكأنها كلمة سحرية تنمّ عن عبقرية فذة في هذا المجال- لكي يرتفع رصيدي بين زملائي وأنال مساحة خاصة جديدة ترتقي لمنافسة "أيمن".. الصبي صاحب العيون الزرقاء! لكن شيئًا لم يتغير تقريبًا.. لا يزال الوغد يحتل المرتبة الأولى بقلبها.. لا تزال هي تنظر إليه كما لو كان إلها!! ربما لأنه يهتم بنفسه ولا يعبأ بالآخرين.. ربما تلك هي "ثقة النفس"؟؟! أم أنه غرور مصطنع مفتعل لجذب الانتباه.. ربما أنا بحاجة أيضًا لصنع هالة خاصة تميزني عنه.. هالة لا علاقة لها بامتلاك جهاز حاسب آليّ أو مقتنيات ثمينة.. ربما أنا بحاجة إلى ملابس جديدة.. ملابس تليق بـ"نجم".

في إحدى الليالي التي قاربت عيد الأضحى، كان علينا تمشيط محلات الملابس لشراء ملابس العيد قبل موسم الزحام. ومنذ أن قررت ارتداء ملابسي كنجم، لم يعد هناك مجال للشك عن نوع

النجم الذي اخترت أن أرتدي مثله. بدأ الأمر بأحد الكليبات الجديدة لـ"مصطفى قمر".. الكليب الذي ألهم الجميع هنا لارتداء قميص أحمر اللون وبنطال من الجينز الأزرق ممزق عند منطقة الركبة ومائل إلى الأبيض الباهت أو اللون الأخضر فوق الركبة، وسميت تلك الصيحة وقتها بـ"بناطيل الديرتي". كدت أن أجن لأحصل على هذا الطقم.. مشطنا جميع المحلات بالرياض حتى انتفخت أرجلنا تورمًا وكادت تنفجر واستشاطت أمي غضبًا وأبي كان يحاول إرضائي بأي شيء لعلي أصرف نظري عن هذا الطاقم الغريب. بعد عناء البحث وقد كانت ليلة العيد.. قررت "التكيّف" مع ما يمكنني شراؤه.. استبدلت القميص الأحمر بآخر برتقاليًّا -وكأن هناك فرق بين اللونين حقًّا- وبنطال الجينز الأزرق بآخر أزرق أيضًا، ولكن يختلف "قليلًا" عما تمنيت.. إذ كان بنطالًا من نوع "شارلستون رِجل الفيل".. بنطال أزرق "لَمّيع" كأنك ترتدي "مَسّاحَات للأسفلت"، عريض كما لو كان فستانًا.. لكني رضيت به اختصارًا للوقت. عدت إلى المنزل وشاهدت الكليب مرارًا وتكرارًا.. "أيام وسنين بتفووت، وتعيش أحلام وتموووووت".. لم أعبأ وقتها بالكلمات، فقط حاولت وبحرفية تامة "تقليد" كل تفصيلة بالطاقم.. سأتجاوز عن لمعة البنطال الزائدة بشكل مريب كما لو كنت أحد تجار الـ"جُملَة"، ولكني لن أتنازل عن التمزيق في منطقة الركبة. استعنت بإحدى شفرات الحلاقة لدى أبي وقمت بعمل بضع تمزيقات على البنطال.. أتبعتها بورقة صنفرة أخذت أمررها بقوة داعكًا بها مافوق الركبة من البنطال لعلي أعطيها مظهر "الجَرَب" كما لو كان اللون الأزرق باهتًا. نجحت في تحويل البنطال

أخيرًا إلى شيء لا بأس به.. وحان دور القميص البرتقالي. ربما لم أجد اللون الأدق الأقرب إلى الكليب، ولكن لا يزال هناك ما يمكنني فعله لإيصال القميص إلى صيحة الكليب.. فقميص مصطفى قمر كان "مكرمشًا".. مجعد الملمس.. وفي منطقة الظهر كان لونه أكثر عمقًا وأغمق كما لو أن سائلًا ما قد سُكِبَ عليه.. قد يكون تحديًا هذه المرة.. ولكن "مهيب الركن" الحقيقي عليه أن يأتي دومًا بحلول غير تقليدية. غسلت القميص بماء بارد، وبعد أن جف.. كان قد أعطاني الملمس المطلوب.. مجعدًا كجلد تمساح.. أما عن البقع الأغمق لونًا بالظهر، فقد فكرت وقتها بسكب بعض الماء على ظهر القميص، إلا أنه سرعان ما طردت تلك الفكرة تماما بعد أن تذكرت أن الماء قد يجف وينكشف أمري.. فاستبدلت الماء بـ"الزيت"!! زيت الطعام من زجاجة زيت عباد الشمس بالمطبخ، ستعطيه لونًا أغمق ولن يزول بمرور اليوم، وكنت حريصًا على أن لا أسكب الزيت على القميص إلا قبلها بيوم واحد.. ليلة تنفيذ عملية "الإبهار". أجلت ارتداء هذا الطاقم إلى مابعد العيد، يوم مقابلة هاجر في أول يوم للمجموعة بعد انتهاء عيد الأضحى.. واستبدلته بشيء ما من رائحة "مصر".. تذكار وهدية من أحد أقرب الناس لي.. سيد. الهدية التي طلب مني سيد عدم فتحها إلا بوصولي إلى السعودية كانت "تيشيرت" أبيض طُبِعَت عليه صورة ممثلي فيلم "تايتنيك" يحتضنان بعضهما البعض شاخصيْن أبصارهما إلى أعلى.. "فيمَ كنت تفكر يا سيد؟؟!!".. في البداية سخر مني كل فرد من العائلة فور رؤيتهم لتلك "المصيبة". فقد نسي سيد أننا هنا في مجتمع منغلق لا يقبل بتلك الأزياء.. وأن هيئة

Obeikan.com

"الأمـر بـالمعروف والنهي عـن المنكـر" إن رأتني بهـذا الـزيّ سـيرجمني أفرادهـا بحجـارة مـن سـجيل!!. رغـم ذلـك، قـررت التجربـة والنزول بالتيشـيرت اللعـين الفـاجر الـداعر الفاسـق إلى الشـارع في أول أيـام عيـد الأضـحى.. ذاك اليـوم الـذي لا يمكـن للـزمن مهمـا طـال أن يمحـو صورة واحدة من مشاهده في عقله!

لعائلـة غـازي طقُـوسٌ خاصـة في عيـد الأضـحى.. لا سِـيَّمَا وإن كانـت هنـا بالريـاض. اعتـدنا في اليـوم الأول-وهـو مـا كـان يختصـر مفهـوم العيـد هنـا- الخـروج إلى حديقـة مـا برفقـة بعـض زمـلاء العمـل وصـديقات أمـي هنـا لإقامـة حفـل شـواء لمـا ذبحنـا مـن أضـحية، وعليـه.. اسـتنتجت أنني لـن أغـامر كثيـرًا بارتـداء "تيشـيرت تايتنيـك" الفـاجر، فلـن نتجـول كثيـرًا وستقتصـر الرحلـة علـى السـيارة والحديقـة.. لكني في الواقـع نسـيت أن تلـك السـنة يوافـق أول أيـام العيـد يـوم "جمعـة". ارتـدت عـائلتي الملابـس وكنـا على موعـد مـع بـاقي الـزملاء بعـد صـلاة الجمعـة، فكـان على أبـي اصـطحاب أمـي وإخـوتي معنـا إلى الصـلاة لينتظـروا بالسـيارة ريثمـا ننهي صـلاتنا ومـن ثـم نعـود لاصـطحابهم. أن ترتـدي تيشـيرت مطبوعًـا عليـه تلـك الصـورة التي يعتبرونهـا هنـا "فاضـحة" لهـو أمـر لـيس بهـين.. لكـن أن تتوجـه بكـل ثقـة إلى المسـجد لأداء الصـلاة وسـط أُنَـاسٍ أقلهـم "إيمانًـا" تصـل لحيتـه إلى صـرته.. فهـذا هـو الجنـون بعينـه! لـم تتركني أعـين النـاس وشـأني في المسـافة القصـيرة بـين السـيارة والمسـجد.. كنـت مراقبًـا كمـا لـو كنـت أتجـول عاريًـا أمـامهم.. ومـا زاد الأمـر سـوءًا هـو أن الصـورة مطبوعـة علـى الظهـر أيضًـا.. كـأنني أروج لإعـلان الفـيلم وكـلّ مـن

ليوناردیو دیكابريو والفتاة المثيرة يحتضن الآخر بشغف وحرارة.. الويل لك يا سيد. استشعر والدي الحرج من الموقف، واكتفى بنظرات الناس خارج المسجد فأمرني بالعودة إلى السيارة مع الآخرين حتى ينهي صلاته.. حاولت إقناعه بأنه لا شيء غريب ليرمقني بنظرة يمكنها أن تشرح لك كل شيء!! دخلت له من مدخل الـ"دين" وأني هكذا سأضيع ثواب الصلاة، ليكون الرد: "إنت خلاص يعني؟؟ الإمام أبو حنيفة؟؟! ماجتشي عالصلاة المرا ديه يعني يا عطوة!!!"..امتثلت لأوامره من باب "طاعة الوالدين"-وهو أيضًا لا بأس به- وعدت أدراجي إلى السيارة أستغفر ربي على تلك الخطيئة! بعد الانتهاء من الصلاة توجهنا فورًا إلى الحديقة، وبدأت مراسم العيد من شواء وتقطيع اللحم المتبل وتوزيع الأطباق يتبعها شراهة ونهم لكل ما باللحم من دهون وعظام قبل اللحم ذاته.. أثقلتنا وجبة اللحم المشوي الدسمة وكان لابد من أكواب الشاي البلاستيكية المجهزة بالسكر وأكياس الشاي أن تتدخل في تلك اللحظات الحرجة.. من الـ"تُرمُس" المليء عن آخره بالماء الساخن سكبنا الماء واستمتعنا بكل قطرة ماء امتزجت بالشاي والسكر وهواء قد ينقلك إلى عالم من الأحلام.. لكني علمت أن هذا اليوم لن يمر بسلام.. ففور إنهاء الجميع للجلسة اقترح "والدي" أن نقوم بجولة أخيرا في الأسواق والمولات بشارع "العُلَيّا".. "أكان ينقصني هذا؟؟!!".. كيف سأتجول بهذا التيشيرت المثير للريبة بين جموع الناس؟؟!! فيم كنت تفكر يا أبي؟؟!!!".. كادت أعين الناس أن تنهشني منذ أن دخلنا أحد المولات الكبيرة، ولم تكفّ أمي وزميلاتها عن تمشيط كل بقعة من بقاع المول التجاري.. كأنهن يعرضنني

كبضاعة ما.. الكل يعلم أني أشعر بالإحراج ولا يبالون.. الكل قد لاحظ السخرية في أعين سائر الجنسيات والأحاديث الجانبية عن ما يرتديه "الفتى" من فُجر وإلحاد وعلامات للماسونية ولم يحاول أي من أبويّ وقتها التدخل أو الدفاع عني.. بل اتخذ الجميع منها مسكنًا لمشكلاتهم بالحديث المقزز التافه عن "من أين أتيت بهذا التيشيرت الرائع!" يتبعه ضحكًا كما لو كنت مهرجًا خُلق فقط لرسم البسمة على شفاههم.. شعور بالوجع عندما يسخر منك أهلك على ارتداء ملابس هم بالأصل وافقوا عليها منذ البداية.. لكن شعورًا "بالقهر والضعف" قد يغلب على الموقف عندما توقن أنه لا أحد منهم يعبأ لضيقك.. لا أحد منهم يدافع عنك ولو بكلمة.. ربما لأني منذ البداية اخترت الخجل مما أرتديه.. فلو أني ارتديت قطعة بالية من القماش بثقة وعِزّة لما كانوا سخروا مني هكذا.. لقد رأيت اليوم بالشوارع والمولات الكثير من "المخنثين" في ملابسهم.. لم يكن أحد ينظر إليهم نظرة سخرية أو حتى يجرؤ.. تعلمت يومها درسًا لن أنساه، وربما الآن فهمت لم فضلت هاجر الفتى ذا العيون الزرقاء المتغطرس.. فعلى الأقل هو لم يَدّعِي.. لم يكن شيئًا سوى طبيعته.. سوى "نفسه".

كان يومًا يملؤه الحماس وإثارة المطاردة والتحدي أكثر من كونه يوم عِشق. استيقظت متناسيًا كل ما مضى وبدأت بارتداء "طاقم النجم" الخاص بي.. لكني كنت في قرارة نفسي عازمًا على الفوز بتلك الفتاة مهما كلفني الأمر.. ربما لم أكن أحبها حقًّا.. لكني لن أُهزَمَ أمام الأشقر.. اليوم-ومهما كانت النتائج- لن أخرج خاسرًا..

اليوم سيرى من هو "مهيب الركن" الحقيقي بالمجموعة. استيقظت مبكرًا بساعتين قبل ميعاد استيقاظ والدي وبدأت بتجهيز العدة. استحممت ومن ثم تسللت إلى غرفة والدي لاستراق بضع نفحات من عطره "الجديد" -وكأنه لن يلحظ الرائحة النفاذة- وهيأت نفسي بارتداء القميص البرتقالي المجعد بعد أن سكبت عليه قليلًا من الزيت عند منطقة الظهر وفتحت أزرار الكُمّ والياقة.. قفزت في البنطال الأزرق اللامع وارتديت حذائي الأبيض ومن ثم نظرت في المرآة.. نظرت لأرى الشخص الأكثر "شذوذًا" في التاريخ!!! لكني كنت عازمًا على النزول كما خططت تمامًا في ذهني مهما كلفت النتائج. عندما لاحظ والدي أزياء ملابسي الغريبة اليوم لم يتوقف عن السخرية للحظة.. "إيه يا ابني القميص ده؟؟!! ده طالع من بق كلب؟!".. "طالع من بق كلب"!! عندما يعجز الآباء عن التلفظ بألفاظ خارجة أمام أبنائهم يستخدمون هذا التعبير.. "بق كلب"!

-إنت يا ابني غاوي تهزأ نفسك كدة دايما؟؟! ما اتعلمتش من "تايتانيك"!!

-لا ماتعلمتش.. ولو سمحت بقي يا بابا كفاية تريقة.. أنا لو حد غريب مش هتتريق كدة!

كلماتي هذه المرة كانت ذات مغزى.. كانت حادة وموجهة.. كنت أقصد كل حرف منها، مما أثر على والدي بالصمت وابتسامة حانية ومن ثم الرد "ماشي ياعم عطوة، إحنا بنهزر معاك يا أخي". كان المشهد دراميًّا.. منذ طرقي للباب واستقبال أستاذ عبد الباري لي وتوبيخه بالنظرات من دون أن ينطق ببنت شفة، إلى أن دخلت إلى

مجلسي وجلست ولا تنفك الأعين عن إجراء مسح شامل بكل قطعة ذهبية مما أرتدي.. كأنني تمثال متقن الصنع غريب الشكل مجهول الأصل يُعرَضُ في باترينة عرض زجاجية. الجميع يحبونني هنا، وفوجئت بأن الكل صامت ولم يجرؤ أي أحد على النطق بكلمة.. لكن يبدو أن السبب كان انشغالهم بتدوين ما كتب على سبورة الحائط من أحجيات حساب المثلثات، والتي فور أن انتهوا منها بدأ الهتاف وبدأت "الحفلة". سيل من الأسئلة كاد أن يغرقني.. "من أين أتيت بهذا الطاقم؟؟!".. "البنطلون ده جبته منين يا ابن اللعيبة؟؟!".. "إزاي أبوك سابك تنزل كدة؟؟! حتى تكلم "الصنم" أزرق العينين أخيرًا وكأنها فرصة ثمينة للقضاء عليّ بسلاح السخرية.. يبدو أنني أثرت استفزازه أخيرًا.

-إيه يا "عب معطي" لبس الأراجوزات اللي إنت لابسه ده؟؟!

كانت تلك الجملة الأولى التي ينطق بها هذا الوغد معي.. وكانت الأعين ترتقب إجابتي على هذه الإهانة، إذ لم يناديني أحد باسم "عبد المعطي" قط إلا وكان الغرض هو السخرية.. وما زاد من الأمر توترًا هو مراقبة "هاجر" لردة فعلي.. كانت تلك فرصتي لرد اعتباري.. كانت فرصتي لإثبات رباطة جأشي.. وبعد صمت دام لثوانٍ لم أردّ فيه على سؤال "أيمن"، لاحقني هو بسؤالٍ آخر أثار جانب "مهيب الركن" الحقيقي بداخلي.. "وإنت بقى جايب الطقم ده منين؟؟ من التوحيد والنور؟!".. وبينما الكل يترقب، اعتلت وجهي ابتسامة ثقة وسخرية شاخصًا بصري إليه كأنني "إله السخرية" مبادلًا إياه: "لا من الموسكي يا حِيلِتهَا.. مش أحسن من

Obeikan.com

الشيميز بالدانتيل اللي إنتي لابساه يا مديحة؟؟!".. هنا فقط.. انفجر الكل ضاحكًا بنين وبنات.. كادت ضحكاتهم أن تهز أرجاء المبنى بالكامل.. ضحكوا وكأنني الشخص الـ"منتظر".. الشخص الذي برّد نار كلّ منهم وكأن المسألة "تخليص تار".. ضحكوا وضحكوا وضحكوا حتى اندثر هو بين أكتافه وجلس بلا حراك ينظر إليهم وهم يرددون "مديحة.. مديحة أم عيون زرقا ومليحة".. رأيت ضعفه للمرة الأولى منذ أن قابلته.. كسرت كبرياءه وغروره.. قد أكون الشخص الأسوأ بالعالم والأكثر سوادًا بتلك اللحظة.. لكنها "نشوة" لم أشعر بها بعمري حتى وإن كنت قد قسوت عليه.. وعزائي أنه هو من بدأ العراك بكلماته القاسية.. هو من استدرجني إلى تلك النقطة.. فليتحمل لعنة مهيب الركن.. "أنا".. تغيرت نظرة هاجر لي كما بين المشرق والمغرب.. لمعت عيناها بعد أن تأكدت من أني لم أعد أعبأ بما أرتدي، بل إني أوظف العالم كله لأجلي.. لكن في الحقيقة، لم أشعر بشيء وقتها تجاه تلك الفتاة التي لطالما رغبت في مجرد نظرة منها.. لم أشعر بشيء سوى "نفسي".

obeikan.com

(16)

منــذ موقعــة "الملابــس"-أو كمــا كنــت أســميها- بــات عليَّاكتشــاف جوانــب أخــرى مــن شخصــيتي عوضًــا عــن تلــك التــي وضــعني بهــا المجتمــع ســابقًا وأعانــه على ذلــك والــداي. لــم يعــد الأمــر يتعلــق بــأن تنــال إعجــاب فتــاة بالصــف.. لــم يعــد متعلقًــا بمعرفتــك القــدرة على الســخرية مــن أيّ كــان كمــا حــدث مــع أزرق العينــين.. بــات الأمــر متعلقًــا بتحديــــد "مــــاذا أريــــد". أو بــــالأحرى: "مــــا حــــدّمهاراتي وقــــدراتي الخاصــة؟؟! مــا باســتطاعتي أن أفعــل، ومــا الخطــوط الحمــراء لــديّ والتــي لا يمكننــي تخطيهــا؟؟!".. ولكــن لتــتمكن مــن الوقــوف عنــد خطوطك الحمراء، عليك أن تراها أولًا.

بــدا يومًــا عاديًّــا في منتصــف أســبوع قــارس البرودة وكأنهــا أقســى ليــالي الريــاض البــاردة منــذ أعــوام.. بعــد أن تســبب أحــد الأســاتذة بالمجموعــة في إزعــاج لجيران يعتلــون شــقة المجموعــة، أقــدم أحــدهم على طلــب الشــرطة متهمًــا صــاحب المكــان "الأجنبي"-مصــري الجنســية- بأنــه هنــاك أعمــال "اخــتلاط" مــابين بنــات وبنــين بتلــك الشــقة.. مــع العلــم أن صــاحب العقــار يعلــم جيــدًا أن تلــك المجموعــات هــي بالأصــل لأغــراض دراســية، إلا أن أحــد الســكان قــرر مضــايقة الأســاتذة وتعكير صفو الماء بإحــداث ضجة كــان مــن شــأنها إيقــاف نشــاطات المجموعــة لــبعض الوقــت، مــدة لا تتجــاوز أســبوعين، فقــط حتــى تهــدأ الأمــور قلــيلًا.. ففــي النهايــة فكــرة المجموعــة بالمجمــل كانــت "نشــاطًا غيــر شــرعيّ". كانــت مــدة الأســبوعين هــي بمثابــة الجنــة بالنســبة للطــلاب..

على النقيض، كان الأهل يترقبون قرارًا بإيقاف تلك المجموعات إذا ما لم تتم المصالحة "وديًّا" بين أصحاب الشقق التي تجري بها والجيران. عرض عليّ بعض الأصدقاء من مجموعات أخرى كنا قد سبق وتعرفنا عليهم في إحدى مراجعات ليالي الامتحان في الصف الأول الإعدادي الخروج إلى أحد المقاهي بمول "يورو مارشيه".. كان العدد لافتًا وكأنها إجازة شتوية قصيرة تتضمن التسكع مع أصدقاء لا أعلم إن كانت المعرفة بهم ستدوم حتى العام القادم أم ستتلاشى بمجرد انقضاء فصل الشتاء.. لكني على كل حال وافقت وقتها، ودعمني أبي بالمال الكافي لأنال قسطًا من السعادة قبل نهاية العام والدخول إلى زوبعة الاختبارات. لم يدم تسكعنا كثيرًا بالمركز التجاري المبهرج، لكن أكثر ما لاحظته وقتها على تصرفات المرافقين هو "محاولتهم مطاردة أيّ فتاة بالمول".. يطاردونها فقط بأعينهم شاخصيها بتذلل وخجل.. يحاولون قراءة ما يمكن قراءته من علامات الرضى على وجوه الفتيات من دون ملاحظة مرافقهم من الرجال أو الإخوة أو الأمهات.. يحاولون استراق النظرات بدون ملاحظة رجال هيئة "الأمر بالمعروف". لطالما كرهت تلك الطريقة في التعامل مع الفتيات.. لا أدري لماذا! ولكني كنت أشعر دومًا بأننا مراقبون وعلى وشك الإمساك بنا.. تلك المشاعر بالخوف والقلق واللهفة والإثارة ومحاولة الوصول إلى فتاة والتواصل معها من دون أن يلحظك أحدهم لهو أمر مهين ومحرم.. لكن.. وقتها شعرت بأن شيئًا ما يخبرني بأنه عليّ أن أخوض تلك التجربة.. مهما كلفني الأمر. بِخطى الشيطان الذي عبث برأسي وأثلج إحساسي وشعوري بحُرمة ما أفعل تقدمت مقتربًا من إحدى الفتيات بالمول بجانب

قسم الأغذية المعلبة.. كانت الفتاة في مثل طولي، بيضاء البشرة ويغلف رأسها المضيء حجابًا أسود مرتدية عباءة سوداء غير مزخرفة.. تقف كغزال يرعى في أرض خضراء لا يحرك ساكنًا.. اقتربت منها أكثر، ومع كل خطوة أخطوها، كنت أنعت نفسي بـ"الحمار" لأني أفعل ذلك.. تسارعت دقات قلبي وتعرّقت كما لو كنت ركضت خوفًا من دُبّ برّيّ.. أقترب منها وأنا لا أدري في الحقيقة "ماذا عليّ أن أفعل؟؟!!!".. فقط كل ما أردته هو الاقتراب والحديث.. أردتها أن تراني لأراقب ماذا يمكنها أن تفعل.. أصابعي صارت خَدِرة من برودة الموقف وتوتّري عوضًا عن الجو القارس الذي لم تنقص منه أجهزة التدفئة بالمركز التجاري شيئًا.. وفجأة.. نظرت لي بثقة وكأنها تعلم أنني أقترب لأحدثها.. تلك النظرة التي أخافتني ذعرًا فسقطت إلى الخلف وأسقطت صفًّا كاملًا من صفوف المعلبات لأحدث جلبة كافية لجذب انتباه كل فئات المركز.. واستمرت هي بالضحك ومن ثم رمقتني بتلك النظرة كالسهم وكأنها تقول: "لا تتهور يا هذا، سأصفح عنك هذه المرة ولن أفضح أمرك أمام أبي".. وأتبعتها بابتسامة خجل جعلت من وجهي جمرة لهب لم تنطفئ ببرودة الطقس.

لم نمكث طويلًا بـ"يورومارشيه". ففور أن قمت بلفت الأنظار لنا كمجموعات من الشباب سار الكل يتخذ الحيطة منا.. وكأننا مجموعة من المتحرشين تكتلوا بالمول لمطاردة الفتيات.. وعليه، كان علينا الانسحاب بأسرع وقت. كنا قد ظننا بأن الليلة قد انتهت سريعًا حتى بادرني أحد الأصدقاء بالنقاش حول ما دار بالداخل..

obeikan.com

-إيه ياعم عطوة؟؟ بتلعب من ورانا؟؟

-لا والله يا جدعان.. أنا بس قلت أحاول.

-تحاول إيه بس ياسطا؟؟ عايز تظبط!! قوللي..

-كنت ظبطت انت يا خويا جوة، إلا مافي واحد فيكو اتحرك.. وأنا اللي كنت فاكرنفسي باتكسف!

استفزت كلماتي المراهق بداخل الفتى، فقرر أن ينهي الليلة باحتفالية خاصة ومغامرة أخرى.. مغامرة كادت أن تلقي بنا إلى التهلكة وتتسبب في سجننا أجمعين. "محسن"، الفتى الذي قادنا إلى هذا المكان الغريب هو فتى يتفوق عليّ طولًا وعرضًا.. يهتم بملبسه حد الجنون، وارتداء الماركات العالمية من أغلى المحلات هنا له ضرورة حياتية ومطلب عام لديه لا يمكنه الاستغناء عنه. دومًا ما روى لنا عن مغامراته النسائية التي لم يعد يهتم بِعَدِّها من كثرة تاريخه "القذر" كما يسميه.. ولا أعلم إن كانت أساطيره هي فقط للفت الانتباه وتصنع شخصية "زير النساء"، أم أن تلك هي الحقيقة.. لكني على أية حال لم أصدقه أبدًا. كان حماسه شديدًا بعد خروجنا من المركز التجاري.. قاربت الساعة الثامنة مساءً ولم يكن علينا إضاعة المزيد من الوقت.. فكرت في عدة أماكن يمكنه أن يصطحبنا إليها للتعرف على الفتيات، "أين يمكن أن توجد أماكن مختلطة سوى المراكز التجارية في هذا الوقت من الليل؟!".. وكانت الإجابة الصادمة لي هي: "المحكمة!!"..

"سهرتنا الليلة خلوها صبّاحي.. تارا.. تارا.. تات تاتاتا..".. من مذياع إحدى سيارات الـ"لاند كروسر" بصف مليء بالسيارات

الفاخرة حديثة الموديل انطلقت تلك الأغنية لمغنٍّ سعودي ذاع صيته في تلك الآونة يدعى "رابح صقر".. كانت كلمات الأغنية مطابقة لما أتينا من أجله بصورة تفوق الوصف.. وكأن الرجل كان ينتظرنا في ساحة رَكن السيارات بجوار المحكمة ريثما نصل وتبدأ مغامرتنا. ترجلنا من سيارت الأجرة لأستكشف عالمًا جديدًا لم أتخيل أنه كان موجودًا بالرياض. ساحة كبيرة من أرض أسفلتية ومقاعد من رخام أصفر اللون متآكل الملمس وأعمدة إنارة بيضاء الضوء تضفي للمشهد رومانسية من نوع خاص تجعلك تدرك أن مبنى المحكمة بالخلف يكاد لا يُرى بوضوح وسط ساحة أشبه بحديقة أسفلتية تعج بالعائلات. اكتسحت نسب العائلات المصرية هناك كل بقعة من بقاع الساحة.. الكل جالسون يتناولون الطعام السريع ومعلبات المرطبات ولا أحد يعبأ بشيء حوله في تلك الظلمة التي لا يقطعها سوى ضوء كشافات السيارات على جانب صف الركن إلى جانب أضواء أعمدة الإنارة. جلس الفتية في مجموعة كبيرة موحدة تضمنا أنا ومحسن.. ولا أدري ما كان يدور بأذهان أولئك الشباب المتعطشين لمحادثات فارغة مع فتيات بالكاد رأوهن في ساحة كتلك.. في ساحة أمام بناء "محكمة"!! ربما كانت هذه الليلة هي الأكثر تناقضًا في كل ما رأيته هنا بالسعودية.. ففي الواقع مرّ مايقرب من النصف ساعة والشباب لم يقوموا بأيّ خطوة.. فقط الكل جالس وبحوزتهم أقلام حبر وأوراق مقطعة بحجم إصبع يكتبون عليها أرقامًا. حاولت الاستعلام عن هذه "الطقوس" من محسن ليرمقني بنظرة "المتحدي" قائلًا: "إتفرج واتعلم أصول التظبيط يا خام!!". تقدم اثنان من المجموعة

obeikan.com

الجالسة وبحوزتهم أوراق الأرقام تلك مكرمشة ومطبقة تخفيها أيديهم المرتعشة خوفًا من انكشاف ما ينوون فعله.. اقتربوا من عائلة مصرية جالسة أسفل أحد أعمدة الإنارة يتناولون عشاءً من شطائر الشاورما برفقة فتاتين تقربان من أعمارنا.. وبينما الكل منشغل في الأكل، لاحظت إحدى الفتاتين اقتراب أحدهم.. وعلى الأرجح يبدو أنها استلطفت هيئته فتركته يقترب حتى ألقى بورقته وانصرف وكأن شيئًا لم يحدث. راقبت الموقف جيدًا.. راقبته كما لو كان درسًا حقيقيًّا في "التظبيط".. الفتاة رمقته بتلك النظرة التي عبرت عن رضا وامتنان كبيرين وهو تأكد من أنها لاحظت ما ألقاه. فور أن أتى الفتيان إلينا ظللنا نراقب الفتاة عن بعد.. وبعد ثوانٍ.. اقتربت هي من موقع الورقة مدعية بأنها تتمشى بالجوار.. انحنت لالتقاط الورقة، قرأت مابها.. ومن ثم ابتسمت ونظرت إلى الفتى الجالس بجانبي نظرة جعلت منه أسطورة. همّ الجميع في مجموعات منفردة كلٌّ يبحث عن فريسة.. الكلّ منشغل الآن باختيار الظرف والمكان المناسبين لإلقاء حبل الصنارة بطعم الورقة التي تحوي رقم الجوال. في الواقع كان الأمر يستهويني لأجرب.. قلت في قرارة نفسي: "لو أني جربت.. ما أقصى ما يمكن أن يحدث؟!". فكرت في أن "مهيب الركن" عندما يقرر أن يفعل شيئًا كهذا، عليه أن يبتكر ماهو جديد لضمان مستوى أفضل وإيصال الرسالة كما ينبغي بنسبة خطأ لا تتعدى العشرة بالمائة.. حسن يا هواة التظبيط.. تقومون بصنع "صنارة خشبية"؟؟! سأقوم بصنع "شبكة صيد" كاملة. استعنت بورقتين كبيرتين من الكراسة التي اشتروها لأداء مهمتهم.. جلست على أحد المقاعد الرخامية

الصفراء بجانبه بقعة ضوء خافتة وأخذت أقطع الورقتين الكبيرتين إلى أوراق صغيرة لكتابة "الأرقام". كان الجميع يضع رقمه الخاص فقط.. ولكن.. ماذا لو كانت الفتيات لا تملكن هواتف جوالة؟؟! كان عليّ أن أفكر بكل احتمال مهما تضاءلت نسبته.. كان عليّ بالفعل صناعة شبكة صيد من الأرقام. أخذت أكتب وأكتب وأكتب.. كتبت أرقامًا تتضمن منزلي وهاتف والدي الجوال ووالدتي وهواتف العمل في المستشفى.. في الحقيقة لا أعرف ما إذا كنت أعاني خللًا عقليًّا وقتها.. لأني قد كتبت أرقامًا حتى وإن هاتفتني الفتاة عليها، فلن يكون بمقدوري الرد عليها.. لكن سرعان ما تذكرت أني بالأصل لا يهمني ما إذا كنّ سيتصلن بي أم لا.. كل ما أردت معرفته حقًّا في تلك الليلة هو "هل ستلتقطن الورقة أم لا؟!". بحثت بعيني كالرادار يحاول التقاط إشارات لفرائس حولي.. رأيت إحداهن.. فتاة لم تكن بالقدر الذي يرضيني من الجمال مرتدية العباءة السوداء كمثيلاتها هنا.. لكن ذلك كان مُرضيًا لي، فجمال أقل يعني نسبة أكبر بتقبلها لرقم أيّ شخص سيحاول التقرب منها.. وعليه، يمكنني ضمان نسبة كبيرة من الفوز. اقتربت من الفتاة الجالسة وسط عائلتها التي بدا لي أفرادها في البداية من أهل الصعيد المصري.. لكن سرعان ما لاحظت تغير اللهجة إلى السعودية.. وأن هذا كان فقط "تشابه أزياء" في الملابس. تحينت اللحظة المناسبة قبل أن أكتشف أن يدي ممتلئة بكرات الوريقات الصغيرة تحوي الأرقام.. كان عدد الوريقات المكورة كبير.. فهممت بإلقائها على الفتاة وأنا على يقين من أنها ستلاحظ الوريقات.. فإن لم تلاحظ واحدة، ستلاحظ

الأخرى والأخرى والأخرى! ويبدو أنها لاحظت.. ولكن ليست وحدها، فبعض الوريقات تناثرت على وجه أبيها وإخوتها الصغار.. نظر الأب حوله ومن ثم فتح إحدى الوريقات ليجد رقم هاتف بها.. تدارك الأب الموقف وتغيرت قسمات وجهه إلى شخص سيركل مؤخرة من ألقى بتلك الأوراق. في تلك الأثناء كنت قد هممت بالاندساس وسط الزحمة-هاربًا منه- حتى لاحظت أحد رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقترب بسيارة اللاند كروزر البيضاء ومعه ثلاثة من رفاق العمل ضخام الجثة طوال القامة.. كانوا متوجهين بالسيارة إلى مكان "محسن" الذي أمسكه أحد الآباء يحاول التقرب من ابنته.. تابعت الموقف عن بعد، وفور أن أمسكوا به وحاولوا جرّه إلى السيارة وهو يصرخ "أنا ماعملتش حاااجة.. والله ما عملت حاجة"، استوقفهم للحظات وهمس في أذن أحدهم-أكثرهم ضخامة- بكلمات لم أسمعها، ولكن سرعان ما فهمت مدلولها عندما رأيته يشير إليّ وكأنني شريك الجريمة معه.. يشير إليّ ليلتفت الرجال الأربعة لي بنظرات الوعيد ويتحولوا من وضعية الثبات إلى وضعية "المطاردة".

كنت أعلم أن هذا الوغد هو صديق "أيمن" أزرق العينين.. لكني لم أشك به ولو للحظة.. لم يخطر ببالي أن تكون الليلة هي "مكيدة" حقيقية للإيقاع بي وتلقيني درسًا لن أنساه لما فعلته بـ"أيمن" بالمجموعة. ركضت بأقصى ما يمكنني من سرعة هاربًا من أربعة دببة ملتحين متوحشين في زيّ جلباب أبيض.. لم يتكلفوا عناء الجري، بل قفزوا إلى سيارتهم وهمّوا بمطاردتي.. ركضت وأنا

لا أعـرف إلى أيـن أذهـب.. اختبـأت قلـيلًا في السـاحة الخلفيـة لمبنى المحكمـة.. أخـذت أنفاسـي تتصاعد وتصـببت عرقًـا كافيًـا لإغراقي.. نظـرت يميني بمحـاذاة الحـائط أحـاول أن أفـتش عـن سـيارتهم وسـط الظـلام بـلا جـدوى.. "بمـاذا أخبرهم هـذا اللعـين عني؟؟!!" لـم أتوقـف عـن التفكير بـذلك ولـو للحظـة واحـدة.. مـا هـذا الإصـرار علـى الإمسـاك بـي؟؟! سـمعت صـوت محـرك سـيارتهم الدبابـة المشـؤوم فركضـت مـن جديـد.. وصـلت إلى شـارع حيّ بـه العديـد مـن الأسـواق التجاريـة و"التموينـات"-محـلات البقالـة كمـا يسـمونها هنـا- فحـالفني الحـظ وسـط زحـام الجمهـور والمـارّة حتـى يئسـوا مـن مطـاردتي وتركـوني وشـأني. لـم أعـرف أيـن أنـا أو مـاذا علـيّ أن أفعـل.. تلـك الشـوارع لـم أخطُهـا مـن قبـل، والوقـت متـأخر.. حاولـت الاتصـال بـأبي مـن هـاتفي المحمـول فـإذا ببطاريـة الهـاتف قـد نفـدت! كل مـا أعرفـه هـو اسـم شـارعنا "المنفوحـة".. سـألت الكثيرين عـن كيفيـة الـذهاب إلى هنـاك، الكـلّ يطلعـك أن الحـل الوحيـد هـو سـيارة أجـرة.. لكـن سـيارات الأجـرة اللعينـة هنـا لا تسـير وفـق سـابق معرفـة بالشـوارع.. "عليـك أنـت أن تشـرح لـه الطريـق وهـو يقـود فقـط!! وللمـرة الأولى التي أشـتاق فيهـا إلى مصـر ومواصـلاتها العامـة كانـت يومهـا. جلسـت على عتبـة أحـد التموينـات أسـتريح قلـيلًا وأحـاول التفكير بطريقـة توصـلني إلى المنـزل.. كـان أملـي الوحيـد هـو أن أجـد سـائق أجـرة "يفهـم". أوقفـت الكثير مـن سـيارات الأجـرة في تلـك الليلـة.. معظمهـم كـانوا "هنـودًا" ولا يكـادون يفقهـون شـيئًا.. لا أسـتطيع التعامـل معهـم بشـقّ تمـرة. رجـوت الله أن ينقـذني مـن تلـك الليلـة التي عانيـت فيهـا الكثير.. كـان الأمـر جـديًّا هـذه المـرة.. شـعرت بإحبـاط كبير لأنـي لـم

أستطع كـ"مهيب ركن" التصرف.. لكن.. يقال دومًا أنه في أحلك الظروف لا يزال بصيص الأمل موجودًا.. وكان الأمل في سائق تاكسي "مصريّ الأصل".. كان شيخًا كبيرًا ينطق بالمصرية.. أحسست بالألفة، بالوطنية إن شئتم تسميتها.. وما أذهلني هو معرفته لشارع المنفوحة فور ذكري للاسم.. أخبرني بأنه سيقود مارًّا بالشارع بأكمله وأنه عليّ أن أتذكر أين يقع منزلي.. وكان ذلك عليّ يسيرًا، فقط حمدت الله أن أحدًا يمكنه الذهاب إلى هناك من دون وصف للمسافة بين هنا وهناك.

مع استلقائي على سرير الغرفة ذي أغطية القطن المدعمة بالبوليستر، وتشغيل زر جهاز التكييف المزعج.. تذكرت ما كنت على وشك الوقوع به في تلك الليلة السوداء.. تذكرت أن لكل شيء "عاقبة".. تذكرت مقولة والدي لي في أحد أيام الجمعة وقت التبضع ظهرًا: "لو هتخلع ضرس وانت عارف انك مش هتعرف تشيل جدوره لو اتكسر منك.. يبقى ماتخلعهوش أحسن".. كان محقًّا، فلكل حركة وكل قرار تتخذه في حياتك عواقب.. إما أن تتحملها.. أو تبتعد منذ البداية.

(17)

-يلّا يا ابني هنتأخر..

-يا بابا قلتلك مش هانزل.. مش هاروح أنا كده!!

-كده إيه بس؟؟! يا حبيبي ما كلهم كده..

-كلهم كده إزاااي؟؟! بص.. لو اتطربقت السما عالأرض مش هارووح!!

-عبد المعطي.. ماتعملشي زي العيال الصغيرة.. إخلص المحلات هتقفل..

-بابا.. ريح نفسك.. أنا.. مش هاروح.. المدرسة.. بـ"جلابية بيضا وشبشب جلد"!!!

ظلت المناوشات بيني وبين والدي في هذا الأمر أسبوعين قبل البدء بالعام الدراسي الجديد.. أسبوعان يحاول كلٌّ من والديّ إقناعي بأن جميع الطلاب والأساتذة والمدير يرتدون الزيّ الرسمي الذي بدا لي في بادئ الأمر كنوع من "التخلف"!! "كيف لي أن أذهب إلى مدرسة بالجلباب الأبيض والشبشب الجلد-أو كما يسمونه نعال-وشماغ وغترة؟!!" تخيلت نفسي للحظات ولم يستطع عقلي استيعاب الموقف. حاول الجميع جاهدًا إقناعي بأن "الملك فهد" نفسه يرتدي هذا الزيّ، وأن عباءته فقط تقدر بملايين الريالات.. لا أعلم إن كان هذا صحيحًا، ولكن السؤال الذي طرأ ببالي منذ سماعي لتلك القصة: "لماذا يضع هذا المقدار من المال في جلباب

وعبـاءة؟" قـد يكـون الأمـر مشـابهًا لمـا لـدينا في مصـر مـن قبائـل الصـعيد وملابسـها التـي تفصـل بمقـاييس وأقمشـة ذات قيمـة لا يـدركها أهـل الحضـر.. لكنـي لازلـت عنـد رأيـي.. لـن أرتـدي جلبابًـا للـذهاب إلى المدرسـة. حاولـت أمي إقنـاعي بأنـه لـيس بجلبـاب، وإنمـا يسـمي "ثوبًـا"، وأنـني لسـت مضـطرًّا لارتـداء الشـماغ.. حـاولوا جاهـدين تغيير تلـك الفكـرة برأسـي عـن المـدارس السـعودية، وبتلـك السـمعة المنتشـرة عـن سـهولة المنـاهج وأن الطلبـة المصـريين خريجي التعلـيم السـعودي هـم أقـل فهمًـا ومسـتوى تعليميًّـا عـن أقـرانهم في مصـر.. كانـت حجـة أمي هـذه المـرة أن الثانويـة العامـة في التعلـيم المصـري تمتـد لعـامين، أمـا هنـا فهـي العـام الأخير فقـط، وعليـه يمكنـني التعـود على النظـام التعليمـي هنـا في السـنة الثانيـة لأكـون مسـتعدًّا للثالثـة بتروٍّ. كنـت كمـن لا حيلـة لـه.. واضـطررت إلى النزول أخيرًا مـع أبي لشـراء "الثـوب" الأبـيض للصـيف والملـون للشـتاء ونعـال جلـدي بني اللـون لأرتـدي الملابـس وكـأني بـدوي ذاهـب إلى خيمـة ولـيس مدرسة.

اسـتيقظت وأنـا أفكـر بـألف شيء حـول ماهيـة مـا أنـا مقبـل عليـه.. هـل سـأعتاد عـلى تلـك الحيـاة؟؟ هـل سـأتعامل هنـاك كشـخص عـادي أم أنـي سأضـطر إلـى صـناعة إمبراطوريـة جديـدة؟؟ ربمـا هـي تلـك الفرصـة الحقيقيـة للانغمـاس في ثقافـات عـدة وتطـوير شخصـيتي كمهيـب ركـن.. ربمـا الآن فقـط هـو الوقـت المناسـب لأكـون مهيـب ركـن يحـاكي جنسـيات عـدة مـن العـرب.. حسـنٌ.. عليّ أن أتـرك انطباعًـا أول يـذهل الجميـع.. وسـأبدأ بـبعض التعـديل علـى "الملابـس وتسـريحة

الشعر!" كان أفضل ما في تلك المدرسة هو أنها تبعد عن المنزل مسافة شارع تقريبًا.. قريبة ويمكنني الذهاب والعودة وحدي كل يوم. وصلنا أنا وأبي أخيرًا.. ترجلنا من السيارة وأنا لا أعلم ماذا سأقول أو ماذا سيحدث في هذا اليوم. فور دخولنا من الباب الرئيسي لمقابلة "وكيل المدرسة"، لم تتوقف الأعين عن النظر إليّ ولو للحظة واحدة.. الكل يستغرب هيئتي.. والبعض يستنكرها.. شاب لا يوجد بذقنه شعرة واحدة.. بيضاء كما لو كانت مؤخرة طفل حديث الولادة، وسالفان طويلان يتخطيان طول أذنيّ وتسريحة شعر لأكثر الممثلين الهوليوديين شذوذًا على مرّ العصور، لم يترك (جيل) الشعر بقعة فيها إلا وأغرقها لمعانًا وزهوًا.. الثلاثة أزرار الأولى من الجلباب كانت مفتوحة وكأني أحد نجوم السينما، مررت بجانب إحدى المرايا ونحن متجهون إلى الوكيل لأرى فيها شخصًا يشبه "إلفيس مرتديًا جلبابًا أبيض!!"، ووالدي لا يزال يشعر بالإحراج في كل خطوة نخطوها بين الناس. كانت الوهلة الأولى لدخولنا إلى الوكيل هي الفاصلة في العامين المقبلين.. فعندما نظر إليّ الوكيل للمرة الأولى ورمقني بتلك النظرة كما لو كان صقرًا يتحين اللحظة للانقضاض عليّ جزاء ما فعلته بالزي الرسمي، وعلمت أني سأقع في ورطة. بعد التعارف طلب منه أبي وضعي في صف من صفوف "المتفوقين" لعل ذلك يرفع من مستواي لأكون بجانب أعالي الدفعة لضمان مستوى تعليميّ جيدًا.. لينظر إليّ الرجل كما لو كان يتوعدني بشيء ومن ثم يرد: "أجل إنشالله.. يصير خير.. يصير خير". اطمأن أبي وكأنه بالفعل قام بما عليه ووصى الرجل عليّ، وانصرف تاركًا إياي في تلك المدرسة الغريبة

وجولة مع مساعد الوكيل إلى الفصل الذي "أفترض" بأنه صف المتفوقين.. الفصل الذي غيّر نظرتي إلى الأبد عن المدارس السعودية الحكومية.. فصل: "تالت-طبيعي-تاني"!

تقدمت في جولة عامة حول المدرسة مع مساعد الوكيل ولا يزال الجميع محدقًا بي كأنني "سائح لعين".. "مابالكم يا قوم؟ أليس لديكم ما تقومون به؟؟!". تصنعت اللامبالاة وأكملت طريقي.. ربما أكثر ما لفت انتباهي هنا هو نظافة المكان ورقيّه.. كمدرسة حكومية، فتلك تعتبر بمثابة مدرسة خاصة لدينا بمصر.. الأرض من مادة غريبة لم أستطع التعرف عليها ولكنها تشبه الرخام.. لا "بلاط" هنا إطلاقًا.. تصميم المدرسة كان يشبه أحد الفنادق، ساحة كبيرة مفروشة بسجاد الصلاة الأخضر في الوسط يحدها من كل الجوانب أدوار الفصول التي لا تتعدى الأربعة أدوار.. الإضاءة مريحة للعين وتسمح للشمس بالمساهمة بضوئها فينتج جوًّا أشبه بأماكن اليوجا القديمة.. حالة من السكون لم أشعر بها في المجموعة أو السفارة أو مدرستي بمصر.. حالة من "الألفة". فور إنهائنا للجولة القصيرة اتجهنا إلى الدور الثاني حيث يقع الفصل المجيد.. النقطة التي علمت فيما بعد أنها كانت "نقطة انطلاقي الحقيقية" لأكون مهيب ركن. توقف مساعد الوكيل وطرق الباب في حالة ذهول من الجميع عن ماهية زيارة مساعد الوكيل المفاجئة.. قام بتقديمي من دون ذكر أني "طالب جديد".. في الواقع من دون ذكر أني طالب بالأساس، وأنهى جملته بـ: "إتفضل يالحبيب، عساك ما تشوف شر.. الله معك". تقدمت بخطوات

ثابتة يعقبها خطوات أخرى يشوبها شيء من القلق.. "لم الكل محدق بي هكذا؟؟!".. شاهدت ما لا يقل عن عشر جنسيات مختلفة.. بيض الوجوه، سمر الوجوه، خضر العيون، السمين للغاية والنحيف الذي تخشى أن تسلم عليه بقسوة أو حتى تصطدم به بدون قصد فتكسر عظامه.. شاهدت الكل وقد نبتت اللحى بوجوههم كأنهم وُلدوا بها.. في الواقع لم يكن مظهر اللحية على الوجه قبيحًا كما ظننت، ربما أجده رجوليًّا بعض الشيء عن كوني أشبه "سوسن"! جلست في نهاية الفصل أترقب صمت الحِملان الذي يسود أرجاءه، الكل ينتظرني أن أقوم بخطوة ما كما لو كنت قائدهم. كسر هذا الجليد أحد الطلاب قصار القامة، برونزي البشرة ذو أنف طويل للأسفل كأنف فيل متدلٍّ وعينان هادئتان.. شماغه كان غريبًا، ملقى على رأسه بلا عقال يثبته لكي لا يقع أرضًا.. تذكرت عندما كنت أضع الـ"فوطة" على رأسي بعد الاستحمام.. تقدم بخطوات هادئة وبادرني بالسؤال:

-أجل سلامعليكم..

-و عليكم السلام ورحمة الله وبركاته..

-حياك الله يا اخوي..

-أهلًا وسهلًا..

-ياهلا، أبي أعرفك بنفسي.. أُوخُوك عبد الله القحطان..

-أهلًا أهلًا.. أنا عطوة.. قصدي.. عبد المعطي..

-أااي وااا.. أجل من وين أنت؟

-من مصر..

-يا هلا يا هلا يا هلاا..

ثم قام بمناداة "شلة المصاروة" كما يسمونها هناك لملاقاتي.. مجموعة من أربعة طلاب مصريين جميعهم من أصل فلاحي وصعيدي.. ضياء، كمال، زكي، أحمد عباس.. الأخير لا أدري لم يذكرون اسمه وكأنه اسم مركب كما في فيلم عبد الحليم: "أحمد ممتاز"، ولكن لم تكن تلك مشكلة بالنسبة لي. احتضنوني كما لو كنت في سجن ووجدت قبيلتي أو طائفتي التي سأكون عضوًا بها حتى تنتهي فترة دراستي هنا. بدأ الجميع يعتاد على الحديث إليّ بسرعة.. في الواقع كان اليوم الأول على غير المتوقع.. كان الكل كريمًا معي بالفعل، لم يتصنعوا البهجة لأجلي.. لم يتصنعوا الابتسامات الزائفة.. تعرفت على الجميع في الحصتين الأولى والثانية.. على مازن ويَزَن السوريَيْن، وعبد الله القحطاني الذي بدا لي شهمًا وكريم الأخلاق.. تعرفت إلى "معاذ"، الفتى الفلسطيني الأكثر تفوقًا في المدرسة، وعبد العزيز وعمر الأردنييْن القصيرين من ذوي العيون الملونة.. تعرفت إلى "أبو سلطان".. تلك الشخصية التي أوقعتني ضحكًا عندما تحدث وأكد لي أنه صورة طبق الأصل من "سعيد صالح" في مسرحية "العيال كبرت"، نبرة صوته وخفة ظله وشكله المطابق له إلى أقصى درجات الشبه ولكن باللهجة السعودية جعلوه يدخل إلى القلب بسرعة.. وأخيرًا.. الطلاب الثلاثة الأغرب على الإطلاق من أصل "موريتاني": "نبغوها"، "خلوهالنا" وأخوهم الأصغر "سلامبوها"!! حاولت مازحًا إطلاق مزحة لأخيهم الأكبر "نبغوها" كما نفعل نحن المصريين لكسر حاجز

الجليد قائلًا: "هي إيه بقي اللي تبغوها يا عم إنت؟؟! ههههه".. صمت الجميع كما لو كنت سخرت من معتقد ديني غريب لدي أهل موريتانيا، تكلمت: "هو أنا قلت حاجة حرام؟؟!"، ليبدأ الأخ الأكبر طويل القامة كما لو كان نخلة سوداء بالسب والشتم لي بلغته الأم.. جميع من بالصف حاولوا منعه من ضربي.. الجميع بلا استثناء.. وأنا لا أفهم شيئًا.. حتى تدخل الأخ الأصغر "سلامبوها" بكلمات لم أفهمها وكأنه يحاول تهدئته فبردت ناره وابتسم لي ابتسامة كشفت عن بياض أسنانه الناصع.. ظننت أن الأمر قد انتهى، حتى ألقى لي بكلمات غريبة وهو مبتسم: "ناشنتينا تيا تونكا مع الكاركا".. فابتسمت له وتبادلنا الأحضان كما في برامج الوحدة الوطنية الرخيصة.. والإخوة الاثنان الآخران بادلاني نفس الجملة: "ناشنتينا تيا تونكا مع الكاركا".. كم أنا سعيد. عدت إلى البيت سيرًا لأعتاد على المسافة والوقت بين البيت والمدرسة.. كان يومًا حافلًا وبداية مشرقة لعام دراسي جديد.. بات عليّ الآن أن أتعلم أكثر عن هذا العالم الجديد.. بات عليّ الآن أن "أحكم هذا العالم".

ثلاثون يوما كافية جدًّا لأنال مرتبة رفيعة بين الكل هنا.. ثلاثون يومًا رأيت فيها العجب العجاب عن كل شيء.. ربما الآن فقط شعرت أني بمدرسة حقيقية.. الجداول منظمة وكل شيء بمحله.. لست مضطرًّا لأخذ دروس خصوصية كما اعتاد الكل في مصر عليها، ففي الواقع لم يكن فقط الأمر أن المناهج التعليمية هنا أسهل من عندنا.. لكن الحقيقة تكمن في أن القائمين على

opeikan.com

التدريس أكثر إخلاصًا في عملهم. لا أحد يبخل عليك بشيء، فأنت هنا لتتعلم.. وما أثار دهشتي أنه أخيرًا صار لدينا "حصة تربية رياضية" حقًّا.. ملعب كبير أرضيته صنعت من شيء يشبه المطاط لامتصاص الصدمات لدى الجري والوقوع.. يمكنك بالفعل الركض ولعب كرة القدم حافي القدمين.. وداعًا للحوش الرملي، ووداعًا لأرضيات البلاط التي لا تزول منها رائحة المنظفات الرخيصة.. كان كل شيء هنا بقدر.. وفور إنهائنا للحصة القبل الأخيرة كان أذان الظهر يطلق صيحاته ليركض الجميع إلى الخارج، إلى الساحة المفروشة بسجاد الصلاة الفاخر الأخضر في الوسط يحدها أدوار الفصول.. الكل يصلي، والكل سعيد.. ليست السعادة هنا لأننا نؤدي شعائرنا في وقتها، وإنما لأن وقت الصلاة دومًا ينال قسطًا من الوقت يعادل نصف وقت الحصة الأخيرة.. وفي الأغلب قد تلغى الحصة ويذهب الجميع إلى منازلهم. كانت أيامًا ذهبية لي لم أشعر فيها إلا بالسعادة، وكأن الله يعوضني مشقة نظم التعليم السابقة والغريبة! تعلمت في الشهر الأول الكثير من اللهجات كالسودانية من مدرس اللغة الإنجليزية السوداني الأصل، والسورية من مازن ويَزَن، وبالطبع السعودية بأنواعها ولهجات القبائل المختلفة من جميع من عرفتهم هنا من أهل قحطان والعنيزي والعتيبي وأهل جدة الذين يستبدلون حرف الـ"جيم" بالـ"ياء".. في الحقيقة صرت أتحدث إليهم بلغتهم أفضل منهم، حتى إن معظم الجنسيات الأخرى كانوا يرجونني أن أتحدث إليهم بلغاتهم.. وكان سيلٌ من الضحك يعم المكان عندما يبدؤون هم بالتحدث بلغتي "المصرية"!! مهما حاولت تعليمهم، كانت اللهجة

المصرية هي الأكثر غرابة، ولا يزال الكل يود التحدث بها. في أحد أيام الخميس تعرفت إلى توأم متطابق من قبيلة "العنيزي".. فتيان قصيري القامة ضئيلي الجسد كما لو كانا يعانيان من الأنيميا ووجه يتوسطه أنف مدبب طويل كمنقار بطٍّ ونبرة صوتٍ حادة تميز أهل تلك القبيلة.. "صَطّام ومالك".. الأخوان السعوديان الأكثر صيتًا هنا.. يقال إن "صطام" كان يدعى في البداية "صدام"، وعندما اشتعل الرئيس "صدام حسين" غضبًا وكان ما كان من أحداث الكويت، كان اسم "صدام" من الأسماء التي تغيرت إلى "صطّام". لا أدري إن كانت تلك الأسطورة صحيحة أم لا، لكن الشباب يتناقلونها هنا مما جعل من ذاك التوأم حديث الكل. لم تكن بدايتي مع "صطام"-وهو النصف الشرير من التوأم- بداية موفقة.. ففي الحقيقة ذاك الصغير بادلني بالإهانة في المرة الأولى التي تحدثنا فيها.. حاول أن يسخر مني متحدثًا باللغة المصرية قائلًا: "إنت يا اسمك إيه.. إنت مالك كدة مش على بعضك.. شكلك كدة هتطلع إبن أونطة وهتتعبنا معاك".. قد تكون لهجته الغريبة تلك عندما حاول أن يتحدث بالمصرية هي ما أوحت لي بأنه "شاذ جنسيًّا"، ولكن ترتيب الجملة والكلمات غير المنطقية بها أثار جنوني فبادرته بالرد: "هي إبن الأونطة ديه خليتوها شتيمة؟؟.. إنت عارف يا ابني اللي بيتكلم زيك كدة بنقول عليه إيه في مصر؟؟!".. صاح غاضبًا ولا يزال يتحدث بلغة مصرية ركيكة: "إييه إيييه بس يا مصري، إنت شكلك كدة بقى الفول والطعمية عاملين أحلى شغل".. هممت بالرد عليه فبادره "زكي" بلكمات وصفعات على الوجه حاصرًا إياه في ركن بعيد بالصف مرددًا: "مالك ياد ومال

Obeikan.com

المصـريين؟؟!.. أسـياادك يـلاا!.. المصـريين دوول أسـياادك!!". حاولـت التـدخل لإيقـاف تلـك المشـاجرة ففوجئـت بـأن لا أحـد يحـرك سـاكنًا.. حتى أبـو سـلطان وعبـد الله.. لـم يحـاول أي مـنهم التـدخل للـدفاع عـن صـديقهم "السـعودي". سـألت الجميـع مابـالكم لا تحـاولون فعـل شـيء، رد الكـل علـيّ بـأني سـأعلم بعـد قليـل.. وفـور انتهـاء الشـجار، قَبّـلَ زكي رأس صـطّام وأخـذ الاثنـان يضـحكان وكـأن شـيئًا لـم يحـدث.. "يا ولاد المجانين"!!!!

في المنـزل كانـت أيـامي جميعهـا مرتبـة علـى نظـام واحـد.. كـل الأيـام مدرسـة حتى يـأتي الخمـيس فـأراجع كـل مـا فـاتني ومـن ثـم نخـرج الجمعـة للعشـاء خارجًـا. كـان الأمـر كنظـام صـارم لا يختـل، ولا يجـوز أن يختـل.. كنـت سـعيدًا بكـل لحظـة أقضـيها هنـا ولا أهـتم بكـوني أرتـدي جلبابًـا أو قمـيص نـوم.. بـل يبـدو أن جسـدي العـريض بـدأ يتـأقلم بالفعـل علـى ارتـداء الثـوب والنعـال الجلـدي. حاولـت أمـي العـودة إلى عملهـا السـابق مـن جديـد بعـد أن تعهـدت لوالـدي بعـدم الرجـوع إلـى كتابـة الوصـفات العشـبية ووصـفات الـرجيم بـدون تـرخيص فـور إصابة إحـدى السـيدات مـن الجيران بطفـح جلـديّ غـزا وجههـا الجميـل.. كـان ذلـك بمثابـة الضـوء الأحمـر لهـا لتمتنـع عـن تقـديم الخـدمات غير الشـرعية، حتى وإن كانـت في الواقـع مـاهرة.. فتلـك الحادثـة كـان مـن الممكـن أن تـودي بنـا إلى التهلكـة ونحـن أغـراب عـن تلـك البلـد.. لكـن يبـدو مـن محادثاتهمـا أنـه لا جديـد. رضـيت أمـي بالبقـاء في المنزل كفترة نقاهـة تسـتريح فيهـا مـن أعبـاء تلـك المهنـة بعـد أن ادخـرت منهـا أمـوالاً طائلـة، وكانـت سـببًا كبيرًا في دعـم عائلـة غـازي

ماديًّا.. لكن مكالمة هاتفية في ليلة هادئة عكرت مزاج والدي.. أخذ يصرخ ويسب أحد مديري مستوصفات رجل الأعمال الطبيب المنافس لهم.. "قولتلك بلاش يا شيخ طلال، قولتلك مش هيعدوها المرة ديه!!، أنا رحتله أكتر من مرة وسفيت التراب عشانكو"..ارتفع ضغطه وزادت نسبة السكر في دمه وقتها بعد أن شعر بدوار ليغلق الهاتف ناهيًا تلك المكالمة المشؤومة.. حاولت أمي الاستفسار عما حدث فلم يتحدث وقتها، اكتفى بالجلوس صامتًا مرددًا: "لا حول ولا قوة إلا بالله.. رحمتك يارب".

كانت جلساتنا في الفصل تقتصر على موضوعين على وجه العموم.. الحديث عن ثقافات وطبيعة كل بلد وجنسية.. وبالطبع، الحديث عن "فتيات" كل جنسية. إن كان هناك شيء لاحظته في تلك المدرسة فهو: "أين الفتيات؟؟!".. وكان هذا السؤال كوميديًّا لدرجة جعلت الإخوة "سلامبوها" و"نبغوها" و"خلوهالنا" يخرجون عن صمتهم ويشاركونا الضحك.. كأني أسأل عن "المسكوت عنه".. الجميع أحاطني علمًا بأن هنا بالمدارس السعودية "الاختلاط حرام شرعًا". لم أستوعب تلك الجملة كما ينبغي، فقام أبو سلطان بشرحها لي، ليست من وجهة النظر الدينية.. وإنما من وجهة نظره هو:

-أجوول يا أبو عطوة.. تدري لو أن حُرمَة تَدخُل بالصف.. يهتكون عرضها يالحبيب!

-يا راجل!!.. ليه ياعم ؟؟.. انتو محرومين أوي كدة؟؟

-آااي واااا.. والله هــادووول ذئــاب يــاخوي ســلم الله وجهــك.. شُــف شُف كِيف يسَوون؟؟

-أومال هي كلها رجالة كدة؟؟

-إيييه مافي شيء الحين إختلاط وما ادري كيف..

تدخل مازن السوري بكلمات كادت تهز جدران الحوائط قائلًا:

-يا ابو عطوة والله لو شيفتا للمرا هوون بأسوي أحلى شغل..

-يـا جـدعان ده الواحـد يخـاف علـى نفســه مـن سـعار الكـلاب ده ههههه..

تدخل أحد الأخوين الأردنيين قائلًا:

-لــك والله لــو يســوون مِتــل مدرســة المشــاغبين.. بــأفظححح عرضهاااا يازلماااااعااااااا..

بـدا لي الكـل مريضًـا هنـا.. لا يتحـدثون سـوى عـن الجـنس وكيـف يخططون لبناء نفق بينهم وبين مدرسة البنات التي تبعد عدة أمتار عــن مبنـى مدرســتنا.. المجـانين بالفعــل خططــوا لــذلك.. عنــدما شــاهدت مدرســة البنــات بالخــارج تيقنــت أن تلــك الاحتياطــات الهندســية ليســت هبــاءً بالمقارنــة مــع حــديث أولئــك المســاكين المحــرومين.. المدرســة مدعمــة بأســوار ولــيس ســورًا واحــدًا فقــط، ومســاحات شاســعة مــن الأراضــي حولهــا، وأســلاك شــائكة أعلــى كــل ســور، وحراســات شــديدة ونظــم تــأمين دخــول وخــروج خاصــة بــأبواب حديديــة يبلــغ ارتفاعهــا أمتــارًا.. لأجــل منــع الاخــتلاط، قــاموا بعــزلهن عــن العــالم أجمــع!!. صــرت أخشــى علــى جازمينــا مــن تلــك المخــاطر كلما تذكرت هذا اليوم.. ألا لعنة الله على محادثات الشباب!

بينما كنا جالسين نحاول مناقشة كيفية الوصول إلى مدرسة البنات المجاورة، دخل مدرس الرياضيات الجديد.. وكالعادة وكما اعتادوا هنا فمدرسو الرياضيات كانوا ولا يزالون من جنسيات معروفة فقط كما لو كان الأمر "توريثًا".. إما مصريّ أو سوريّ.. وهذه المرة كان مصريًّا كما ذُكِرَ في الكتاب.. ولكن بتعديل بسيط. كان أستاذ "بهاء خشبة" يذكرني بمدرس الرياضيات بالمجموعة، لكن هذا كان أكثر تَمَديُنًا، وإن كانا لا يزالان يشتركان في رائحة العرق السيئة. لا يزال قميصه "الكاروهات" وبنطاله الجينز الأزرق عالقيْن بذهني كما لو كان وُلد بهما وكانا من تكوينه الجسدي الأصلي.. ولطالما أردت طرح هذا السؤال على الكثير من المدرسين المصريين بالخارج: "لم لا تبدلون ملابسكم كنوع من التغيير؟!".. الملابس هنا قد تعتبر من أرخص السلع.. ولا زلت أقابل أساتذة مصريين لا يتكبدون عناء الاهتمام بأنفسهم. ما زاد من غضبي هو تلك الطريقة اللعينة في التحدث بلهجة ما بين اللهجتين السعودية والمصرية.. هنا ينطقون الضاد "ظاظ"، ولكن الأكثر بشاعة عندما تستمع إلى مصري ينطق الظاء "زاز"!!! لم يتوقف عن قول: "إتفزلوا معايا"، "مابتتفزلوش لييييه؟؟!".. "رمزاان كرييييم".. وعندما هم أحد الطلاب السعوديين بالإجابة عن أحد الأسألة واتضح أن الفتى لا يفقه شيئًا في علم الجبر وحساب المثلثات، بادله أستاذ بهاء قائلًا بتلك اللغة الغريبة: "لاا لا لااا.. هازا كسيير يابو فياز.. والله هازا كسيير يا أخي.. دا أنا لو جبت بزر صغير من البزران إخواتك هيجاوبوا أحسن منك.. لا أنا كدة هابغى أقابل الوالد بقى.. عشان هازا كسيير والله".. "البذر" هو الطفل الصغير

لدى السعوديين، وجمعها "بذران" أو يقال "بذورة".. لكن القمامة التي سمعتها في تلك الجملة كانت كفيلة لإحراجه أمامنا لوقت ليس بهينٍ حتى يتناسى عقلي كل ما قيل من تلوث سمعي ولغوي وتراثي يمس الأمن القومي لكلا البلدين.. حبًّا في الله.. كفاكم أيها المصريين!!.. فإن كانت تلك طريقتنا لنطق لغتهم.. إذن لا يمكنني لومهم عندما يطلقون علينا "المصاروة"!!

قاربت إجازة نصف العام ولا زلنا غير متأكدين من قضائها بمصر أم هنا.. لكن كما توقعت، لا إجازات ستقضى في مصر الآن حتى ننهي ما علينا من التزامات مادية.. ولعلي اعتدت على العيش هنا حتى صرت أسأل نفسي عما إذا كنت أريد زيارة مصر من جديد أم لا. بمرور الوقت تتلاشى كل ذكرى لديّ عما سبق وعشته في فترة مصر.. تتلاشى صورة شارع التحرير حتى تكاد تطغى عليها صور شوارع العليا وبهاؤها وزهوها.. يتلاشى برج القاهرة حتى صارت صورته مبهمة بجانب صور برجي المملكة والفيصلية.. مذاق الطعام يتلاشى، النزهات وعطلاتنا وكل شيء صار بمذاق خليجي.. بدأت أجسامنا في الاعتياد على قلة الحركة والحياة الهادئة.. وما كان يؤكد لنا ذلك هو متابعة أحوال القاهرة على قنوات التلفاز وبرامج "التوك شو" التي صارت جزءًا لا يتجزأ من عاداتنا اليومية، محادثات أقربائنا ونصائحهم بعدم النزول وأن الحياة صارت لا تحتمل.. حتى وإن كانوا يعيشون حياة رغدة مرفهة من دون أن يضطروا إلى التغرب مثلنا، لا تزال الشكوى هي حالهم الدائم. ربما اشتقت إلى تسجيل شرائط الكاسيت وإرسالها لهم

كما كنا نفعل في السابق.. لكن ماعاد شيء كما كان.. فكلما ازدادت وسائل الاتصال في التطور، كلما زادت المسافة بيننا أكثر، كلما ابتعدنا وابتعدوا عنا أكثر.. كلما زادت حجج وأعذار الانقطاع أكثر.. كلما حدث "العكس".. ياله من قانونٍ بشريّ غريب!

في الخميس الأخير قبل إجازة نصف العام قررت إدارة المدرسة إقامة شيء يشبه الندوات الدينية عقب صلاة الظهر.. الشيء الذي كان يعتبره الجميع "مفاجأة سارة" لأن ما سيترتب عليه هو إلغاء الحصة الأخيرة، ومن ثم كان اليوم يمر سريعًا. احتشد الكل من معلمين وطلاب ومسئولي المدرسة بأكملها بعد انقضاء الصلاة جالسين على السجاد الأخضر بأثوابنا البيضاء والإنارات حولنا تعطي هيبة للمكان وكأننا في قاعة مؤتمرات.. الكل متجه أمامه إلى طاولة اجتماعات خشبية يكسوها قماش أزرق لامع ومنبر على يمينها للضيف المتحدث اليوم.. كنا قد خمّنا من يمكن أن يكون الضيف.. أهو "عَالِمٌ" ما أو ما شابه ذلك؟؟ أهو شيخ جليل يود إلقاء بضع كلمات عن الدين؟؟! بالتأكيد لن يكون مغني راب يحكي قصة حياته عندما قرر التوبة والابتعاد عن تجارة المخدرات.. لكن المفاجأة كانت غريبة بعض الشيء.. لقد كان ضابطًا بقوات مكافحة المخدرات السعودية وكان لديه قصة شيقة ليرويها لنا. الرجل كان متوسط الطول، أسمر الوجه، ويمتاز ببنية عضلية لا بأس بها.. لكن الغريب أن أسفل عينيه سواد كما لو كانت بئرًا عميقة.. ذكرني بحيوان الـ"باندا" والسواد حول عينيه.. وما إن بدأ

يتحـــدث.. حتى أمســكت نفســي عـــن الضـحك إلـى أقصـى درجــات ضبط النفس وقوة التحمل..

"يـا إخـواني.. أجـوول حيـاكم الله.. تـرى يـا أحبتي أبي أعـرفكم بنفسـي.. أوخــوكم في الله (مشـعل الشــيمري).. آبـي أحكــيلكم حكــايتي وأســأل الله أن يعافينـــا ويعـــافيكم.. تـــري أنـــا صـــارلي خمسوعشـــرين ســـنة أتعــاطى المخــدر.. كــل مــاااا تبوونــه.. تــرى تعاطيــت برشــام، الــدي أم تـي، حقـن مـاكس حفـظ الله وجـوهكم، تـرى وصـل بيـا الحـال أنـي سَـويت بـودرة.. تـدرون شـي؟؟ الحـين كـل مـا أذكـر هـاذي الأيـام والليـالي السوداء ما أنام.. ما أنام.. مااا أنااااااااام!!"..

وظـل الرجـل يبكي كطفـل صـغير معاقـب بعـدم الخـروج مـن المنزل وحرمانـــه مـــن لعبتـــه المفضـــلة.. ســـألت أبـــو ســلطان بجـــاني: "هـــو الراجـل ده بقالـه خمسـة وعشـرين سـنة بيضـرب كـل حاجـة؟؟ وبقـى ظـابط؟؟؟".. أومـأ لـي أبـو سـلطان بـأن أكمـل القصـة أولًا ومـن ثـم يمكنني الحكـم. أكمـل الرجـل معلـلًا مـا سـبق بـأن تلـك كانـت حياتـه الأولى.. حيـاة "العربـدة والضـياع".. وأنـه ظـل يبحـث عـن ذاتـه حتى اسـتطاع أحـد "الإخـوة" مـدّ يـد العـون إليـه ومسـاعدته في التغلـب علـى الأزمـــة، فـــأدرك الوقـــت ســـريعًا-و لا أعـــرف إن كانـــت خمســـة وعشـرون سـنة فترة قليلـة ليتـداركها أم لا- ومـن ثـم أخرجـه زميلـه وسـائر الإخـوة مـن تلـك الوحلـة.. تكـررت كلمـة "الإخـوة" كثيرًا في هـذا اللقـــاء.. لكنـــي كنـــت أســـتنكر شـــيئًا آخـــر.. "كيـــف أصـــبح هـــذا (الحشـــاش) لخمســـة وعشـــرين عامًـــا فجـــأة ضـــابطًا؟!!".. ربمـــا يســـتفيدون مـــن خدماتـــه كنـــوع مـــن الـــدعم بالاســـتعانة مـــن خبراتـــه..

Obeikan.com

ولكـن آثـار المخـدرات لا تـزال على وجهـه!! لسـت خبيرًا بتلـك الأمـور، ولكـن القصـة كلهـا لـم تقنعني آنـذاك. بعـد أن أنهى الرجـل قصـته المملـة أتـأخر تكـاد لحيتـه أن تلامـس الأرض طـولًا.. وقـف عـلى المنبر ولفيـف مـن الأسـاتذة يجلسـون أسـفل منـه. كـان الرجـل لـه وضـعه، ويُكِنّ لـه الكثيرون هنـا الوقـار والاحترام والهيبـة منـه.. كـان كشـخص "ذي سُـلطَة" على الجميـع. الشـيخ ذو اللحيـة البرتقاليـة بـدأ كلماتـه بكلمـة واحـدة هـزت الأرض أسـفلنا وزلزلـت أعمـدة الأبنيـة مـن حولنـا وبثّـــت فـــي قلوبنـــا أجمعـــين الرهبـــة وأثـــارت انتبـــاه الجميـــع.. "الصـلااااااااااااااااااة".. أخـذ يرددهـا ونحـن لا نعلـم مـاذا يريـد.. لا يـزال صـوته يرتفـع ويرتفـع حتى أخـذ في الخشـونة والتقطـع.. بعـد أن اسـتنفد طاقتـه هـدأ، ومـن ثَـم تحـول وجهـه إلى شـخص آخـر هـادئ الطبـاع سـمح الوجـه كطفـل وديـع. أخـذ يتحـدث عـن الصـلاة وعـن فوائـدها.. ثـم عـاد مـن جديـد.. "يـاااااا إخـواااني.. سـأحكي لكـم حكايـة زاهـق الأروااح.. مـن تخـاف منـه مخلوقـاات الأرض.. حكايـة المـووووت!!!". كانـت الحكايـة عـن فتى وفتـاة تقـابلا سـرًّا في مكـان مـا.. هـمّ الفتى بهـا يحـاول اسـتراق القـبلات فأوقفتـه هـي قائلـة "بـأن الله يرانـا".. قـال لهـا: "لقـد أحضـرتكِ إلى مكااان لـن يرانـا فيـه أحـد قـط.. لـن يرانـاا حتى الله!".. وأخـذ الشـيء يبكي ويصـرخ "لننـنن يراانـاااا فييـه حتى الله.. أتـروون الفُجـر والجبروووت.. لـن يراانـاا فيـه حتى الله".. تمـتم "زكي" بعـدة كلمـات: "وبعـدين بقـى في الليلـة السـودة اللي مـش هتعـدي ديـه!".. ظننـا أن الشـيخ قـد انتهى بعـد تلقيننـا درسًـا في الأخـلاق ولا أعتقـد بـأن أحـدًا منـا سـيترك الصـلاة بعـد اليـوم.. لـيس طاعـة لله، وإنمـا خوفًـا مـن المـوت! لكـن الحـديث لا يـزال مسـتمرًّا..

obeikan.com

تطرق العجوز إلى موضوع آخر كان محل اهتمامي أنا شخصيًّا.. وكعادته بدأ بكلمة ترج المكان: "الأغاااني.."، أخذ الرجل يتحدث عن الأغاني ومستمعيها كما لو كانوا كفارًا.. روى العديد من القصص التي تحمل وعيد وعذاب الحريق لكل مستمعي الأغاني ومروجيها ومغنيها وصانعي الألبومات والقائمين عليها والعاملين بها.. بل وإن شركات المواد البلاستيكية التي تقوم بصنع هياكل الأشرطة التسجيلية وعلب تغليفها هم أيضًا من المحرضين على الفساد.. كما لو كانوا صانعي خمر. كانت كلماته قاسية، واضحة، وأصر على إدخال "مصر" في كل موضوع يتعلق بالفنّ وما شابهه. حاول أحد الأساتذة لفت انتباه الشيخ برتقالي اللحية أن هناك بالقاعة مصريين يستمعون إليه، فما كان من الرجل إلا أن حاول أن يهذب لغته.. ليس احترامًا لنا، وإنما كان يتعامل مع الجنسيات الأخري كالمصريين والسوريين كما لو كنا "من ديانات أخرى".. حاول أن يوجه الكلام إلينا كما لو كانت بطريقة إدخالنا إلى الإسلام وختم قائلًا: "ولكن يا إخواني إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء.. ولكن الله يهدي من يشاااااااء.. ولكن الله يهدي من يشااااااااااااااااء".. "لماذا تكرر الكلمات وتحاول مطها أيها الشيخ؟؟! نقسم أننا سمعنا وأطعنا"!! كان بديهيًّا بعد تلك الجلسة أن يختم القائمون عليها بشيء يثير بداخلنا الخوف الحقيقي من الموت.. وبالفعل قد تم. في لحظة سكون من الجميع أطفئت الأنوار وقام أحدهم بتشغيل شاشة العرض يعرضُ عليها فيلمٌ تسجيليّ عن ظاهرة انتشرت بين الشباب السعودي كآفة لا يمكنهم التخلص منها.. عُرفت تلك الظاهرة بـ"التفحيط". التفحيط

كما يسميه الناس أجمعون هنا هو مايطلق عليه عندنا "الأمركة.. الكروزة" وهو ببساطة حركات بهلوانية خطرة بقيادة السيارات.. سيارات من مختلف الأنواع.. الكابريس وتويوتا كامري وشيفروليه وكل ما يمكن قيادته بأربع عجلات.. بل إن الغريب أني شاهدت مقاطع في أحد الأيام على هاتف أبو سلطان المحمول لشباب صغار قد يصغروننا سنًّا بكثير يحاولون "التفحيط" بسيارات من نوع GMC ولاند كروزر.. والبعض يقوم بالفعل بتنظيم جولات في الخلاء الصحراوي أو كما يطلق عليه "البَرّ" بسيارات مسروقة، يتم إعادتها بعد أن تؤدي مهمتها على أكمل وجه. كانت بداية الفيديو المراد عرضه تحتوي على مجموعة من الصور لشباب بمختلف الأعمار يقفون في حلقات دائرية حول سيارات من عدة أنواع مرتدين الجلباب الأبيض وملثمين بالشماغ الأحمر الكاروهات.. وبعد عرض الصور بدأ فيديو حي ومؤثرات صوتية لكلمة: "التفحييط.. التفحييط حيييط حيييط..".. ومن ثَم سيارات تلتف بحركات دائرية وسرعة مهولة، وفجأة.. يفقد السائق القدرة على التحكم بالسيارة، فتظهر أصوات الصراخ وآيات قرآنية تتلى بصوت حزين وصراخ من جديد والسيارة تطيح يمينًا ويسارًا ومن ثم تصطدم بكتل بشرية لتتناثر الأجساد في كل مكان وتسقط جثثًا هامدة والناس يصرخون وكلمة التفحيط لا تزال تذكر بشراسة أكبر.. "التفحيييييط".. المؤثرات الصوتية اللعينة لا تكف عن الانقطاع، والشيخ عاد للصراخ من جديد: "يااا إخوااااني.. الموت آآآتٍ آآت.. مات وهو شاب، لا ينتظره الموووووت.. ماااات.. صلِّ قبل أن يصلَّى عليك.. صلِّ قبل أن يصلَّى علييييك!"..

عدت إلى المنزل مرتعش القدمين لا تحملني ساقاي ولا أكاد أصلب طولي بعد تلك المحاضرة الغريبة.. في الأغلب تم تحريم كل شيء نفعله في الحياة اليومية. فور دخولي المنزل سمعت أغاني تذاع على قناة "روتانا" لأجنّ وأركض باتجاه التلفاز فأخطف جهاز التحكم من يد منعم صارخًا بوجهه: "اللي انت بتسمعه ده كفررر.. فاهم يعني إيييه؟؟!".. لكنه لم يستوعب سوى أن تلك ربما لعبة جديدة ابتكرتها للتوّ، فأخذ يردد ورائي كل كلمة. دخلت إلى غرفتنا وبدأت بتكسير كل شريط سعيت لاقتنائه يومًا.. استبدلته بأشرطة دينية عن عذاب القبر والموت والصلاة.. وكان منعم يقلد كل شيء.. أكسر شريطًا فيكسر آخر.. أصرخ: "من هنا ورايح مفيش منكر هيدخل البيت" فيصرخ مقلدًا إياي ومن ثَم يسأل: "هو يعني إيه منكر؟؟! لا أذكر أن أذانًا أُذن إلا وقمت فتوضأت كما لو كنت ساعة إلكترونية وهرعت إلى المسجد أصلي خوفًا من الموت.. لا أفلام.. لا برامج.. بل لا تلفاز من الأصل، فكما قال الشيخ في تلك الليلة السوداء: "التلفاز هو آلة العهر، ومن يمتلكها فهو عاهر لا محالة، فالجزاء من جنس العمل". رأيت أمي تضع عطرًا جديدًا والقليل من مستحضرات التجميل الخفيفة -فهي جميلة بدونها- لأتذكر حديث الشيخ برتقالي اللحية في تلك المحاضرة المليئة بالمؤثرات الصوتية والحكايا التي لا أعلم من أين يأتون بها.. كانت القصة عن امرأة تضع المساحيق وعندما ماتت لم تفارقها مساحيق التجميل حتى التحمت بجلدها كليًّا، وفسرها الشيخ بأن "الملائكة أبت أن تغسل وجهها بالماء الطهور".. اشتد غضبي على أمي فصرخت بها: "يا ماما اللي بتعمليه ده كفر!!".. ولولت أمي كما لو كنت قلت

فاحشـة ووبختني قائلـة: "وزعيقـك في أمـك ده مـش عقـوق والـدين يـا شـيخ عبـد المعطـي؟؟ مـش ده مـن الكبـائر ولّا أنـا نسـيت ديـني كمـان؟؟!"..انقلبـت حيـاتي رأسًـا على عقـب.. ثلاثـة أيـام مـرت عليّ في خـوف وهـرب مـن شـيء مـا.. شـعرت بمـدى حقـارتي وقلـة حيلتي.. شـعرت وكـأن حيـاتي السـابقة كانـت مليئـة بالأخطـاء.. بـل كانـت كلهـا مبنيـة علـى باطـل. ثلاثـة أيـام مـرت كـالجحيم علـيّ.. وبعـدها.. اسـتيقظت على منبـه موسـيقى المحمـول "تملّي معـاك، تملّي في بـالي وف قلبي لا بانساااااك".. وكأن شيئًا لم يحدث!!

Oboeikan.com

(18)

"الحاج متولي".. هذا الرجل الأسطورة الذي استطاع أن يتزوج بأربع نساء كل واحدة منهن بمذاق مختلف، بشكل وذوق وأسلوب حياة يبعد عن الأخرى بمراحل شتى.. "عائلة الحاج متولي" كان المسلسل الأكثر شهرة بين الطلاب طوال شهر رمضان. لم تنتهِ جلساتنا في الفُسحَة وحصص الفراغ طوال الدوام الصباحي من الحديث عن تفاصيل المسلسل، وعن كيف هي الحياة في منزل كبير تتبادل فيه الأيام بالتساوي مع كل زوجة.. وبالطبع لم تخلُ الجلسات من تخيلات كلٍّ منا وهو مكان الحاج متولي. أبو سلطان كان من مناصري الفكرة.. لطالما أراد أن ينهي دراسته بأقل مجهود ولا يهم ما إذا كان من الأوائل أو إن مر مرور الكرام.. لكن أقصى أحلامه كان في التخرج من الثانوية حتى ولو بسبعين بالمائة ليتولى رئاسة شركات والده لقطع غيار السيارات ومن ثم يتزوج بأربع فتيات على شاكلة (مصرية–سورية–سعودية-لبنانية).. كان الحاج متولي بمثابة أيقونة النجاح للجميع هنا. في أحد أيام رمضان سأل زكي عبد الله القحطاني عن سؤال تبادر إلى أذهاننا نحن المصريين عندما أتينا إلى تلك البلدة صحراوية الأجواء: "ليه مابنشوفشي سعوديين بيشتغلوا ويتفحتوا زي الجنسيات التانية يا ابو عبدالله؟؟!".. وكان الردّ دبلوماسيًّا وصريحًا جدًّا منه: "أجول يابو زكي ترى بأعطيك (التيتة) مِثل ما تجولون أنتم المصاروة.. السعودي مايذاكر يالحبيب.. يجيب سبعين بالمِيّة ويسوّي شركة

ويبي لـه يكـون مـديرها سـلم الله وجهـك بعـدين بيجيـب مصـاروة أو ســوريين أو مــادري إيــش مســوّين تســعة وتســعين بالميــة مجمــوع وأطبـاء ومهندسـين وكِـل مـا تِبِي ويشـتغلون عنـده.. الخليجي يـابو زكي مايبغى إلا إنه يكون مدير.. فهمت عليّا طال عمرك؟؟!"..

علامـات النضـوج والتطبـع بأهـل المكـان أخـذت تظهـر علـى وجهـي.. الجميـع هنـا لا يلائـم سـنه مظهـره.. اللحيـة تعطيـك الهيبـة والقـوة.. تعطيـك "النفـوذ" والمركـز.. وعنـدما بـدأت ألاحـظ خبايـا المجتمـع هنـا، علمـت أن هنـاك الكثير يمكنـك الاسـتفادة منـه بخـلاف أن توضـع في القائمـة الشـرفية للمتفـوقين.. تمامًـا كمـا هـو الحـال مـع "معـاذ". معـاذ هـو شـاب فلسـطيني حصـل والـده على الجنسـية السـعودية ولـم ينـل الفتى مـن فلسـطين سـوى أنـه وُلـد بهـا.. لكـن شـيئًا مـا كـان يطلعني أن وراءه لغـزًا كبيرًا. شـاب ذو شـعر بني لامـع قصـير مهـذب إلى الأمـام وفـم كبير بأسـنان كبيرة تعيـق عليـه إغـلاق فمـه كليًّـا وجسـد هزيـل مرفـوع الـرأس مفـرود القامـة كمـا لـو كـان شـامخًا كجبـل بـالرغم مـن صـغر حجمـــه.. لا يجـــادل كثيـــرًا.. لا يتحـــدث كثيـــرًا، وبـــالطبع.. لا يخـــتلط بـالآخرين بـالمرة. عنـدما حطـت قـدمي اليمنى للمـرة الأولى هـذا الفصـل الغريـب المليء بـالمتحولين غريبي الأطـوار مـن الجنسـيات، كانـت أولـى ملاحظـاتي أن تقسـيم الطـلاب فيـه قـائم على المتفـوقين في الصـفوف الأماميــة.. والأقــل في الوســطى و"العصــابات"-كمــا أطلقــوا عليهــا-في صـف الحـائط بـالخلف.. لكـن عنـدما عاشـرتهم، علمـت بنظـام آخـر للتصـنيف هنـا.. الأطـول لحيـة والأكثر كثافـة هـو مـن يسـود العـالم. معـاذ لـم يكـن مـن ذوي اللحى الطويلـة أو الكثيفـة.. كـان رقيـق الملامـح

وبالكاد تنمو لحيته البنية أسفل ذقنه مرورًا برقبته، ولا أذكر إن كان له سالفان يتقدمان أذنيه الكبيرتين.. ربما كان مهمشًا بسبب لحيته.. مع أن له الفضل على الكثيرين هنا من ذوي الدرجات المنخفضة في مادة الفيزياء والكيمياء وعلوم الجبر وحساب المثلثات.. لكن يبقى الحال على ما هو عليه. بدت لحيتي أكثر كثافة مما توقعت أن تصبح في يوم من الأيام ولم أكن أهذبها أو أقوم بلمسها حتى. تساءلت كثيرا عن سر "هالة اللحية" هنا.. ما الذي يدفع الجميع ممن نبتت لحيتهم إلى التباهي والشعور بالقوة، بينما آخرون من قليلي اللحى وعديمي الشعر أو كما أطلقوا عليهم هنا "المُلس" يشعرون بالندم وتعلو وجوههم نظرات الانكسار والهروب الدائم من الجموع.. يُعزَلون في أماكن خاصة بهم كما لو كانوا منبوذين!! كادت التساؤلات أن تثير جنوني.. حتى أتى اليوم الذي صار فيه كل شيء واضحًا جليًّا.. ورأيت الحقيقة بأم عيني.. الحقيقة التي كان عليّ تداركها بسرعة والعمل على استغلالها إن أردت حقًّا أن أصير "مهيب ركن" هذا المكان!

في إحدى حصص الرياضيات وسيمفونية رائعة من نشيد "إتفززلوا معانا" لأستاذ "بهاء".. دخل علينا الوكيل بلا استئذان وبلا سلام ومعه أحد الطلاب ساحبًا إياه بيده ومتوجهًا إلى أستاذ بهاء يهمس في أذنه بشيء ما. حاولنا معرفة ما يدور بين أذن المدرس وَفي الوكيل فلم نفلح.. لكن علامات الحزم الشديد في كل كلمة كانت فاضحة لكليهما. قال مازن هامسًا في أذني: "و الله مابيصير هيك.. سووها تاني الأنجاس؟!".. عن أي أنجاس يتحدث مازن؟؟

obeikan.com

ومـاذا فعلـوا؟؟. استفسـرت منـه أكثـر فـأخبرني بأنـه بـات لا يمكـن السـكوت عـن تلـك الواقعـة ومـا سـبقها مـن تجـاوزات في حـق هـذا الفتى!! أنهى الوكيـل حديثـه وانطلـق برفقـة أسـتاذ بهـاء بعـد أن أكـد عليـه بأنـه "سيشـهد بكـل شـيء".. وأنـه "لا داعـي للقلـق". فـور خروجهما بصحبة الفتـى مباشـرة تعالـت أصـوات الهمهمـة مـن الجميـع وصـار الحـديث عـن "وسـيم حـلاوة" هـو السـائد في أرجـاء فصلنا والفصـول المجـاورة.. كـأن اليـوم قـد انتهـى ببدايـة تلـك الواقعـة. زاد ذهـولي هـذا الاسـم الغريـب.. "وسـيم حـلاوة".. أهـو اسـم هـذا الفتـى حقًّـا أم أنـه "لقـب" لصـفة مـا؟! وعنـدما تـذكرت ملامـح وجهـه شـديد البيـاض وشـفتيه الممتلئتـين الـورديتين وشـعره الـذهبي الطويـل ووجنتيـه شـديدتي الحمـرة وذقـن خاليـة تمامًـا مـن الشـعر.. صـفات كتلـك في فتـى تجعلـك تعتقـده للوهلـة الأولى "فتـاة" مـن الحـور العـين.. صـفات كتلـك لا يمكنهـا العـيش هنـا بصـورة "طبيعيـة".. بـلا مضـايقات، بـلا أذى وتعـرض وانتهـاك.. بـلا "تحـرش". ربمـا الآن فقـط أدركـت سـر "هالـة اللحيـة الكثيفـة".. اللحيـة هنـا هـي رمـز الرجولـة المطلقـة، وحاملهـا يلقـب بالـ"عزيـز".. إذا كانـت لحيتـك كثيفـة قويـة نضـرة.. فأنـت بالتأكيـد الأقـوى والأكثـر حظًّـا.. ولا سِـيّما إن كنـت عـريض المنكبـين مـن ذوي العظـام الصـلبة.. فأنـت الأكثـر حظًّـا وتوفيقًـا علـى الإطـلاق! هـذا المظهـر يرسـم في أذهـان الجميـع انطباعًـا أوليًّـا لا يمكـن نكرانـه أو الاسـتهانة بـه.. وعليـه، وبعـد تلـك الواقعـة الغريبـة التـي لـم أتعـرض لمثلهـا مـن قبـل.. أن تـرى أحـد زملائـك يـتم التحـرش بـه جسـديًّا في الحمـام.. كـان علـيّ أن أعيـد تقيـيم كـل شـيء أفعلـه. عـدت إلى المنـزل يومهـا والتفكيـر هـو مـا كـان يـؤرق

عقلي طيلة اليوم.. أفكر في كل شيء ولكل شيء.. رحت أتخيل لو أني كنت مكان هذا الفتى الـ"حلاوة".. اللعنة!! لا والله لن يحدث مادمت حيًّا. استيقظت في الصباح الباكر قبل أذان الفجر بدقائق أتأمل وجهي واللحية عليه غير مهذبة أطرافها.. أتأمل شخصًا من الممكن أن يصير ملكًا بين الجميع.. أخذت شفرات الحلاقة التي تخص والدي وبدأت بجز العشب غير المنظم.. هذبت لحيتي بشكل عصري ويحاكي كثافتها من الأعلى أسفل عَينَيّ ومن الأسفل عند الرقبة.. ارتديت الجلباب بني اللون الثقيل لأواجه برودة الجو خارجًا.. أغلقت الأزرار حتى الرقبة وأزرار الأكمام، ووضعت عطر والدي العتيق.. ذاك العطر الذي لا يمكنك أن تشعر بشيء بعد أن تستنشق رائحته سوى بـ"الرجولة" والهيبة.. وأخيرًا.. استبدلت النعال الجلدي بحذاء أسود لامع من الجلد الفخم لا يليق إلا بِمَلِكٍ، كنت أملكه ولا أعرف مناسبة جيدة لارتدائه أفضل من تلك.. ولا تكتمل الهيئة بدون خاتم من أحد الأحجار الكريمة السوداء كانت إحدى جاراتنا السعوديات أهدته إليّ في عيد ميلادي السابق.. ارتديته في اليد اليمنى بإصبع البنصر ليزيد من حجمه الصغير حجمًا ويضفي عليه قوة.. وقبل أن أتوجه إلى المدرسة.. إلى مملكتي الجديدة.. ألقيت نظرة أخيرة على هيئتي التي بدت لي وكأنها "المثالية بعينها" لهذه البلدة.. تذكرت أني رأيت تلك الصورة من قبل.. أقسم أني رأيتها ولكن لا أذكر أين!! بلى تذكرت، تذكرت يومًا كنت في الكعبة منذ عدة سنوات.. كنت برفقة والدي لأداء صلاة الظهر تحت شمس مكة الحارقة.. وهناك، عزمت على لمس "الحجر الأسود".. يومها فقط وبعد أن لمسته بيدي الصغيرتين تخيلت

نفسي كبيرًا في السن ولحيتي كثيفة، عريض المنكبين بقامة معتدلة الطول.. ثاقب النظر بشوش الوجه محبوبًا من الجميع.. ربما الآن فقط بدأت النبوءة تتحقق.. ربما كل ما كنت بحاجة إليه هو التأقلم مع من حولي.. هو إدراك السلوك والعادات والتقاليد.. ربما فقط كل ما أنا كنت بحاجة إليه هو "الاهتمام بالتفاصيل".. لأني عندما بدأت أهتم.. تحولت إلى "مهيب ركن" حقيقي.

Opeikan.com

(19)

لا يزال الفتى الفلسطيني ذو الرصيد الأعلى من التفوق يشكل لغزًا كبيرًا بالنسبة لي.. حتى بحلول السنة الجديدة لم أتمكن من تطويعه تحت جناحي كما فعلت بالكثيرين الذين صاروا في كنف "مهيب الركن" الحقيقي لهذا المكان. حاولت في عامي الأول كطالب بالمدرسة السعودية التقرب منه ببضع خدمات، ولكن الفتى لم يكن بحاجة لأيّ منها.. فعلى عكسه هو، كنت من متوسطي المستوى التعليمي.. أجتهد وأحضر الدروس بانتظام، لكني لم ولن أصبح من محصلي الدرجات النهائية الأوغاد. قد تكون تلك لعنة ما أصابتني منذ ارتيادي للمدارس المصرية.. لعنة "الطالب المتوسط".. إذ لا يمكنك أبدًا أن تبلغ الدرجات العُلا، ولا يمكنك أن "تفشل" حتى وإن بذلت جهدًا في ذلك. كان معاذ انطوائيًّا إلى أبعد الحدود.. الفتى لا يتحدث إلى معلميه أو أقاربه بالصفوف الأخرى أو أصدقائه وزملائه بالصف! يئس الجميع منه وصارت علاقاته بالآخرين علاقات "تكافلية" كالطيور والتماسيح.. يسمح له الجميع بالجلوس بأي مكان بالصف الأول كما يريد في مقابل خدمات تتمثل في توزيع نسخ من إجابات أسألة الامتحانات السابقة وإجابات الواجبات المدرسية.. تتوفر له الحماية العظمى من سائر قوى وعصابات المدرسة الشهيرة، ويتم مقايضته بالجلوس خلفه في الاختبارات ليفسح لهم المجال لالتقاط الإجابات في أسئلة الرياضيات والفيزياء. لم تفلح أي من محاولاتي لتجاذب

أطراف الحديث معه أبدًا.. ربما لأني بالفعل أمام "مَهيبَ ركنٍ" من نوعٍ آخر.. شخص يقتات من نقاط ضعف من حوله جيدًا.. نقاط ضعف تتمثل في خوف من الرسوب للسنة الثالثة.. خوف من التعرض للضرب المبرح من الأهل بالمنزل والتوبيخ الجارح من الأقارب.. خوف من الانتقاص من درجاتك التي قد تكون سببًا في دخولك كلية الطب أو الهندسة التي ستسمح لوالديك برفع رأسيهما عاليًا أمام الجميع.. كان معاذ يعلم جيدًا أن لكل منا نقطة ضعف.. هو لا يختلف عني كثيرًا، ففي النهاية كلانا يطوع الظروف من حوله للاستفادة منها فيما يعنيه.. كلانا اختار أن يتحكم في وهمٍ هو بمثابة نقطة ضعفٍ لمن حولنا وقد قرر أن يوظفها بحرفية تامة.. كلانا مهيب ركن بطريقته الخاصة!

-ألو.. أيوة مين؟

-سلامو عليكم.

-و عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. مين معايا؟

-هاظا منزل أبو عطوة؟

-أيوة.. أنا أبو عطوة!!

-كيفك حبيبي.. معك "معاذ".

-!!!

-بأعرف إنو الوقت مو يسمح.. بديش إزعجك خيو

-لا لا يا معاذ إنت بتتكلم إزاي.. أؤمرني؟

-كان عندي واجب عتيأ وكنت بدي ناقشه مع حدا ديك اليوم بس إستاز بهاء ما كانعم يفهم علي.. قلت لو مافي شي إزعاج إبمر عليك بالمسا عن أريب.. بس بالله عليك بديش إزعجك..

-لا يا حبي بتتكلم إزاي بس.. خلاص شوف اليوم اللي تقدر تيجي فيه ونقعد نحلها سوا..

-و الله أنا مابأعرف شو بإلك.. يا أخي سبحان الله من يوم ماشِفتَك لأول مرة ماكِنِت مهضوم.. مِتل ما بنحكي عنا بفلسطين"وأكثر الشوفات تعمي النواظر"..

-!!! وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..

كانت تلك المهاتفة غريبة بعض الشيء.. فلم يكن من الممكن أن أتخيل ولو للحظة أن معاذ يريد مقابلتي بالمنزل.. بل ويريد إشراكي في حل واجباته المدرسية!. في الواقع شعرت وقتها بشيء من الفخر والذكاء.. فعندما يطلب منك الطالب الأكثر تفوقًا في التاريخ معاونته على حل مسائل الجبر والفيزياء، فأنت بالفعل تملك شيئًا!!. لكن ليست تلك هي المشكلة.. السؤال الحقيقي: "ما الذي يدفع معاذ الذي عهدناه انطوائيًّا منذ أن عرفناه أن يثق بي أنا وحدي؟".. وكانت الإجابة على هذا السؤال هي كل ما يشغل بالي. بعد يومين من تلك المحادثة التليفونية طرق معاذ بابنا حاملًا إليّ الكثير من الودّ بصحبة والده ذي الخمسين عامًا. جلسا في غرفة الصالون وتناولا واجب الضيافة ومن ثم تركه والده بوعدٍ باصطحابه عند الثامنة مساءً. لم يتوقف عن الحديث قط منذ نزول والده وكأننا على صلة قرابة لوقت طويل مضى.. في الواقع

obeikan.com

أذهلتني تصرفاته فبدأت بالاعتقاد أن هذا أشبه بمقلب ما أو مكيدة.. ربما "الكاميرا الخفية؟!". الفتى لديه رأس يدور بها الكثير من التناقضات.. فبمرور ساعتين تعلمت عنه الكثير. العقل الذي ظننته سابقًا عبقريًّا واستثنائيًّا، بات أمامي عقلًا يفتقر إلى كل شيء.. ففي الواقع اكتشفت أن سر نجاحه الحقيقي كان في "الحفظ" وليس التفكير.. يحفظ ويحفظ ويحفظ كجهاز حاسوب لعين لا يتوقف عن التكرار.. لا يحاول استكشاف خرائط عقله ولا يحاول تجربة أي شيء قد يرهقه تفكيرًا. صُعِقت عندما رأيت طريقة تحليله للمسائل الحسابية وقوانين الفيزياء.. يحفظ المعادلات عن ظهر قلب، لا يفكر بها أو باستنتاجاتها.. ومن هنا استَنبَطتُ سبب قدومه اليوم.. تلك الأحجية الحسابية التي تغير بها رقم واحد فلم يستطع عقله تقبلها وعليه ظل ساهرًا طوال اليومين الماضيين حتى أتاني لأجد حلها.. حتى أنت أيضًا لديك نقطة ضعف يا دودة الكتب! لكن ما خرجت به اليوم كان أكبر من مجرد حل بسيط.. بتّ أعلم الآن في قرارة نفسي أني ذو قيمة وفضل على "معاذ" الفتى الأسطورة.. كما أنه لم يكن سيئًا إلى هذا الحد، بل كان عذبًا حلو المعشر إن نظرت إليه بعين الرحمة.. لا بعين الناقد.. أو كما تعلمت منه بالفلسطينية : "يلي مابيزونوها خدودها، بيزينوها جدودها".

كان حديثًا دائرًا بالمدرسة عن سر علاقة "مهيب الركن" أبو عطوة بدودة الكتب "معاذ" لهو حديث يكتب بماء الذهب.. فقد ازدادت شعبيتي بالمدرسة بين كبار وأعيان "العصابات" والزملاء بعدما

صارت الرابطة بيننا أقوى كالسمن والعسل.. العطايا والهدايا والخدمات سارت تتساقط عليّ لأتوسط لفلان وعِلّان عند معاذ لحجز نسخ أوراق الإجابات على أسئلة الواجب والامتحانات السابقة.. من ناحية أخرى، ارتفع رصيد "معاذ" الأمني بعد أن صار في كنفي.. لا أحد يتعرض لصديق مهيب الركن المقرب.. حتى عندما حاول الإخوة الموريتانيون "نبغوها" و"خلوهالنا" والأصغر "سلامبوها" الشجار مع معاذ بتبادل الضرب بالأيدي في إحدى المرات، تدخلت لفض الخلاف كزعيم أمة حقيقي، ليتداعى "نبغوها" والأخوان مرددين له الكلمة الذهبية التي قالوها لي سابقًا: "ناشنتينا تيا تونكا مع الكاركا" مبتسمي الوجه.. لكن هذه المرة انفجر معاذ غضبًا وظل يصرخ: "والله بأفظح عرضك يالموريتاني التشَلب.. بأفظح عرضك!!!!".. حاولت تهدئته معلنًا أن تلك كلمة تحية، لكنني أسأت فهم الكلمة منذ البداية، إذ كانت شتيمة موريتانية تسب الشخص بأمه وأبيه يعتمدون فيها على عدم فهمك إياهم!!! الأوغاد سود البشرة!!

الحياة هنا صارت كنظام مغلق الكل فيه يحاول إنهاء ما أتى لأجله ومن ثم يعود إلى عالمه الخاص.. إلى وطنه وأرضه، إما مرفوع الرأس شامخًا كنخلة فرعها في السماء، أو يعود بخيبات الأمل لأهله ومستقبله. كانت السنة الأخيرة بالمدرسة هي "الحياة البرزخية" للجميع.. هي المحطة التي يجب علينا كلنا اجتيازها بمنتهى الحذر.. الصف الثالث الثانوي لم يكن مجرد سنة "شهادات" على الجميع اجتيازها.. بل كانت تمثل لكلٍّ منا تحدّيًا ما.

تمثل لزميلنا السوداني "دَفعُ الله" المصير المحتم، إذ كان عليه تحصيل نسبة مئوية تقدر بتسع وتسعين بالمائة لأن نظام السودان التعليمي يخصم من أي سوداني مغترب عشرة بالمائة من مجموعه الكليّ.. فبذلك يمكنه على الأقل أن يدخل كلية ما بنسبة التسعة وثمانين بالمائة.. ضرب من المستحيل، ولكنها محنته وعليه اجتيازها بشجاعة. تلك السنة تمثل تحديًا ضاريًا لمعاذ.. الفتى الفلسطيني الذي يسعى إلى منحة ما تؤهله لدراسة الطب في وطنه.. تلك السنة قد تكون الأمل الوحيد لأبو سلطان وعبد الله في تحصيل ولو نسبة النجاح فقط لتسلم مهام شركات والديهما ويصيرا رجلين يعتمد عليهما فيما بعد.. ربما هي سنة الأمل للإخوة الموريتانيين "نبغوها" و"سلامبوها" و"خلوهالنا" من ذوي الجنسية السعودية للدراسة والعمل هنا بعيدًا عن فقر واضطهاد أمتهم.. ولعلها أيضًا بالنسبة لي هي الخلاص من مراحل التعليم المدرسي لأصير طبيبًا ما كوالدي وربما تكون تلك نهاية المطاف.. كل ما كان يربط بيننا في تلك السنة هو "الحافز للنجاح".. الكل يخشى ارتكاب خطأ ما قد يعرضه للطرد أو منعه من دخول الاختبارات.. الكل حذر بشأن درجات السلوك والمواظبة التي كانت كحبل المشنقة للبعض منا وكحبل الأمان للبعض الآخر الملتزم الضامن لتلك الدرجات.. ربما تلك المشاعر كانت سببًا في قربنا من بعضنا البعض.. لا أحد يبخل عليك هنا بشيءٍ والكل يريد المصلحة العامة.. إلي أن أتى ذلك اليوم الأسود.. وتغير كل شيء!

-وينه؟؟!! وييينه هالفلسطيني؟؟!!

-يـــاااخووي ويـــش فيـــيكم الله يرضـــي عـــنكم أنـــتم تبـــوون تســـوو إيبش؟؟

-أجوول بَعِد بَعِد يابو سلطان أنت مالك شغل..

-ياخوي الله يرحم والدينك مانبغي نسوي مشاكل..

-و الله بألعن وجه الفلسطيني.. بألعن وجهك يا معااااذ!!!

أتـذكر هـذا اليـوم جيـدًا.. في الظهيرة والشـمس بلغـت أشـدّها.. كنـا قـد أنهينـا لتونـا الاختبـار الأخير لهـذا العـام.. خرجنـا على أمـل الالتقـاء لـيلًا والاحتفـال بحـرق آخـر ورقـة بكتـاب الرياضـيات اللعـين فـإذا بضـجة كبيرة عنـد بـاب المدرسـة الرئيسـي.. ركـض الجميـع فـور أن سـمعوا كلمـة "معـاذ" تتردد مـن صـوت خشـن كزئير ليـث غاضـب يضـرب بشـيء مـن معـدنٍ على الحـائط ولا يـزال يـذكر اسـم معـاذ بالسـب واللعـن.. تقـدم الجميـع إلى البوابـة وعقولنـا تطـرح العديـد مـن الأسئلة.. فوجئنـا بشـاب بـدوي ضخم الجثـة وعلى وجهـه عـدة نـدبات حفـرت كمـا لـو كانـت خارطـة زمنيـة لأفعالـه وسـلوكه الماضـية.. الشـاب أتـى بصحبة ثلاثـة رجـال ضخـام القامـة لا تبـدو علـيهم آثـار الرأفـة، ملتفـين حـول شخص مـا، يحاصـرونه مـن كـل اتجـاه وخلفـه سـيارة تويوتـا بيضـاء لحمـل البضـائع.. الكثير مـن اللعـن والتهديـد بالقتـل خـرج مـن فـم كـلٍ مـن ضخام القامـة، ومـا إن ابتعـد أحـدهم قلـيلًا حتى اتضحت الرؤيـة.. إنـه "معـاذ"!! حاولـت التـدخل وإبعـادهم عنـه فأمسـك بـي أبـو سـلطان هامسًـا في أذنـي أن هـذا البـدوي لـن يبرح مكانـه حتى لـو تـم سـجنه إلا إن أنهى مـا أتـى لأجلـه!! صـرخت: "يعني هنسـيبه؟؟!! هـو عمـل إيـه عشـان كـل ده؟!".. وكانـت كلمـات أبـو

سلطان وسط انعدام شبه كلي من الجميع بالتحرك خطوة واحدة هي ما أثارت اشمئزازي منهم أجمعين. لقد كان نزاعًا قديمًا.. أو ربما الكثير مما تراكَم وآن موعد تسديد الدّيْن.. أخبرني أبو سلطان بأن معاذ كان دومًا صمام الأمان لهذا البدوي في الاختبارات.. كان يؤمّن له الحماية في مقابل ضمان الجلوس في الكرسي المجاور له في الامتحانات لسهولة الغِش.. لكن هذه السنة لم يكن كلاهما على وفاق، ربما أراد معاذ أن يتحرر من "استعباده" مهما كلفه الأمر.. وإن كان هذا ما أتى بهم اليوم لرد الصفعة له بعد أن ترك البدوي ورقته بيضاء ناصعة كَلَبَنٍ سائغ للشاربين. الجميع يمسك بذراعيّ مانعًا إياي من التقدم ولا أحد يسمع صراخنا، وحارس البوابة كهلٌ لا يقوى على الاقتراب أكثر في وجود تلك "السواطير" والأسلحة البيضاء. لا أزال أذكر نظرة معاذ جيدًا يومها.. عينان كعيني نمر لم يهمشا للحظة تملؤهما بضع قطرات من الدمع تعطيهما لمعة عِزّة.. "إني لن أكون عبدًا لك بعد اليوم.. لن تستغل ضعفي لترقى على حسابي أيها البدوي".. وما هي إلا بضع ثوانٍ حتى أمسك عابس الوجه بساطورٍ أبرزت الشمس لمعان وحدّة نصله ورفع يده الحاملة إياه لأعلى بعد أن تأكد من إمساك الثلاثة الآخرين لمعاذ جيدًا وتثبيت يده اليمنى على معدن السيارة الساخن ومن ثم صرخ: "ترى بأسويلك تذكار لأجل تتذكرني يالكلب".. في تلك اللحظة رأيت شخصًا لم أره من قبل في معاذ.. كان كاظمًا لغيظه كما لو كان يعلم بأن تلك النهاية هي ما كان ينتظره.. كان يعلم أن لكل شيء "ضريبة"، فإن أردت الحرية.. عليك دفع الثمن.. رأيت نظرة عين لا تخشى قطع اليد.. ولكن ما

تخشاه حقًّا هو تفسير ذلك أمام أهله.. قد تكون بطلًا مغوارًا، ولكن مخاوفك لا تقتصر عليك.. لقد أبت عيناه الواسعتان الجاحظتان من هول المنظر أن تبكيا.. لكن بعد أن كنت تعرفت عليه في تلك الفترة القصيرة السابقة، أيقنت أنه لن يبكي أبدًا.. حتى وإن تذكر أن مستقبله قد يعتمد على تلك اليد التي ستقطع.. بل مستقبل أسرة ستحطمها خيبة الأمل في أخٍ لخمس بنات بتلك المشاجرة.. ربما اليوم فقط تذكرت الشجار الذي دار سابقًا وكان سببًا في تركنا لوطننا باحثين عن وطن جديد.. تذكرت شجار "أكلانة" وعم "جرجس".. تذكرت كيف كان والدي يومها، ولم أشعر بمقدار قلقه ورعشة قدميه وقتها عندما تدخل لفض النزاع بين طرفيه.. لعل العذاب الحقيقي الذي شعر به والدي وقتها لم يكن في خوفه على حياته.. بل في عقله الذي أتخمته الأفكار بما سيترتب على هذا الشجار ومستقبلنا إن حدث له شيء.. تلك الأفكار اللعينة بالمستقبل هي ما بثت في قلب معاذ الرعب وليس الخوف من قطع يده.. وقبل أن تسقط شفرة الساطور على يده اليمنى المثبتة بالسيارة، صرخت بأعلى صوتي بعد أن أفلتّ من القيد النفسي قبل قيود الأيدي المكبلة إياي وألقيت بحقيبة المدرسة الجلدية نحو يد البدوي ضخم الجثة ليختل توازنه فتهاوى شفرة الساطور مبتعدة عن يده.. لكن إصبع البنصر لم يسلم منها فقطعته.. قطعته بيسر وسلاسة ناطرة إياه بعيدًا عن السيارة حتى سقط على الأسفلت الساخن المليء بأعقاب سجائر بالية.. ولا يزال الدم يضخ من موضع الإصبع المبتور كما لو كانت نافورة لا ينقطع ماؤها. همّ الأربعة بتلقيني درسًا، فاقترب أحدهم

Obeikan.com

أطاح وجهي بقبضة يده لتتدخل المدرسة بأكملها بعد أن تأكدوا من أن الوحوش الأربعة ماهم إلا "بشر" مثلنا.. ينزفون ويتألمون.. صارت ساحة السيارات كمذبحة.. اقتربت من معاذالذي لم يحرك ساكنًا وحولنا الصراخ والسباب واللعن المستمر بأبشع الصفات حتى أتت الشرطة لتفض الصراع. اقتربت من معاذ الذي صار وجهه شاحبًا أزرق اللون باردًا في حرّ الظهيرة، لا ينطق بكلمة.. أمسكت بيده الباردة كما لو كانت فقدت أطنانًا من الدم لأشعر بارتجافه.. حاولت تهدئته لأصدم مما رأيت.. "لقد بال على نفسه".. لم يتحمل هول المنظر، بل ولم يصدق أن الأمر اقتصر على قطع إصبع واحد!! تبوّل في جلبابه ولا يزال يرتجف غير مصدق لما جرى.. لقد عانى بما يكفي اليوم، كان بطلًا أمام الجميع.. تخلص من قيوده إلى الأبد في جلسة تصفية الحساب تلك.. دفع ثمن مبادئه إصبعًا ربما كان الأصغر في يده.. لكنه يظل "إصبعًا". نظرت إليه مبتسمًا محاولًا مواساته وتضميد جرح اليد بشماغ أحد الزملاء فنظر إليّ مبتسمًا ومن ثم قال: "بديش أزعجك يا زلمة"، بالله عليك يا معاذ أهذا وقته؟؟! تجاهلت كلماته محاولًا تضميد الجرح حتى كررها من جديد وكأنه يتحدث إلى أقرب شخص له.. بنظرة حانية قال: "بديش أزعجك يا زلمة".

(20)

-"أيــوة حضــرتك.. أنــا زوجتــه.. إيييــه؟؟!.. ط.. طــب.. فيــين؟؟ .. أجيلكــوا فيييــين؟؟!.. أنــا مــش فاهمــة حضــرتك بتقــول إيييــه!!.. طيب طيب.. حاضر، قِسم إيه؟؟.. استريا رب.. استريا رب.."

في انتظار نتيجة الثانوية من المدرسة حتى أتقدم بها إلى مصر كانت أيام تمر عليّ كما لو كنت بسجن ما.. بعد "مجزرة المدرسة" لم يتحدث أيّ منا إلى الآخر.. كأننا كنا بانتظار النتيجة لتُحرَقَ بعدها كل ملفات الذكريات المتعلقة بالسنتين الماضيتين وكلٌّ يعود أدراجه. كلما تذكرت أنني على وشك العودة نهائيًّا إلى مصر، كانت معدتي تنتابها التقلصات.. الشعور بأنك ستعود إلى حياة صاخبة مليئة بالتناقضات التي عليك الاعتياد عليها من جديد كما لو كنت "غريبًا" عن أهلها لهو أمر لو تعلمون عظيم. بعد أن كنت اعتدت على الجلباب والنعال الجلدي، سأعود إلى البناطيل الجينز وصيحات من الملابس لا حصر لها.. بعد أن كنت اعتدت على الهدوء والعيش مستقلًا بعائلتك وبذاتك، سأعود الآن إلى التدخل مع الآخرين في كل شيء، التدخل في شؤونك وقراراتك ومأكلك ومشربك.. الفضول الذي بات سمة أساسية في الجميع هناك. يالها من دنيا العجائب.. سأضطر من جديد إلى خلق هيبة جديدة واجتياز تحدٍّ جديد.. سأضطر لخلق "مهيب ركن" آخر، ولكنني لا أعلم كيف ستكون هيئته هذه المرة! كيف سأتعامل مع عالمٍ سأعيش فيه وحيدًا بالفعل بلا أبي وأمي وأخي وأختي.. فلا يزال

منعم وجازمينا صغيرين على المرحلة الثانوية.. إلى أن جاءت تلك المكالمة الهاتفية التي هزت كيان والدتي وأخرجتها من حيز الصمت لترتدي ما تيسر من ملابسها وفوقها عباءتها السوداء وتركض هاربة من باب المنزل ونحن لا نعلم ماذا يجري.. أو ربما السؤال الصحيح: "أين أبي؟!

ساعات تمر وأمي لا تزال بالخارج.. تجاوزت الساعة التاسعة والنصف مساءً.. بلا خبر أو مكالمة من كلا والدينا. ازدادت مخاوفي وازدادت معها أسئلة منعم وجازمينا.. "همّ ماما وبابا فين؟؟!".. "همّ أكيد قالولك".. "بيجيبولنا تورتة؟؟!".. أسئلة بلهاء لا معنى لها سوى القلق، وقد نفدت مني الأعذار وحجج الغياب. حاولت طرد الأفكار الشيطانية السوداء من رأسي بمشاهدة قنوات الأغاني بالتلفاز ورفع الصوت إلى أعلاه.. لكن الشيطان اللعين لم يترك لي مجالا للنسيان أو التضليل.. كأنما تذكرت كل تفصيلة قد تؤدي إلى مشكلة حقيقية، فوالدي مريض بالسكري، ولربما هو بالمشفى إثر غيبوبة سكر أو ما شابه ذلك.. ربما هو حادث سيارة.. نعم!! سيارتنا اللعينة الكابريس قديمة وقد كانت في حالة مزرية منذ الصباح، حتى إن أمي حاولت منع أبي من قيادتها عدة مرات حتى يتم إصلاحها بالكامل.. حتما هناك حادث.. يا ويلي!! ماذا سيحدث إن كان حادثًا؟؟! وما حالة والدي الآن؟؟! تبًّا لأفكار الليل.. تبًّا لها! لم يبلغ عقلي أبعد من ذلك كارثة.. حتى دق جرس الباب.. فتحت فإذا بها أمي وبيدها كيس بلاستيكيّ به عشاء جاهز من أحد محلات الشاورما القريبة من منزلنا. كان تصرفها هذا غريبًا بعض الشيء..

obeikan.com

تحاول الابتسام وكأن شيئًا لم يحدث.. تحاول إخفاء شيء ما.. ربما قد تفلحين في إخفائه على إخوتي، لكن ليس "عليّ أنا يا أمي". تناولنا العشاء بهدوء وقد تكرر سؤال: "هو بابا فين يا ماما؟" على لسان إخوتي أكثر من عشر مرات، وكانت الإجابة غير المرضية لي: "بابا عنده شغل وهايبات لبكرة.. هو اتعشى خلاص يا حبايبي، أنا كنت معاه".. ماهذا الكلام الفارغ؟؟!! بعد أن توجه كلٌّ من أخويّ إلى أسِرّتِهِم داهمت أمي بسؤالٍ حازم:

-ماما هو بابا فين؟؟

-ما انا قلتلك يا حبيبي..

-قلتيلي إيه؟؟ شغل؟

-أيوة..

-إنتي ليه مصممة تكدبي.. إنتي كدة بتقلقيني أكتر..

-يا حبيبي مفيش حاجة.. هو بس هيخلص شغله وييجي بكرة بالكتير..

-يا ماما لو فيه حاجة قو...

-وبعدييين بقي؟؟!! قلتلك مفيش حاجة يا أخي!!!

-.....

تركتني هاربة والدموع بعينيها أراها رأي العين.. أين أنت يا أبي؟؟! ارتميت فوق مرتبة سريري شاخصًا بصري إلى السقف من فوقي متأملًا شباك العنكبوت المتكوّنة على أطراف وزوايا الحائط آملًا بأن أفيق غدًا على خبر عودة أبي.. آملًا بالفعل أن تكون أمي صادقة.. وأن أكون مخطئًا هذه المرة.

يومان ولا شيء جديد عن مبيت أبي بالخارج.. يومان وقد زاد يقيني بأن الأمر ليس مجرد "غيبوبة سكر" أو حادثة.. أمي تعلم جيدًا أنه بمكان ما وهو بخير، لكن لِمَ المبيت خارجًا؟؟ وماذا تحاول إخفاءه عنّا؟؟! لا أعلم إن كانت تلك صدفة إلهية استجاب فيها الله لدعواتي القلقة على والدي أم أنها كانت مقصودة من التلفاز السعودي!! لكن اليوم تعطّل طبق الإرسال بالأعلى فشوّش على كل القنوات.. اضطررنا إلى إطفاء القنوات الفضائية ومن ثَم عدنا إلى التلفاز السعودي المملّ. في مثل هذا الوقت من اليوم يُذاعُ برنامجٌ يقدمه أحد المذيعين السعوديين من أهل جِدّة. البرنامج الذي يبدأ في الحادية عشرة مساءً يتحدث عن جرائمَ وتجاوزات أمنية في المجتمع السعودي على علاقة وثيقة بالهيئات الحكومية.. لكن حلقة اليوم كانت عن بضع تجاوزات صدرت من الهيئات الـ"خاصة".. وما جعلني تسمرت في مكاني فور أن بدأ المذيع بالحديث هو ذكره لاسم المشفى الذي يعمل به والدي.. "مستشفى مهيب الركن التخصصي"!! كان وقع كلماته كالصاعقة على أذني.. أحد الضيوف كان طبيبًا سعوديًا رأيته ذات مرة في إحدى ندوات الطب التي غالبًا ما كانت تنتهي بعشاء عمل لمؤسسات طبية شتى.. وجه الرجل مألوف لي كما لو أني رأيته البارحة.. عرفته!! إنه الطبيب المنافس لمستشفى والدي!! طبيب ورجل أعمال ذو شأن وسلطة واسعين في مجال المستشفيات الخاصة. الرجل هو أخو الطبيب الذي تعاقد مع والدي منذ البداية.. الطبيب الذي يمتلك مستشفى "مهيب الركن" والمستوصفات التابعة لها. لم يكن حديثًا مثمرًا، إلا أن أغلب ما استطعت استنتاجه وقتها هو أن المستشفى

قد تورطت في تصدير وتوزيع مستلزمات ممنوع تداولها في المملكة وأدوية مخدرة.. وأن المسؤولين عن تحرير وتوقيع الأوراق بالموافقة هم "الأطباء الذين يعملون بلا تراخيص مزاولة مهنة الطب في السعودية.. تبًّا!!!. حاولوا نشر بعض الصور للمشفى من الداخل بعد أن تم غلقها وأخذ الإجراءات اللازمة لترحيل الأطباء والصيادلة العاملين بها نهائيًّا.. وما زاد من صدمتي هو ذكرهم لأسماء الأطباء آنذاك.. وعلى رأسهم الطبيب المسؤول عن قسم من المعاملات التجارية ومساعد المدير: "دكتور/ غازي عبد المعطي".. أبي! أبي كان شريكًا في كل شيء منذ البداية!! كان المسؤول عن المعاملات التجارية والتعاقد مع بعض الشركات الأجنبية و"العربية" لإدخال بعض الأدوية المخدرة والموضوعة على قائمة الحظر.. تحدث المذيع وضيف آخر عن بعض التجاوزات التي كانت تحدث من قبل بعض العاملين والدسائس من الحكومة وقطاع وزارة الصحة وتم فتح بند "الرشاوى" الإدارية للسماح بمثل تلك المهازل في حق الدولة.. ولا أزال غير مصدق لكل تلك الترهات!! أعلم أن أبي كان في الآونة الأخيرة يغدق علينا من الخيرات والرزق ما كان يزيد عن حاجاتنا.. لكن لا يمكنني أن أصدق أن أبي هو "محتال"!

في صباح اليوم التالي سمعت طرقًا على بابنا الخشبي بينما كنت أحاول مواساة أمي التي لم يغمض لها جفن منذ البارحة.. فتحت الباب لأجد رجلًا أعرف ملامحه.. هزيلًا منكسرًا، نما الشعرالخشن بذقنه وغزت بضع شعيرات بيضاء تلك اللحية.. بدا متعبًا هالكًا

Obeikan.com

كما لو كان أُخرِجَ من الجحيم منذ قليل.. لا تزال نظارته ذات الإطار الذهبي معلقة بأذنيه ومستكينة على أعلى أنفه.. "إزيك يا عطوة؟؟".. كان صوت أبي مكسورًا هذه المرة.. كسرة لم أره من قبل بها، احتضنني وتابع المشي للداخل بعد أن ترك رائحة عرق خمسة أيام من حبس.. جلس على الأريكة مهترئة الفرش المفضلة لديه بغرفة المعيشة.. في البداية اكتفى بابتسامة هادئة ومن ثم ازدادت ضحكاته الساخرة علوًّا.. خمسة أيام على ذمة التحقيق وهو محبوس بأحد السجون.. لم تكن أفضل أحلامه لنهاية السنة. اقتربت منه أمي بهدوء واحتضنته.. حاولت أن تهدئ من روعه.. لكنه لم يبكِ، لم يذرف دمعًا، ولم يبدُ عليه أي قلق.. كان فقط مبتسمًا وكأنه كان يعلم أن تلك هي نهاية المطاف.. كان يعلم أن هذه السنة هي الأخيرة لنا جميعًا وليس لي وحدي. انطلقت أمي لتجهيز شيء يتناوله بينما ظللت أنا بالغرفة.. كان لديّ الكثير والكثير من الأسئلة التي لن أبرح مكاني حتى يجيبني عليها!!

-بتبصلي كدة ليه؟؟

-...

-أنا ماعملتش حاجة غلط يا عطوة..

-كانوا بيتكلموا عن المستشفى امبارح في التلفزيون..

-البلد كلها كانت بتتكلم..

ساد صمتٌ وكلانا جالس في مواجهة الآخر وضوء النهار قد هيأ المشهد كمسرحية صغيرة.. مسرحية "المواجهة".. قبل أن أتوجه بالسؤال التالي إلى أبي، داهمني هو قائلًا في تعجب: "إنت مصدق

إن بابـاك يعمـل كـدة؟؟ بعـد كـل اللـي عملتـه عشـان نسـافر يـا عطـوة؟".. وقـع كلماتـه أربكني.. لطالمـا صـدقته في كـل شـيء مضـى.. صـدقته عنـدما كـان يـروي لي حكايـات الليـل، صـدقته عنـدما أقنعني بـأن كلمـة "مهيـب الـركن" تعني كـذا وكـذا.. صـدقت بالفعـل كـل الترهـات التي ألقاهـا برأسـي ومـن دون مناقشـة.. لـم أَكُـن أُكِـنُّ لـه سوى "الثقة".. الآن لن أقبل إلا بتفسير حقيقي..

-بابا إنت كنت في السجن الأيام اللي فاتت..

-ماتقولشي سجن!!!!

-لأ سـجن.. وكفايـة بقـي أنـا مابقيتشـي صـغير.. هاتفضـل تكـدب عليـا لحد إمتي؟؟!

اعتـدل في جلسـته وكأنـه متهم يحـاول الترافـع عـن نفسـه بـلا محـامٍ.. قـام مـن مجلسـه والدهشـة تعلـو وجهـه الـذي زادت الهمـوم مـن نحافته وتوجه لي بسؤال:

-طيـب يـاكبير.. ماسـألتش نفسـك أنـا ليـه اتـداينت واسـتلفت مـن طوب الأرض عشان نسافر؟؟

-...

-ماسـألتش نفسـك ليـه أنـا ومامتـك كنـا طـول الوقـت بنتخـانق وكـان السفر بالنسبالنا هو حل كل المشاكل؟؟

-أنا ماقلتش إنك...

-ماسألتش نفسك إيه اللي يجبرني أقبل أذل نفسي كام سنة مع واحد بجلبية وشبشب زي ما بتقول وأستحمل مرمطة منه يجيبني يمين وشمال وفي الآخر يرميني زي الكلب ويرحلني؟؟!!

-.....

أخذ يترافع في قضيته وأنا مذهول من انفعاله وثقته العالية بكل كلمة.. أخذ يلعن اليوم الذي تعرف فيه على "عمو مرتضى" زميله ورفيق دربه في مهنة طب الأسنان، وهو الذي رشح له منذ البداية عقد العمل هذا بتلك المستشفى.. دكتور مرتضى الذي اتضح لأبي بعد الشهر الأول لنا بالسعودية أنه "سمسار أطباء" رخيص، لا يمانع في بيع أخ له من لحمه ودمه إن استلزم الأمر.. تورط والدي في صفقة لعينة اقتضت أن يختار بين أسوأ اختيارين بحياته.. إما أن يكمل كطبيب غير مرخص حتى يتم ذلك-مما قد يعرضه للكثير من الذل والمضايقات- أو أن يعود إلى وطنه يجر أذيال الخيبة والندم على ما أضاعه من وقت في تلك التجربة الفاشلة.. وما كان من أبي إلا أن اختار التكملة، ليفاجأ بمدير المركز يعرض عليه عرض الأحلام.. أن يكون شريكًا "بالمجهود والخبرة".. مديرًا تنفيذيًّا بلا أسهم في المستشفى.. وبعد الكثير من المماطلة وإغراءات مادية قد تغير مستوانا المعيشي وتنقلنا من السبع أراضٍ إلى السبع سماوات، اختار أبي أن يبقى.. اختار أن يغامر.. حتىاكتشف أنه لا شيء يربطه قانوني منذ البداية، وأن الكفيل قد يستغني عن خدماته في أي وقت.. ولكن لعل تلك كانت نعمة الله الكبرى عليه، فبثبوت أنه لا علاقة له قانونيًّا بالمعاملات غير المشروعة التي

جرت بالمشفى مؤخرًا.. اكتفت المحكمة فقط بترحيله نهائيًّا وإنهاء تأشيرته.. وعندما لم يجد أبي أني قد استوعبت مرافعته كما ينبغي.. رمى لي بسؤالٍ كالسهم:

- إنت فاكر إننا سافرنا عشان الفلوس والعيادة اللي هتبقى مشروع العمر؟؟ لما تكبر ويبقى عندك أسرة هتفهم أنا قصدي إيه يا عطوة..

-أنا مش هاستني لحد ما أكبر.. فهمني.. جربني..

-عارف.. حتى لو انت افتكرت إني كنت بأقسو عليك أو بأحرجك قدام حد.. عايزك تعرف إنك إبني.. وإنك حققت كل اللي كان نفسي أحققه لما كنت قدك.

-إزاي؟!

- حبيبي إحنا سافرنا واتغربنا واتداينا وفضلنا نسدد في ديوننا أول سنة مش عشان نجيبلكوا فلوس.. لكن عشان تتربوا أحسن.. عشان تتربوا بعيد عن "الوساخة".. الوساخة اللي لو كانت اترسخت فيكوا في السن ده بالذات، كنت هتفضل طول عمرك تكرهني أنا وأمك..

-....

- مفيش حد بيسيب وطنه عشان يجيب فلوس يا عطوة.. عمر الإجابة ما كانت "الفلوس بس".. بس ماتبقاش تقول لمامتك اني قولت قدامك "وساخة"! أحسن تتهمني إني بأبوظ أخلاقك!

للمرة الأولى التي أتحدث فيها إلى أبي أشعر وكأنه "صديق".. وليس "أبًا". كان حديثه دافئًا واثقًا من كل كلمة يخرجها من فيه.. ربما

Obeikan.com

للمرة الأولى شعرت بأنه لا حجاب بيننا كأب وابنه.. ربما هي الأولى أيضًا التي أشعر فيها أني صرت أكثر نضجًا ليتحدث معي هكذا. همّ أبي بالخروج لينال قسطًا من الراحة يعوض به ما فاته من أيام مضت ككابوسٍ مزعج.. لكني استوقفته لأسأل سؤالًا آخر.. سؤال كان عليّ أن أعرف إجابته اليوم..

-بابا.. إنت لسا مقتنع إن فيه حاجة إسمها "مهيب الركن"؟؟! زي ما حكيت لي زمان؟؟

بابتسامة حانية وعينين تلمعان نظر إليّ مباشرة ومن ثَم أجاب وبكل ثقة:

-أنا دلوقتي "متأكد" إنها مش أسطورة.. لأني شايف واحد منهم قدامي.. يا مهيب الركن..

ماهي إلا عدة أيام حتى كانت حقائبنا من نوع "رحلة سعيدة" مجهزة وممتلئة عن آخرها.. تلك الحقائب القماشية التي كانت ولا تزال تذكرني برجال بدينين يرتدون قمصانًا "كاروهات" ومغشيّ عليهم يُحمَّلونَ بصعوبة.. تلك الحقائب التي بها أتينا وسنعود كما كنا. لا أذكر أنها كانت أقل أو أكثر من المرة الأولى التي أتينا فيها إلى الرياض.. لم يكن لدينا الكثير لنقلق بشأن تركه أم أخذه.. لم يكن هناك الكثير مما يمكننا حمله كتذكار ولا يوجد منه في مصر.. حتى السواك! كانت سنوات عجافًا لعائلة غازي.. سنوات تغيرت فيها معالم شخصيتي وأفكاري عن كل شيء.. حتى عن نفسي، وكانت المحصلة المادية لنا منها هي شقة بالمعادي ستجعلنا من أهل

المناطق الراقية وذوي المستوى الاجتماعي المرموق في مدينة لا تهتم سوى بالـ"قشرة الخارجية". ورصيد ماليّ يكفي لتحويل شقتنا القديمة بالأميرية إلى عيادة أسنان شعبية مثالية لها زبائنها مقدمًا. ربما كانت رحلة شيقة بأعماقي.. أو ربما هي مصير محتم كان عليّ أن أمر به لأتعرض لأسطورة مهيب الركن تلك.. وما زاد من حيرتي هو ثقة والدي المتناهية بتلك الأسطورة.. السؤال الذي دعاني لأسأله: "هل نحن من نصنع الأساطير.. أم أننا مجبرون على اتباعها وعيش تفاصيلها منذ ولادتنا؟؟". كأنها طائر في عنق كل مولود ألزم به حتى يصل إلى السبب الحقيقي لخلقه.. السؤال الذي ذكرني بـ"من أتى أولًا، البيضة أم الفرخة؟".. "هل أنت من تصنع أسطورتك ووهمك الخاص وتصدقه حتى يصير حقيقة وأمرًا واقعًا؟؟! أم أنك تُولَدُ "تابعا" أو عبدًا لسلسلة كبيرة من الأحداث تصنع منك أسطورة وبطلًا لحكايتك؟".. "هل أنت مخيّر أم مسيّر؟؟!". حتى اللحظة الأخيرة قبل إقلاع الطائرة المتجهة إلى القاهرة-بلدي الأم- كان عقلي مشغولًا بافتراض الإجابات لتلك الأسئلة.. ربما الآن فقط علمت لم كانت المسائل الكلامية اللعينة صعبة إلى تلك الدرجة على والدي أن يفهمني إياها.. لأنه هو الآخر لم يكن يعرف الإجابة.. كان فقط يماطل حتى أَمَلّ وأَكَلّ منه. ومع اقتراب الطائرة من سماء القاهرة المضاءة ليلًا بأضوائها البرتقالية الدافئة الجذابة، توصلت إلى إجابة قد ترضيني بعض الشيء.. أنك "لن تعرف أبدًا الحقيقة"، ولكن ما عليك سوى أن تكون كالماء.. إذا كنت بكوب كروي فأنت كروي، وإن كنت بإناء مكعب فأنت مكعب.. وإن كنت ملقى على سطحٍ مستوٍ فأنت مستوٍ فاردًا

جزيئاتك في كل مكان تاركًا كل بقعة مبللة من آثار مرورك عليها.. أنت في الواقع "مهيب ركن" مهما حييت وأينما كنت.. فقط.. تَقَبّل تلك الحقيقة وامضِ إلى مستقبل لا تعلم تفاصيل غيبياته.. أنت خلقت من ماء وستعيش كالماء قابلًا للتأقلم والتكيّف.. فلا تجادل. وباقتراب الطائرة من مجال الهبوط البري المضاء على جانبيه بإضاءات صغيرة مصطفة يَمنَةً ويَسرَة.. تذكرت أنه لا يزال هناك سؤالٌ واحدٌ لم أستطع الإجابة عليه حتى الآن.. سؤالٌ لطالما سأله الكثيرون لي وكنت أتهرب من الإجابة عليه بسذاجة وخجل.. وحتى اليوم بعد كل ما مررت به من سنوات مضت، لا زلت أقف عاجزًا أمام الإجابة عليه عندما سألني إياه "زميل المقعد الليبي" هذه المرة، والذي خرج عن صمته طوال ساعتين ونصف لم ينطق فيهما ببنت شفة.. وعندما علم أني مصري من لهجتي، لم يستطع المقاومة.. فحاول أن يسألني إياه بـ"لهجتي المصرية":

"ها.. قوللي بقى...هنا أحسن؟؟ ولّا السعودية؟؟!"..

توقيع/ مَهِيبُ رُكنٍ آخر...

تم بحمد الله

obeikan.com

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

ن
للنشر
والتوزيع

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007

obeikan.com